



تأليف

الدكتور علي محمد الحديدي

مايو سنة ١٩٦٧

أعلام العرب

٦٥

محمّد سافى البارودى

تأليف

الدكتور على محمد الحديدي

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

مقدمة

شد ما جذبني البارودي اليه بقوة وأنا ادرس ادبنا في مطلع النهضة وأبحث عن بيئته الأدبية في تاريخنا الحديث ، فقد كنت أجد الرجل - وهو بالانفاق امام حركة التطور والبعث في الشعر العربي الحديث - وكأن سوء الطالع الذي لازمه في حياته لاحقه بعد وفاته ، فقد فارق الدنيا منذ أكثر من ستين عاما ولما تستكمل عناصر البحث والدراسة لأدبه ، فالمصادر الأصلية ، من ديوانه ، وكتبه ومذكراته ما زال جزء منها غير ميسور للباحثين . فما طبع من ديوانه لم يتعد قافية اللام ، وجاءت قصائده خالية من مناسباتها وتواريخها فتعرض تفسيرها وتحديد بيئتها ومناسباتها لمظان التخمين والاجتهاد ، أو لمواطن الخطأ حين اعتمد الدارسون على تاريخ الثورة العرابية الذي تدخلت فيه الأهواء والافتراءات وكتبت أصول أحداثه في غفلة من الزمن ومن ضمائر العلماء والمحققين « أقلام التشهير » « وأقلام التبرير » .

كتبته أقلام التشهير المأجورة من القصر أو المحترفة من مؤرخي الاستعمار ، وقد استهدفت عقب هزيمة الثورة العرابية تشويه زعمائها في أشخاصهم وفي مواقفهم منها ، لتصاب الأمة بخيبة أمل في الزعامة المصرية فتخبو روحها المعنوية وتيأس من الكفاح ، وتستكين للاستعمار ، ولتحجب عن الأجيال المقبلة حقيقة النضال الوطني ومواقف البطولة التي وقفها الزعماء وما قدموه من تضحيات في سبيل تحرير وطنهم ، خشية أن تستهدى الأجيال الخطى ، وترسم الطريق ، ويظهر بينها زعماء آخرون يحملون الشعلة ويواصلون الجهاد دفاعا عن شرف الوطن المغلوب ، وحتى تضمن

الرجعية والاستعمار بقاء النكسة لصالحهما ومواصلة القهر والاستغلال ضد شعب مصر . وكتبته أقلام التبرير التي انبرى بها بعد وفاة الزعماء أصدقاءهم وتلاميذهم - وقد أصيبوا باليأس ، واستكانوا للاستعمار ، يبررون اشتراك الزعماء في الثورة ، ويدفعون عنهم - أمام المستعمر وأعوانه في البلاد - جريرة وقوفهم ضدهم . ويعتذرون عنهم بأن انضمامهم للثورة لم يكن عن يقين أو طوعية ، بل حملهم عليه كرها « رجال العسكرية » . وقد برر واعتذر محمد رشيد رضا عن الشيخ محمد عبده في كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ، وأحمد سمير عن عبد الله النديم في مقدمة كتاب « سلافة النديم » ، وياقوت المرسى عن محمود سامي البارودي في مقدمة كتاب « مرائي الشعراء » (١) والذي يدعو الى الدهشة حقا أن تاريخ الثورة العربية ما زال يكتب الى اليوم معتمدا في مصادره على ما نفثته أقلام التشهير من سموم وما تجنت به ولفقت له أقلام التبرير !!

ووجدت الذين سبقوا بالكتابة عن البارودي قد اكتفوا بما ظهر من الديوان واعتمد أكثرهم في تحديد بيئة النص ومناسبات القصائد على التاريخ المفلوط . والقدر الذي ظهر من الديوان ناقص ومبتور تناولته يد الاعتداء بالحذف والتشويه فقد اكتشفت من مراجعة الأصل المخطوط على الجزء المطبوع أن هناك من القوافي التي طبعت قصائد برمتها حذفها الناشر وأسقطها من نشرته ، ومن ثم كان ناقصا ، وكان مبتورا لأنه حذف أيضا أجزاء من قصائد طبعت فبدت مشوهة لا تعطي الدلالة التي أرادها الشاعر لشعره ، وحذف كذلك من عنوانات بعض القصائد أجزاء توضح مناسباتها وتحدد

(١) جمع فيه خليل مطران مرائي الشعراء على قبر البارودي في ذكرى الأربعين لوفاته ، انظر الجوانب المصرية عدد ٥٧٢ في ١٥/١٢/١٩٠٤ ، ومحمد رشيد رضا انظر المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ في ٢٣/١٢/١٩٠٤ .

تواريخها ، مع أن ذلك المحذوف من القصائد وأجزاء القصائد ومن
عنوانات القصائد يمثل جزءا مهما من حياة البارودي ووطنيتسه
وعقيدته الثورية ضد الاستبداد والفساد والاستغلال ، وتدفع عنه
كثيرا من تبعات التجنى التى ألقاها عليه المؤرخون والأدباء !!

ومن أجل ذلك كنت أجدنى مشدودا الى الرجل لا أستطيع
صرف نفسى عن التفكير فى استكمال جوانب البحث فيه شاعرا
وسياسيا ، خاصة وقد درست تاريخ الثورة العراقية دراسة
مستوفاة ، وواتنى الفرصة للاطلاع على ما كتبه المؤلفون الأجانب
عن هذه الفترة من تاريخ مصر - وما أكثرهم - وعلى الوثائق السرية
لوزارة الخارجية البريطانية وعلى الصحف الأجنبية التى عاصرت
الثورة العراقية وتابعت أحداثها .

والحق أن الذين سبقوا بالكتابة عن البارودي الشاعر لهم فوق
فضل السبق يد على هذا البحث ، فقد مهدوا له الطريق ، وذلوا
كثيرا من صعابه ، وكانت الفائدة التى جنيته من كتاباتهم كبيرة
بحيث أجد هذا البحث مدينا لهم بالكثير .

وحتى أضيف جديدا الى البحوث السابقة وجدت لزاما أن
استكمل النقص فى المصادر الأصلية والفرعية عن
البارودي ، وأن أحصل على الديوان فى صورته الكاملة قبل الحذف
والتشويه ، وعلى الجزء الذى ظل حتى اليوم مخطوطا منه ، وعلى
مذكرات أسرة البارودي ، ومعلوماتها ، وأن استدرك ما فات
الباحثين قبلى من تحقيق الصورة السياسية والتاريخية الحقيقية
للرجل من آثاره ومن التاريخ الصحيح ، حتى تتوفر البيئة
السليمة لشعره فيمكن الوقوف على ما قصد الشاعر من دلالة له ،
وقد تمكنت من الاطلاع على نسختين مخطوطتين للديوان أحدهما
كاملة والأخرى قريبة من الكمال ، فوجدت بعد الدراسة والبحث
أن البارودي لا يمكن استكمال صورته الأدبية والتاريخية دون
الساقط من قصائد الجزء المطبوع أو المبتور منها ، ودون العناوانات

التي حذفت ، أو دون الجزء المخطوط من الديوان ، خاصة وقد تبينت أن أكثر ما حذف من القصائد أو أجزاء القصائد يهاجم الأسرة الحاكمة الدخيلة وعملاءها ركائز القهر والاستبداد وعوامل الفساد في البلاد . والعنوانات المحذوفة تحدد مناسبة بعض ما طبع من القصائد وقد قالها « يعرض بذكر المظالم على عهد الحكومة الاستبدادية » أو قالها « يذم رجال الحكومة الاستبدادية على عهد اسماعيل خديو مصر » ، وظهرت النشرة الأولى (١) للديوان حتى قافية اللام خالية من هذه المحذوفات وظهرت النشرة الثانية (٢) حتى قافية الكاف مقتفية سابقتها في الحذف والاسقاط .

أما الجزء المخطوط من الديوان فقد وجدت فيه أكثر غزليات البارودي وخمرياته بحيث وضحت وتجلت نوازع الحب الحقيقية عند الشاعر ، وظهرت صبوات قلبه وتجارب غرامه وأحسائه ، ومعاناة الصد ولذات الوصال ، وكانت من الصدق بحيث لم تخف عنا حتى نازغ الشيطان حين راوده مرة إلى الحب الأباحي فنهل منه وارتوى ، وكذلك بدت لذته من الشراب تظهر بوضوح في معاقرة الراح وحيدا ليصرف بها همومه ، أو في مجالس الأنس بين الرفاق والساقيات والمغنيات ينتهب اللذة في فورة شبابيه وبين دعوات الحروب انتهابا ، وما جاء في الجزء المخطوط من صبوات البارودي وخمرياته يدفع الادعاء الذي ذهب إليه بعض الكتاب من أن البارودي في غزله وخمرياته لم يكن الا مقلدا ينسج على غرار الأقدمين .

وفي الجزء المخطوط هجاء مشين لتوفيق وحاشيته وقد وقفوا ضد رغبة الشعب وأمانيه في الحكم الدستوري وربطوا مصيرهم

(١) عام ١٩١٥ وقد تولى شرحها والإشراف على طبعها محمود الإمام .

(٢) ١٩٤٠ - ١٩٤٢ وقد أخرجها وشرحها الأستاذ علي الجارم والاستاذ

محمد شفيق معروف .

بقوى النفوذ الأجنبي ، وهجا فيه رياضا واستبداده هجاء فاحشا بعد استقالته من وزارة الحربية (١٨٨١) وهجا فيه اسماعيل - وهو يعمل ياورا له - بعد أن ساق البلاد الى هاوية الخراب والافلاس ، وأوقعها في براثن الديون والنفوذ الأجنبي ، وحدد البارودي موقفه من معاقل الرجعية والاستبداد وصنائع الاستعمار وثار عليهم ووقف مع الشعب في وجه الظلم والجور .

وقد استعنت بالجزء المخطوط في استكمال الصورة الأدبية والتاريخية للبارودي واستشهدت بأبيات كثيرة لم تنشر من شعر الشاعر وحققتها جميعها لتوضيح جوانب شخصية البارودي وشاعريته وتاريخه .

ودينوان البارودي جاءت قصائده - الا ماندر - غفلا من المناسبات والتواريخ ، وكان من الضروري تنمة للبحث ، الوقوف على هذه المناسبات والتواريخ ، وقد سلكت في ذلك سبيلين : أولهما الاستعانة بالصحف والدوريات التي عاصرت البارودي قبل النفي وبعده ، وقد وجدت مصدرها مهما من مصادر الدراسة للبارودي ، وقد كانت توليه وهو الوزير ورئيس الوزراء وسياسي الثورة العربية اهتمامها البالغ وعقب الهزيمة شهرت عليه الصحف الرجعية والاستعمارية أقلام التشهير ، وبعد العودة كانت الصحف الأدبية تتسابق الى نشر شعره وقد بلغ به الزعامة والامارة بين الشعراء في البلاد العربية ، وكانت الصحيفة التي يخصها البارودي بمقطوعات من شعره تدل على زميلاتها وتفخر ، وتضفي العنوانات الضخمة على القصائد التي تنشرها . وكانت السبيل الثانية هي الاستعانة بكريمتى الشاعر ، فاطمة ومشيرة وقد أمدتاني مشكورتين بمعلوماتهما - وما أغزرها مادة ونفعا - لمعرفة مناسبات القصائد وتواريخها وتوضيح بعض الجوانب التاريخية من حياة أبيهما ، وأطلعتهاني على مذكرات الأسرة الخاصة وعلى شجرة

النسب ، وأفادتني معلوماتهما أيضا في تفسير كثير من المعانى التى قصد اليها أبوهما رمزا وكناية (١) .

وتبينت من الدراسة أن الذين كتبوا عن حياة البارودى مستدلين بشعره قد انساقوا وراء ما افتراه كاتب يد الناظم فى سنيه الأخيرة من شعر ونسبه الى البارودى فى « حملة التبرير » ، وكان عطية حسنين شاعرا كذلك ، ومن كثرة مخالطته للبارودى وقراءة شعره وكتابته استطاع أن ينظم شعرا فيه عناصر شعر البارودى من فخره بنفسه ومن حسن الصياغة ورنين الموسيقى وينسبه الى البارودى دون أن يلحظ أحد اقتيابه على البارودى وعلى التاريخ ، وقد افترى ثلاثة أبيات (٢) - زعم أن البارودى قالها بعد الاستقالة من وزارة الجهادية - فيها ربح الاعتذار لتوفيق ، وأبياته خمسة أخرى يعتذر بها عن البارودى فى حرية الانجليز ، وأنه لم يدخل هذه الحرب عن يقين ولا عن طواعية ، وقدم لها بقوله : بعد أن استعفى البارودى (من نظارة الوزارة مايو ١٨٨٢) لزم داره ، وتباعد عن الحكومة ورجالها ، وصار يتفقد مزارعه ومصالحه الخصوصية حتى شبت نار الحسب بين مصر وانجلترا ، ودعى من رجالها لمساعدتهم ، فأجاب على كره منه بعد أن نصحهم بالبعد عن الدخول فى غمرتها ، والى ذلك يشير بقوله :

نصحت قومي وقلت الحرب مفاجئة

وربما تاح أمر غير مطنون

فخالفوني وشسبوها مكابرة

وكان أولى بقومي لو أطاعوني

(١) كان اتصالى بهما ومقابلاتى معهما خلال شهر مارس ١٩٦٦ وقد ساعدنى

مشكورا على عقد هذه الصلة معهما جفيد الشاعر الأستاذ حسن عصمت .

(٢) انظر مقدمة كتاب مرالى الشعراء جمع خليل مطران (١٩٠٥)

تأتى الأمور على ما ليس فى خلد
ويخطئ الظن فى بعض الأحيان
حتى إذا لم يعد فى الأمر منزعة
وأصبح الشر أمرا غير مكنون
أجبت اذ هتفوا باسمى ومن شيمى
صدق الولاء وتحقيق الأظانين (١)

ولم أجد لهذه الأبيات السبعة أصلا فى الديوان المخطوط
ولا تعرف كريمتا الشاعر من أين أتى الكاتب بهذه الأبيات ولم تسمعا
بها فى شعر أبيهما .

والبارودى أول من حول تيار الكراهية عن القدماء المصريين
وآثارهم فى عصرنا الحديث، بعد أن استعبدنا وهم التفسير الخاطيء
للدين ، فصببنا جام الكراهية على أجدادنا الفراعين ، ولم نحترم
آثارهم قرونا طويلة ، وأخذناهم جميعا بجريرة قرعون واحد طرد
موسى وبنى اسرائيل من مصره ، وجاء البارودى فهتف بأمجادهم
وأشاد بعلومهم على الدنيا وغنى للأهرام وأبى الهول وآثارهم
الخالدة وجعلهم مناط الفخر الذى لا فخر بعده للمصريين ، ودعا
قومه أن يسيروا على نهجهم فى العلم والمعرفة حتى يصلوا مجدهم
بأمجاد الفراعين السابقين جدودهم .

والبارودى أول شاعر فى العصر الحديث تغنى بصبوات القلوب
على ضفاف النيل وصدق بأوطار القلوب فى معاهد الجزيرة والروضة
وشبرا وحلوان ، وافتنن بهذه المعاهد والمغانى وقد أذكى جمالها
فى قلبه قبس الحب وجذوة الفرام فكانت مسرح هواه ومغنى لهواه
وهى معاهد ندر من يعرف وجوها الصباح .

والبارودى أعاد لنا بشعره صورة الشعراء الفتيان من أغوار
التاريخ ، وأقامها ماثلة فى عصرنا الحديث وقد ملأت الأريحية

(١) المصدر السابق ص ١٨ - ١٩ .

المصرية عطفية فمجد الفتوة المصرية بفتواته وشماله وشيمه وفخره وفروسيته حتى غدا محسود الجلال وكأنه على كل نفس في الزمان أمير ، وكانت فتوته تأخذ وقودها من القلب والروح فهي التي أشقته بالمجد وأشقته بالتضحية والفداء في سبيل وطنه .

والبارودي أول من طرق الشعر السياسي في العصر الحديث فنادى بالثورة المسلحة على الفساد والظلم (١٨٦٨) في عهد اسماعيل ، والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ويد الظالم من حديد والناس كلهم له عبيد وأي عبيد . وهاجم اسماعيل وحاشيته والفساد والاستبداد في عهده وتوفيقا وخذلانه ووقوفه في سبيل آمال الأمة ودعا الى النظام الدستوري ، ووقف مع الثورة يدافع عن دينه ووطنه وحرية ضد الاستغلال والتحكم والاستعمار . والبارودي أول الشعراء المثقفين في العصر الحديث ، نال حظا من الدراسة المعهدة والحربية وتعلم اللغتين التركية والفارسية واطلع على آدابهما ، ونظم بهما ، وقضى ثمانية أعوام بالآستانة ينهل من معين الثقافة التركية ويتزود بالتجربة ويبحث عن دواوين الفحول من الشعراء في مكتبات الآستانة ، وينسخ ما يستطيع من مخطوطاتها ، ويعود بها الى مصر ليستكمل تكوينه الفني على النمط الطبيعي السليم فيقرأ دواوين الفحول من الشعراء ويحفظ مئات القصائد ويستثبت معانيها ويدرسها دراسة أدبية - كما يقول أستاذه حسين المرصفي - ناقدا شريفها من خسيسها ، واقفا على صوابها وخطئها ، مدركا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي وبذلك غذيت قريحته منذ نضارتها على روائع الشعر العربي الكلاسيكي وعاش في صحبة الشوامخ من شعرائها وغنيت ذخيرة خياله الفني بكل رائع معجب من الصور والأساليب حتى أصبح كل ذلك جزءا من ثروته اللغوية والأدبية ، وحتى أصبحت القدرة على التعبير الاصيل طبيعة فيه . وطبعي أن يسلك البارودي - وهذا تكوينه الفني - مسلك القدامى في الشعر فيحافظ على النسق الموروث في القصيدة الشعرية ، وتسرى في شعره العناصر القديمة

في اللفظ والصورة والمعنى ، وبذلك يكون أماما « لمدسة المحافظين » في الشعر الحديث .

والبارودي بالاتفاق رائد حركة التطور في الشعر العربي الحديث فقد طلع في سماء الشعر طلوع الفجر الجديد ، وكأنما بعثته السماء ليخرجه من ظلمات الهاوية التي تردى فيها أكثر من خمسة قرون تلفه أكفان الصنعة وجذب القرائح وفساد الذوق ، الى نور الفطرة السليمة ، وبهجة الديباجة ، وصحة التركيب ، بموهبة عاتية واستعداد فني وأدبي متين . وقد اتجهت بالبارودي موهبته وثقافته وتكوينه الفني والأدبي الى رحاب الكلاسيكية فبدأ بها في شعرنا الحديث طورا جديدا من جلال الصياغة ورنين الموسيقى ومجارية القدماء في صورهم ومحاكاتهم في الأغراض والمعاني .

وقد تمثلت الكلاسيكية في شعر البارودي بنوعها أصدق تمثيل : قديمها أو ما يعبر عنها « بالكلاسيكية الضيقة » ، وهي التي تجارى القدماء في اللفظ والمعنى دون أن تتصل من قريب أو من بعيد بالشاعر وتجاربه ، أو تنير جانبا من جوانب عصره . وذلك يظهر أكثر ما يظهر في شعر المرحلة الأولى من حياته ، وهو يعارض القدماء ، ويروض القول على نمطهم استثباتا وامتحانا لشاعريته ، وجديدها ، وهي التي تعتمد على جلال الصياغة والاطر الأسلوبى القديم لتعبر عن عواطف الشاعر وتجاربه ، أو تتصل بأحداث عصره صراحة أو رمزا ، والبارودي في أكثر شعره تمثل القديم ورمز به لعواطفه ، واحتفظ فيه بشخصيته ، وأثار به جوانب عصره فرد الى الشعر العربي أساليبه الناصعة التي كادت تندثر ، يعبر بها عن الحاضر في مجالاته المختلفة فيسحر بشعره الأسباب ويأخذ به مجامع القلوب . سحرنا لأنه متصل بماضينا وبالروح الموروثة المستكنة في أعماقنا وهي الروح العربية الخالدة فبعثها في واقعنا ، وأخذ بمجامع قلوبنا لأنه لم يتحرر ذلك التحرر الذي يقطع الصلة بين الماضي والحاضر بل أخرج في اطاره القديم من واقع العصر وعواطف الشاعر وذلك جمال التجديد في شعر البارودي .

وبعد ، فقد اضطررتى التقيد بعدد صفحات « أعلام العرب » الى اختصار جزء كبير من بحثى عن البسارودى ، ولا أدعى أننى أحطت بكل شيء خبرا عن الشاعر ، فطاقة ثورية لها كل هذه الحياة العريضة . وقد نسجتها يد الزمن من الأحداث والعبر ، ونظمتها يد المقادير صفحة فى تاريخ مصر الحديث ، وموهبة فنية عاتية جاءت منقادة ريادة حركة التطور فى شعرنا العربى الحديث بعد انتظار طويل ، لا يمكن أن يحيط بكل مجالاتهما كتاب واحد ، ولست ادعى أن البحث مثالى خال من العيوب والمآخذ ، ولكن حسبى أننى بذلت الجهد والطاقة وتوخيت الصدق والانصاف ما وسعنى ذلك مبتغيا وجه الحقيقة . . وأرجو أن أكون قريبا منها والله المستعان .

على الحيدى

كلية البنات - جامعة عين شمس

شكر وتقدير

أجدنى مدينا بالشكر والتقدير لكريمتى الشاعر الفاضلتين فاطمة ومشيرة ولحفيدة الأستاذ حسن عصمت على معونتهم ومعروفهم ، فقد قدموا الى ما فى وسعهم من معلومات ومذكرات .

وأذكر بالشكر والتقدير أيضا الأستاذ محمد شفيق معروف حائز احدى مخطوطات الديوان فقد أطلعنى عليها وقضيت معها فى الدراسة والبحث والمقارنة أياما عدة .

الفصل الأول

المولد والنسب والنشأة

المولد والنسبة :

شهد يوم الأحد السابع والعشرون من شهر رجب عام ١٢٥٥ هـ (١) (٦ أكتوبر ١٨٣٩ م) مولد امام الشعراء المحدثين، ورائد النهضة في الشعر العربي الحديث «محمود سامي البارودي» .

وسعدت « سراى البارودي » قرب « باب الخلق » بالقاهرة باستقبال الوليد الذي أعدته نفسه ليكون زعيما من زعماء الحركة الوطنية في مراحلها الأولى ، والذي صنفته الأيام ليقدّم على مذبح الوطنية فداء من عمره واغترابه ، وتضحية من ماله وأهله ونور عينيه .

والبارودي من أسرة جركسية تجرى في عروقها دماء الأمراء من «دولة المماليك الجراكسة» الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف قرن (١٣٨٢ - ١٥١٧) . والجراكسة المماليك طبقة من المولدين الذين وفدوا الى مصر بعد أن غزا التتار بلادهم ودمروها وساقوا أهلها جماعات الى أسواق الرقيق المعروفة في آسيا فملئت بهم

(١) ياقوت المرسى وعطية حسنين : مقدمة « مرائى الشعراء لمحمود سامي البارودي » جمع خليل مطران (مطبعة الجوائب المصرية سنة ١٩٠٥) ، النار مجلد ٧ جزء ٢٠ في ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

وباعهم التتار بأثمان بخسة ، واستكثر سلاطين مصر وذوو النفوذ فيها من شراء الممالك . وكانوا من أول يوم ينضمون فيه الى رجالات الدولة وذوى السلطان يصبحون لهم أهلا وأتباعا ، ينسبون اليهم ، ويحملون أسماءهم ، ويرثون عنهم بالولاء مناصبهم وأموالهم ودورهم ، حتى نساءهم . وكانت رابطة الولاء للسيد والوطن الجديد أقوى من رباط الأسرة والوطن الأم . ويصبح المملوك - وقد جاء فتي يافعا - لا يعرف له أهلا غير أهله الجدد ، ولا موطننا غير مصر التى قدمت له المأوى والجاه والسلطان .

ومن ثم لم تكن لنسبتهم وألقابهم قاعدة يلتزمون بها بل ينتسبون الى السيد تارة ، والى الرئيس تارة أخرى ، وكثيرا ما ينسبون الى الوظيفة أو الالتزام ، وقد يأخذ الواحد منهم لقب زوجته اذا كانت تفوقه شرفا وغنى وجاها ، ولذلك غمض منشؤهم ، واختلطت انسابهم ، وضاع التسلسل الأسرى بينهم ، ولاقى الباحثون العنت والمشقة فى سبيل ردهم الى أصولهم ومعرفة آبائهم وأجدادهم الحقيقيين .

وشاعرنا البارودى نفسه ذلك الذى تاه على الدنيا بأجداده ، وملا سمع الزمن فخرا بهم ، واجه هذه الصعوبات عندما أراد تحقيق نسبه « وكان شديد الحرص على معرفته وتتبعه الى أصله ، فبذل الجهد وبحث ونقب فى أنحاء القطر وراجع النصوص وحجج الوقف » ، « وسأل أهل العلم والسن والمعرفة ، وانفق فى سبيل ذلك ما يقدر بنحو ثلاثة آلاف جنيه (١) » وبعد سنوات قضاهما هو وفريق من العلماء (٢) فى الدراسة والتحقيق خرج لنا عام ١٨٨١ بصحيفة لنسبه « ينتهى فيها (من جهة أمه) كما فى حجة الوقف الشرعية المسطرة فى محكمة مصر المؤرخة ١٨ من ذى القعدة

(١) جورجى زيدان : مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) كان على رأسهم صديقه الشيخ محمد عبده وكتب صحيفة النسب بخطه . انظر المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

عام ١٠٩٧ ، وكما في حجة التغير المؤرخة ١٨ من صفر عام ١١٩٥ هـ الى نوروز الاتابكي الملكي الأشرفي أخى برسبای قرأ المحدثي « (١) ويتصل نسبه أيضا - كما تدل شجرة النسب المخطوطة (٢) - الى السلطان نور الدين شاهنشاه أخى السلطان يوسف صلاح الدين .

وحين نستعرض ما جاء بشجرة النسب ، وما ذكره ياقوت المرسى وعطيه حسنين كاتبا « البارودي » بعهد أن كف بصره ، وملازماته في أيامه الأخيرة (٣) ، وما أثبتته محمود الامام راوية الشاعر وصديقه بعد النفي ، ومحقق جزئين من ديوانه وشارحهما وما لدى كريمى البارودي وأحفاده من معلومات ومذكرات وأوراق خاصة ، ونطبق ذلك كله على الحقائق التاريخية نجدنا مضطرين الى أن نأخذ الأمر بالحيلة ، ذلك لأن الشجرة تحتاج الى كثير من الايضاح والتصحيح كي يوافق ما جاء فيها مفهوم التسلسل في النسب بقواعده المعروفة ، ومع ذلك فهي عمل كبير يساعده الدارسين ويجنبهم كثيرا من المشقة والجهد ويلقى كثيرا من الضوء على نسب الشاعر الكبير .

ويبدأ نسب البارودي من جهة أمه بفاطمة هانم البارودية . وكانت هي وأخوها ابراهيم البقية الباقية من أسرة « البارودي » ذات الجاه والفخار ، وكانا الوريثين الوحيدين لضياع الأسرة الواسعة وقصورها العديدة الموقوفة (٤) ، بعد أن قتل أبوهما « على أغا البارودي » في مذبحة المماليك بالقلعة عام ١٨١١ .

وعلى أغا البارودي جد الشاعر لأمه لم يكن من أسرة البارودي،

- (١) مقدمة ديوان البارودي شرح الامام .
- (٢) شجرة النسب المخطوطة في حوزة كريمى محمود سامى البارودي فاطمة ومشيرة ، وهي تفرغ لما جاء في صحيفة النسب التي حققها البارودي في حياته .
- (٣) كتاب ترجمة حياة البارودي مقدمة لكتاب « مرآة الشعراء » جمع خليل مطران (١٩٠٥) .
- (٤) انظر الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٥١ - ٥٣ ، مذكرات الأسرة .

بل كان مملوكا وخازندارا لمحمد أغا البارودي وحين تزوج بفاطمة قادن البارودية بنت زليخا خاتون البارودية من أحمد أغا البارودي انتسب على أغا الى أسرة زوجته فاطمة قادن البارودية ولقب بلقبها (١) .

والأمير أحمد أغا البارودي (٢) والد فاطمة قادن البارودية — جدة الشاعر لأمه — لم يكن « باروديا » كذلك ، بل كان مملوكا لابراهيم كتحدا مستحفظان القازدوغلى ، وبعد أن تزوج بابنته سيده « زليخا خاتون البارودية » انتسب اليها وأصبح « باروديا » بالولاء .

والأمير ابراهيم كتحدا والد زليخا خاتون تزوج بفاطمة خاتون المعروفة « بالست البارودية » ولم ينتسب اليها لأن له من نفسه ومركزه وسلطانه وأتباعه ما يجعله أعلى مجدا وفخارا من زوجته ، وما يفنيه عن الانتساب الى أسرتها ، فقد تولى إمارة الحج ومشيخة البلد وهما أرقى مناصب الولاية .

« فاطمة خاتون » زوجة ابراهيم كتحدا مستحفظان القازدوغلى بنت مصطفى جلبى (٣) ابن الأمير قاسم ايواظ الجركسى يصعد نسبها الى الأمير مراد جلبى البارودي وهو الذى بدأت به نسبة « البارودي » الى الأسرة فقد كان ملتزما (٤) « لايتاى البارود » بمحافظة البحيرة فنسب اليها كما هو عادة المماليك فى ذلك الوقت (٥) .

(١) أنظر الجبرتى ج ٤ ص ١٩٣ - ١٩٤ ، شجرة النسب المخطوطة .

(٢) توفى عام ١٧٧٤ أنظر الجبرتى ج ٣ ص ١١١ .

(٣) قتل عام ١٧٢٥ - ترجمته بالتفصيل أنظر الجبرتى ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ ، ١٦٣ .

(٤) الالتزام هو تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها ويشاركون فيما يفلونه من الأعالى لمدة معينة أو مدى الحياة .

(٥) مقدمة « مرآتى الشعراء » ، مقدمة الديوان شرح الامام ، المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الشجرة جعلت مرآدا البارودى يتصل بتسلسل النسب الى الأمير « برسبای قرا المحمدى » نفسه عن طريق يوسف جاويش الى أصيل خاتون التى ينتهى نسبها الى السلطان نور الدولة شاهنشاه أخى السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي ، ومن ناحية أخرى جعلت شجرة النسب شاعرنا البارودى يتصل نسبه بالأمير نوروز الاتابكى أخى برسبای وذلك عن طريق جدة الشاعر خديجة خاتون زوجة الأمير ايواظ الى الأميرة سعد الملوك خاتون بنت الأمير نوروز الاتابكى ، ولكن هذا الاتجاه فى النسب لا يمر بالأمير « مراد جلبى البارودى » أصل أسرة البارودى وحامل لقبها الأول .

أما نسب الشاعر لأبيه فالمصادر التاريخية وشجرة النسب وصحيفته ، ومذكرات الأسرة ومعلوماتها تقف بنا عند جده الأول « عبد الله الجركسى » . فقد استقدمه - وهو شاب حدث من بلاد الجركس - الى مصر الأمير الكبير محمد الألفى ، وكانا من بلد واحد ، وضمه الألفى الى أتباعه وجعله كاشفا من كشافه (١) فانتسب اليه ، وصار يدعى عبد الله الجركسى الألفى (٢) . وفى عام ١٨١٠ ولد لعبد الله الجركسى ولد سماه « حسن حسنى الألفى » هو والد الشاعر محمود سامى البارودى . ولم ينعم الطفل حسن حسنى برعاية والده غير عام واحد فقد قتل مع كبار المماليك فى المذبحة التى دبرها محمد على للقضاء عليهم عام ١١٨١ (٣) . وتكبة البارودى الشاعر فى مذبحة القلعة نكبة مضاعفة فقد قتل فيها جده لأمه على أغا البارودى وجده لأبيه عبد الله الجركسى الألفى ، ولكن نكبة

(١) الكاشف يماثل فى هذا العصر مأمور المركز أو محافظ المحافظة . وكان مركزه يختلف باختلاف الاقطاعية أو البلاد التى يكون كاشفا عليها يحصل منها الاموال لسيد الصنjq المقيم فى القاهرة .

(٢) معلومات أسرة البارودى .

(٣) مذكرات الأسرة .

الوطن من آثارها النفسية كانت أثقل وطأً وأشد خطراً ، فقد فوجيء الشعب بأسلوب الغدر والخيانة والقهر ممن كان بالأمس القريب مناط الأمل في حكم أكثر عدلاً ، وحياة يسودها الاطمئنان . واسترد محمد على أنفاسه اللاهثة وراء أطماعه عقب مذبحه الممالك ، فقد كانت المنطلق الأخير الذي وثب منه الى تحقيق مآربه في بناء امبراطورية له ولاسرتة من بعده .

وما أن تسنم غارب الحكم ودانت له الأمور ، وأصبح الحاكم الفرد في البلاد ، حتى أخذ يدفع بالمصريين دفعا لا رأى لهم فيه الى مغامرات عقيمة تستهدف مصالح الفرد في تأسيس ملك عريض ، وساقهم الى معسكرات التجنيد ليبنى بهم جيشا قويا ، يكون قاعدة حصينة تحمى حكمه ، وأداة قوية يصل بها الى طموحه في بناء امبراطورية يجلس على عرشها ، واستقدم الخبراء العسكريين من أوروبا ، وأنشأ المدارس الحربية ، وسخر موارد الدولة المادية وامكانياتها البشرية ، وعبأ قواها العقلية لتكون جميعها في خدمة الجيش وسيلته في تحقيق أطماعه . وغلبت المغامر الدكتاتور سجيته التركية فبذرت بذور التمييز العنصرى في الجيش من أول يوم في تكوينه ، فالمدارس الحربية التى أنشئت لتخرج قادة للجيش رغم تعددها كانت محرمة على المواطنين المصريين (١) ، وأمر الحكام المستورد أن يختار لها طلبتها من أبناء الطبقة التى منحها امتيازات السيادة من الأتراك والارنأود والأرمن واليونان وبقايا الجراكسة .

وفي هذه المدارس الحربية تلقى « حسن حسنى الجركسى الألفى » فنون الحرب وخرج ليعمل ضابطا في المدفعية المصرية الحديثة التى حملت العبء الأكبر من معارك الجيش المصرى في منطقة الشرق الأوسط قرابة ثلاثين عاما ، وقفزت به استعداداته الحربية

(١) جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ج ٢ من ١٨٢ .

وشجاعته النادرة درجات الترقى حتى صار من أمراء المدفعية
وتقلد رتبة اللواء (١) .

وحين بلغ من العمر ٢٦ عاما (١٨٣٧) تزوج « بفاطمة هانم
البارودية » وكانت تكبره بثمانية عشر عاما (٢) ، ولم تكن أسرته
تضارع أسرة البارودى العريقة في المجد الموهلة في الجاه والواسعة
الثراء ، ومن ثم انتسب الى أسرته على عادة المماليك وتقاليدهم ،
وأصبح منذ زواجه بها يعرف « بحسن البارودى » بدلا من حسن
حسنى الجركسى الألفى ، فهو « بارودى » ولاء لا نسبيا . وفي
٦ أكتوبر ١٨٣٩ ولد لهما ولد سمي « محمود سامى » ومن بعده
بنت سميت « فاطمة البارودية » . ولو أردنا أن نطبق قاعدة
النسب حسب قانون الحياة لوجدنا أن شاعرنا محمود سامى
قد اكتسب لقب البارودى من أمه وليس من أبيه .

اشترك الضابط حسن حسنى مع جيش مصر الفاتح في المعارك
التي دارت على أرض سوريا ضد الجيش العثمانى وقاد فرقته
ضمن المدفعية المصرية التى ساعدت في تحرير سوريا من الاستعمار
التركى ، واشتركت في رفع البنود والأعلام المصرية خفاقة على
رؤس الأناضول ، واحتلت قونية وكوتاهية على مسافة خمسين
فرسخا من أسوار القسطنطينية وأفرغت طلقات مدافعها سلطان
تركيا في قصر يلدز فاستنجد بالدول الأوربية الكبرى لتوقف
الزحف المصرى قبل أن يدك العاصمة التركية .

(١) مقدمة الديوان شرح الامام ومذكرات الاسرة .

(٢) توفيت عام ١٨٨٢ وقال البارودى في قصيدة رثائها ان سنها بلغ ٩٠
عاما انظر من ١٣١ - ١٣٢ من الكتاب فيكون مولدها عام ١٧٩٢ ومولد حسن
حسنى عام ١٨١٠ .

اليتيم الصغير :

وأجبرت الدول الكبرى محمد على أن يخضع لشروط التسوية التي أملاها مؤتمرهم في لندن عام ١٨٤٠ (١) وصدر بذلك فرمان الباب العالي في ١٣ فبراير ١٨٤١ واشترط البند التاسع من فرمان أن يخفض الجيش المصرى الى ١٨ ألف جندي بعد أن وصل تعدادة عام ١٨٣٩ الى ٢٧٦١٦ (٢) جنديا ، وكانت قوة الجيش المصرى الضاربة ، والروح الحربية الكامنة في جنوده ، ومهارتهم العسكرية التي أثبتوها في مجال الحركة وميدان القتال ، تمثل اكبر الخطر على سلطان تركيا وعلى مصالح الدول الكبرى في الشرق كله ، ومن ثم كان اضعاف هذا الجيش هدفا من أهداف التسوية الدولية التي فرضت على محمد على . . فسرح الجنود والضباط ووزع فريقا منهم على المناصب الادارية والمدنية في البلاد . وعين اللواء «حسن حسنى البارودى» مديرا لبربر ودنقلة بالسودان (٣) ، ولم يرتح المدير الجديد لهذا المنصب فقد أحس فيه عدم الرضى من « ولى النعم » والرغبة في التخلص منه (٤) ولكنه لم يكن يملك الا الطاعة وشكر الوالى على منته وفضله !!

وسافر حسن حسنى وحده على كره منه ، وترك ولده « محمود سامى » ولما يبلغ السابعة من عمره ، وودع أهله ونفسه تحدثه بأنه الوداع الاخير ، وما ان وصل الى السودان حتى صدق احساسه ، وتحقق ما كان يخشاه فقد أصيب بالحمى بعد اربعين يوما من تسلمه عمله الجديد (٥) ، ولم تجد قوته ولا شبابه

-
- (١) اشترك في المؤتمر انجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا .
 - (٢) تفصيلات احصاء الجيش المصرى في عهد محمد على انظر الرافعى .
 - (٣) مقدمة الديوان شرح الامام .
 - (٤) معلومات الاسرة .
 - (٥) مذكرات الاسرة .

في مقاومة المرض القاتل فقضى نحبه ودفن في دنقلة (١) غريب الأهل والدار !!

قضى حسن حسنى البارودى وخلف طفله « محمود سامى »
في السابعة من عمره تتفتح مداركه على حسرة اليتيم وألم الحرمان
من عطف الأبوة ، ويحفر الحادث في قلب الصبى الصغير ذكراه
بحروف من الأسى والحزن ، فقد مضى أبوه عنه وتركه أعزل
دون حماية من طمع البشرية ونوب الأيام وعرضه موت أبيه لتجربة
مبكرة بالحياة والناس وما فيهما من شرور ، وهى تجربة ظلت
آثارها السيئة تعيش في نفس الصبى حتى كبر ، وينفعل بها
فيردها في شعره ، ولم تزدها الأيام وأحداثها إلا تأكيداً ، ففقد الثقة
في الأصدقاء وظل يبحث عن الخل الوفى مع العنقاء . ويذكر
البارودى موت أبيه ويستعيد الصورة الحزينة التى طبعها الحادث
في قلبه بعد ثلاث عشرة سنة فيجدها حية مكلفة بالأسى في ذكراه
فيقول :

مات الذى ترهب الأقران صولته
ويتقى بأسه الضرغامة العسـادى
مضى وخلفنى فى سنن سـابعة
لا يرهب الخصم ابراقى وارعدادى
إذا تلفت لم المح أخا ثقة
ياوى الى ولا يسمى لانجسادى

التربة والنشأة :

قدّرت الأم بعد وفاة زوجها بالسودان المسئولية التى ألقاها
القدر على عاتقها ، فحملت الأمانة بشجاعة دون اشفاق أو تردد ،
وكانها ألهمت باحساس الألم المشفوع بروح التعقل وتقدم السن ،

(١) توفى وسنه ٣٦ عاما وكان قويا ضخما الجسم متمكنا ، أنظر مقدمة مرأى
الشعراء جمع خليل مطران .

أن الصبي الذي في كفالتها تنتظره الأيام لتصنع منه زعيما يقوم بدور وطنى كبير على مسرح أمتة السياسى ، وأديبا يقود نهضة في شعرها الحديث ، فنذرت نفسها لرعايته ، ولم تشغل شأن النساء بضمة الترميل . بل عكفت على أعداد ولدها لمستقبل ينتظره ، فخططت لتربيته وتعليمه وتنشئته فما ان بلغ الثامنة من عمره حتى استقدمت الى دارها معلمين خصوصيين يقومون على تأديبه في سنواته الأولى وتعليمه دروس المرحلة الابتدائية (١) .

والتعليم الخاص على أيدي معلمين في المنازل كان سبيل الأسر الكبيرة من ذوى اليسار والنعمة لتعليم أبنائهم في المرحلة الأولى . ذلك انه لم يكن بالقاهرة وقتذاك (١٨٤٧) من مدارس هذه المرحلة غير مدرسة واحدة هي مدرسة المبتديان (٢) وكان القبول فيها شبه مقصور على ممالك الوالى ومن يختارون من أبناء الفقراء الذين يعتبرهم ديوان المدارس من يوم دخولهم المدرسة غلمانا لولى النعم (٣) . وكان قد أصاب التعليم ما أصاب مرافق الدولة ومشروعاتها الحيوية من جمود وانتكاس ، وزحف عليه المد الرجعى أثر فرمان ١٨٤١ فقوض أركانه وأغلق معاهده حتى وصل به الى حد التخلف ، ولم يدع من مظاهر النشاط التعليمى السابق غير معاهد قليلة تعد من يحتاجهم الوالى فى إدارة شئون الولاية .

أما التعليم فى المدارس الحربية فقد كان لأولاد الجراكسة والأتراك وممالك الوالى وحدهم ، وهو التعليم الذى لا يحترمون سواه ويرونه طريقهم الطبيعى الى المناصب الكبرى فى الدولة ،

(١) مقدمة مرائى الشعراء جمع خليل مطران ص ٧ ، مقدمة ديوان البارودى شرح الامام .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على (١٩٣٨) ص ١٣٢ ، ٢١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٦ .

يهبهم مظاهر السيادة ، ويتحكمون به في مراكز القوة للبلاد ولذلك لم يصبه ما أصاب التعليم المدني من جمود واضمحلال وبقيت المدارس الحربية في عهد محمد علي تستقبل أولاد الطبقة الحاكمة من الترك والجركس . . . وكان التعليم الحربي مرحلتين : التجهيزية الحربية والخصوصية الحربية (العالية) أما المرحلة التجهيزية - وهي في مستوى المرحلة الثانوية - فقد كانت تعد الطلاب للمدارس العليا (الخصوصية) وكانت تستمد تلاميذها من خريجي مدرسة المبتديان بالقاهرة ومكاتب المبتديان بالأقاليم أو ممن أتموا الدراسة الابتدائية ، ويختار العدد المطلوب ممن يجتازون امتحان القبول الذي يعقد للمتقدمين إليها .

ومن الطبيعي أن يعد التلميذ محمود سامي البارودي لهذا اللون من التعليم شأن أقرانه من أبناء الجراكسة ، وكان لزاما عليه أن يدرس على يد مدرسيه الخصوصيين مواد الدراسة الابتدائية حتى يجتاز امتحان القبول للمدرسة التجهيزية الحربية ومنهج الدراسة في « مدارس المبتديان » وقتذاك موزع « بقانون نامه » المرتب من طرف شورى المدارس على فرقها الثلاث كما يلي :

الفرقة الثالثة (فرقة المبتدئين) الهجاء - حفظ ربع القرآن الكريم - قصص الأطفال .

الفرقة الثانية (الفرقة المتوسطة) القرآن الكريم ختم واعادة ، والأجرومية (النحو والصرف) وشرحها ، والسنوسية (في التوحيد) وشرحها ، والجغرافيا (قراءة) والأطالس وكتاب الأخلاق ، وكتاب التوحيد (علم الحال) ، والحساب والهندسة ، والتمرين على خط الرقعة .

الفرقة الأولى (النهائية) - الكفراوى وشرحه والترجمة للوطنيين (كذا) ، والصرف والنحو للأتراك والغلمان الترك ، والخط الثلث والرقعة ، وكتاب علم الحساب (المطبوع حديثا)

قراءة كتاب علم الأخلاق وتضاف اللغة التركية في جميع السنوات
للأتراك والجركس (١) .

درس البارودي هذا المنهج في سنوات أربعة ١٢٦٣-١٢٦٧ (٢) هـ
(١٨٤٧ - ١٨٥١) عالج فيها كتب النحو والصرف والتوحيد
والأخلاق وحفظ القرآن الكريم وكانت دراسته على نمط الدراسة
في مكاتب المبتديان « وهى دراسة مستمدة من الأزهر ومقلدة له »
مادة وطريقة ومعلمين . ولقد تأثر البارودي كما تأثر تلاميذ
المدارس الحديثة في عصر محمد على بهذه المحاكاة . ولذلك فقد كان
تأثير الأزهر في رواد النهضة قويا واضحا . لأن الحكومة حين
أنشأت مكاتبها لم تجد أمامها من كتب غير الكتب الأزهرية ولم تجد
معلمين غير المعلمين في الأزهر فكان طبيعيا أن تعتمد عليهم
في مدارسها (٣) .

كان محمود سامى يتلقى دروسه على يد مدرسيه الخصوصيين
بينما يتلقى في نفس الوقت اعدادا من نوع آخر على يد مدرسته
الأولى التى وهبت حياتها من أجله . أمه ، فمنذ بدأت آفاق
التفكير تتفتح عنده ، وتتسع مداركه وتسفر عن تقبله للمعرفة
شرعت تعدده اعدادا نفسيا وروحيا ليحتل المكانة التى تؤهله لميراثه
من السيادة والعزة والمجد التليد ، فأخذت تشحن عواطفه ،
وتعبيء روحه بالقيم والمعايير التى تؤهله في نظرها لمستقبل يصل
به الى طريق المجد (٢) . . طريق آبائه من قبله . فتحت له صفحات
من تاريخ قومه الذين تسنوا ذروة الفخار ، وحدثته عن أجداده
الذين بلغوا الغاية من العلا والسيادة ، وما يكاد يفرغ التلميذ
الصغير محمود سامى كل يوم من دروسه حتى يهرع الى أمه
يطلب اليها المزيد من قصص الذين ساروا على دروب المجد من

(١) انظر أحمد عزت عبد الكريم تاريخ التعليم في عصر محمد على ص ١٧٤ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص ١٨٢ .

(٣) مقدمة مراى الشعراء ، مقدمة الديوان شرح الامام .

أهله فتضرب له على أوتار عواطفه أنغاما من عزة آبائه ، وتقص عليه طرفا من بطولاتهم فتتملأ عطفه طموحا وتهز قلبه اعجابا ، وتذكى في نفسه التطلع الى السؤدد ، وتربط مجده بمجدهم ، وتسجل مصورة ذاكرته اللاقطة أحاديث الأم ، وتخزن نفسه انفعالاتها لتكون رصيда ضخما له في مستقبل حياته حين تخرج على أسلة لسانه شعرا يضعه في فم الدنيا يتيه على الناس فخارا بآبائه .

من النفر الفـر الذين سـيـوفهم
لها في حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه
تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

حدثته عن اشتراك جده على أغا البارودى في حرب جيش الاحتلال الفرنسى مع المماليك فى الصعيد ، وكان خيرا بصناعة البارود (١) ، وقد اهدت استخبارات الجيش الفرنسى الى معرفته فصادرت داره واستولى الفرنسيون عليها ليتخذوها مقرا لديوان « الفردة » (٢) - الضرائب - واضطرت الاسرة الى الانتقال الى دار أخرى لها بجزيرة الروضة (٣) .

وقصت أم البارودى عليه قصة مقتل جده على أغا البارودى وقد غدر به محمد على مع من غدر بهم من أمراء المماليك فى مذبة القلعة المشهورة بعد أن تعهد لهم بالسلام والأمان ، وتنفلت نفس الصبى بما حدثته أمه عن جده على ، فى حربه الفرنسيين ويوم مقتله ، وتظل عواطفه تموج بهذه القوة الوجدانية نحوه حتى يرتفع

(١) مذكرات الاسرة .

(٢) أنظر على مبارك : الخطط التوفيقية لمصر القاهرة (١٣٠٦ هـ) ج ٣ ص ٥١ .

(٣) مذكرات الاسرة .

به خياله فيصله بالثرى ، وحين استطاع التعبير فيما بعد قال فيه
من قصيدة يفخر فيها بأهله :

وسما جـدى على

يطلب النجم فـاله

فهو لى ارث كـريم

سوف يبقى فى السـلالة

ويقف محمود سامى طويلا أمام اللوحات الرخامية التى زينت
بها حجرات الطابق العلوى من الدار وقد نقشت عليها بالحفر
المطلى بالذهب قصائد نظمها خاله ابراهيم (١) فيقرأها ولا يمل
قراءتها ، ويطلب من أمه المزيد من أخبار خاله الشاعر ، فتحدثه
عن الموهوب الذى ذهب فى ريعان الشباب ، وعن حياته القصيرة
التي قضى أكثرها وهو عاكف يقرأ دواوين الشعراء من العرب
والأتراك ، وعن القصيد الذى كان ينساب على لسانه ، والندوات
الأدبية التى كان يعقدها فى الدار مع الشعراء والأدباء ، ولكن القدر
لم يمهلها حتى يشتد عوده وتثبت قدمه فى دولة الشعر فيخلد
مع الشعراء ، بل تخطفه الموت فجأة (٢) ، ولم يترك من ذكره
إلا دواوين الشعراء التى كان يعيش معها وفى صحبتها ، وقصائد
من نظمها قامت أمه الثكلى بنقشها على اللوحات الرخامية المذهبة ،
وزينت بها حجرات طابقه العلوى من الدار أثرا له وذكرى (٣) .

ويشعر محمود سامى بقوة خفية تشده الى خاله ابراهيم
البارودى وتربطه به ، ويحس بأن بينهما شيئا كبيرا ، فهو نفسه
يحب قراءة الشعر ولا يمل إقراءته ، ويحفظ ولا يرهقه حفظه ،

(١) كانت اثنتى وثلاثين لوحة ضاممت كلها عقب محاولة الاستيلاء على
الدار بعد نفي البارودى ولم يبق منها غير لوحتين أهدتهما الأسرة الى متحف
الأثار العربية ثم اكتشف ضياعهما بعد مدة (مذكرات الأسرة الخاصة) .

(٢) مات سنة ٢٥ عاما .

(٣) مذكرات الأسرة ومعلوماتها .

بل يجد لذلك في نفسه طلاوة ، ويحس للشعر في فمه حلاوة ، وهو يحاول أن يقلد قصائد خاله ابراهيم فيفلح مرة ويخفق مرات . ويعرف البارودي فيما بعد سر القوة الخفية والرباط المتين الذي شده الى خاله بعد أن اكتشف نفسه وشاعريته ، فاعترف له بفضل السبق وبالأصالة في الشعر والشهرة في القصيد ، وجعل الشعر نسبا متصلا بينهما ، وميراثا امتد اليه منه فقال في القصيدة التي يفخر فيها بنفسه وبأهله :

أنا في الشعر عريق

لم أرثه عن كلاله (١)

كان ابراهيم خـالى

فيه مشهور المقالـه

ومن الطبيعى أن يسأل الفتى عن مكان أبيه بين هؤلاء وقد كان له خير الآباء وأعظمهم ، يملأ عليه دنياه ، ويشغل حياته ووجدانه ، وينشر عليه الحماية والرعاية ويحس وهو الى جواره بالاطمئنان ، فإذا به يذهب ولا يعود ، ويتركه وحيدا لأحداث الزمن ونوب الأيام ، وتقص عليه أمه قصة أبيه حسن حسنى وقد نشأ يتيما بعد أن قتل أبوه عبد الله الجركسى الألفى في مذبحة القلعة ، ثم اختير مع خمسمائة من أترابه ليدخلوا المدرسة الحربية التجهيزية بقصر العينى أول انشائها (١٨٢٥) . وأخبرته عن أبيه القائد وشجاعته لتي كانت ترهبها الأقران ، وعن المعارك التى خاضها في سوريا الأناضول ، وينفذ الحديث الى شفاف القلب من الفتى الجركسى لناشئ ، ويختزن في نفسه الميراث المتصل اليه من الفروسية حب الحروب حتى يجد فيما بعد متنفسا له في شعره فيغنى لى قيثاره الفخر بأبيه وأجداده .

وترقب الأم بعين يقظة ساهرة اثر تعبثها النفسية في فتاها محور حياتها ، وقد خشيت أن يسلك طريق خاله ابراهيم

(١) الكلالة : النسب البعيد .

فيشغله حبه لدواوين الشعر عن المستقبل الذي ينتظره ، أو تلهبه القصائد المنظومة عن الجندية سبيله وأقرانه من أبناء الجسراكسة « لينهضوا بالمناصب الرئيسية في الدولة » ، غير أنها تجسد في وحيدها حين تحدثه عن أبيه ، الفارس الصغير الذي يتعجل الزمن ، ويتلهف على اليوم الذي يبلغ فيه السن ليلحق بشأو البطل الذي ذهب فيصبح امتدادا لبطولته ويسير على نفس طريقه فينتظم في الجيش ضابطا وقائدا مثله ، يخوض المعارك ويحرز الانتصارات ويحق له أن يقول :

تبعث نهج أبي فضلا ومحمية

حتى برعت وكان الفضل للبادي

وحين تحدثه عن خاله تجد فيه القارئ النهم الذي يود لو استظهر شعر العرب والترك جميعا ، ويتمنى لو أنه شادا كخاله فعلم الحمام الأغانيا ، وهدأت الأم نفسا ، واطمأنت بالآ ، وعرفت أنها أدت الرسالة كاملة ، وخامرها احساس غريب حبيب كان لها فيه بعض العوض ، والعزاء ، وانتابها شعور غامر بالرضى والسعادة أزاح عن قلبها أكثر الحزن الذي يعتصرها والألم الذي تعانيه منذ فقدت أخاها الوحيد ومن بعده زوجها الحبيب . وكان الفائبين عادا اليها وبعثا من جديد ، فقد وجدتهما معا في ولدها محمود . ففي جانب منه ترى صورة أبيه الفارس وفي الجانب الآخر ترى صورة خاله الفنان الشاعر .

في المدرسة الحربية (١٨٥١ - ١٨٥٥) :

بعد أن أتم محمود سامي دراسته الابتدائية عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥١) وقد بلغ الثانية عشرة من عمره وأصبح مؤهلا لدخول المدارس الحربية ، كان « عباس الأول » (١) قد أمضى في حكم

(١) ابن طوسون بن محمد على حكم من ١٨٤٨ الى ١٨٥٤ .

مصر قرابة عامين قضى فيهما بحمقه وضيق أفقه وتعصبه الأعمى لتركيبته على الذبالة المضيئة الباقية من معاهد التعليم ، وهدم المقومات الاقتصادية للبلاد ، وبلغ المد الرجعى فى هذه غايته ومنتهاه . وأراد أن يقضى على الروح القومية والمصرية التى أخذ يسرى شعاع منها فى قلوب متعلمى الرعيل الأول من أبناء البلاد ، فقصر الوظائف على الأتراك والأرناؤود ومن يعرف التركية ويشبه الأتراك من المصريين ، وجعل التركية لغة التدريس والحديث بين تلاميذ المدارس .

وكان عصره امتدادا « للنكسة » الفكرية والثقافية وسار بها الى آخر طريق الظلام ، فأعلن الحرب على معاهد التعليم وألغى ما لم يتعطل منها فى عهد جده ليحرم الشعب من نور المعرفة ، ولم يبق منها الا ما يكفى لتخريج العدد الكافى من المهندسين لبناء قصوره ، ومن الأطباء لرعايته وكلابه وجياده وفرقة حرسه من الأرناؤود ، ولم يكن ذلك غريبا من عباس « فقد كان يكره العلم والمتعلمين ، ولم يكتف بغلق المدارس بل أنفذ الى السودان طائفة من كبار علماء مصر فى عهده (١) .

بعد أن أغلق عباس المدارس الحربية من تجهيزية وخصوصية (عالية) أقام على أنقاضها مدرسة جديدة سماها « المدرسة الحربية المفروزة (٢) » ، وعهد عباس أول انشاء المدرسة الى على مبارك بتعيين معلمى المفروزة ، وترتيب دروسها ، واختيار ما يلزم لها من الكتب ، لأجل الحصول على المقصود واكتساب رضا ولى النعم الأصفى (٣) . ونجد اثر على مبارك واضحا قويا فى

(١) من بينهم رفاعة الطهطاوى ومحمد بيومى ودقله أفندى انظر عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ١٦ .

(٢) أنشئت عام ١٨٤٩ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم فى تاريخ التعليم فى مصر : عهد عباس سعيد ص ٧١ .

منهج الدراسة الذى تقرر على طلاب المدرسة رغم الصسبغة العسكرية التى تميزت «بها المفروزة» والنظام الحربى الذى خضعت له فى حياتها الدراسية والمعيشية « فقد كان طلبتها الى جانب الفنون الحربية - يقرأون الكتب التى يقرؤها طلبة المدارس المدنية كجملة الصرف والكفراوى وانشاء العطار وكتب الهندسة والحساب والرسم واللفتين التركية والفارسية (١) .

التحق البارودى بالمرحلة التجهيزية من « المدرسة الحربية المفروزة » عام ١٢٦٧ (٢) (١٨٥١) ، وانتظم فى سلك طلابها يتعلم فنون الحرب ويقرأ معهم القرآن الكريم وكتاب جملة الصرف وشرح الكفراوى ، وانشاء العطار ، وكتب الهندسة والحساب والجبر ، ويتعلم الرسم واللغة التركية والفارسية . ولم يجد البارودى صعوبة فى قراءة الكتب المقررة ، ولم تمثل مناهج الدراسة العربية أو التركية مشكلة لديه ، فقد قرأ أكثرها من قبل فى دراسته الخاصة لمنهج المرحلة الابتدائية على عهد محمد على استعدادا لامتحان القبول بالمدارس الحربية (٣) ، ونعم البارودى بالدراسة فى « المدرسة المفروزة » وسعد بالالتحاق بها وقد حققت له آماله فى أن يسير على نهج أبيه ليخرج منها ضابطا فارسا مثله ، وأرضيت « المفروزة » رغبة ملحة فى نفس الفارس الصغير ، ذلك أن سهولة

(١) تاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ٧٥ ، انظر الجدول الدراسى كاملا كما هو منقول من جداول الامتحانات بدفاتر ديوان الجهادية فى تاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ٢٠٢ ، ٢١٨ .

(٢) مرائى الشعراء ص ٧ ، مقدمة الديوان شرح الامام .

(٣) كان الامتحان فى القرآن الكريم وفى قراءة كتب شرح الكفراوى و متن الأجرومية (نحو) و متن البناء والمقصود (صرف) ، وعلم الاخلاق ، والسنوسية وعلم الحال (توحيد) ، علم الحساب والخط الثلث واللغة التركية للأتراك وغلمان الأتراك .

أكثر المواد الدراسية بالنسبة له زودته بفراغ من الوقت يستجيب فيه لربة الشعر التي يضبط الهامها على عواطفه ووجدانه ، ويسمع لقيثارتها نغما دائما في آذانه فينطلق لسانه ، ويجرب موهبته ، ويحاول الانشاد لنفسه ولا يجد من يسمع له ، فلذاته وأقرانه من حوله في المدرسة عجم أو أشبه بالأعاجم ، لا يفهمون ما يلهج به لسانه ، يتعالون بتركيتهم أو أرسقراطيتهم الجركسية وينظرون الى من يتكلم العربية من الأتراك والجركس نظرة استنكار وسخرية « لأنه يتعاطى لغة الفلاحين العرب (١) » .

وتدفع سنوات الدراسة الأربعة بالتلميد « محمود سامي » الى السنة النهائية من المرحلة التجهيزية الحربية ، وقد وصل فيها الى رتبة « باشجاويش » (٢) وتسلمه الأيام الى أحضان الشباب وقد بلغ ستة عشر ربيعا ونفسه مفعمة بالطموح والأمل وهو على الطريق الى القسم العالي من المدرسة الحربية ليخرج ضابطا وقائدا ، ولكن رياحا تهب فتغير من اتجاه الطريق الذي رسمته الآمال ، فما أن يتخرج محمود سامي أواخر عام ١٢٧١ (٣) (يوليو ١٨٥٥) من المدرسة حتى يصدر سعيد والى مصر - وكان قد بدأ عهده - أمرا بالفائها (٤) وأطفأ برجميته كل ضوء ينبعث منه شعاع من علم ، فقد كان يعتقد أن تعلم الناس يجعل حكمهم عسيرا ويمكنهم من نقد تصرفاته ، ويطالبونه بحقوقهم ، ولذلك فقد حل « ديوان المدارس » وألغى ما بقى من معاهد التعليم « وباع أثاثها وأبنيتها وأدواتها ومعاملها ومكاتبها

(١) البارودى رائد الشعر الحديث : شوقى ضيف (القاهرة ١٩٦٤)

ص ٤٨ .

(٢) مرائى الشعراء ص ٧ ، مقدمة الديوان شرح الامام .

(٣) المصدر السابق .

(٤) كتاب تاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ١٨٦ .

ومطابعتها بأبخس الأثمان حتى يقضى على كل أمل في عودتها (١) .
وخرج محمود سامي من « المدرسة المفروزة » ليجد سبيل اتمام
الدراسة الحربية أو الالتحاق بخدمة الجيش قد سدت منافذها
دونه ، بعد أن أصبح التعليم والجيش والدولة ملهاة يتسلى بها
سعيد ، « فما كان على رأى ثابت في بقاء الجيش ولا في المدارس
العسكرية ومحلات التعليم ، بل كان كل يوم في تغير وتبدل
وانشاء ، ونقض وابرام والغاء ، وكان على الدوام مشتغلا بلغو
الجيش وانشائه (٢) » ، وتقف دراسة البارودي المعهدية بعد
« مدرسة المفروزة » ، ويختم حياته المدرسية بشهادة التجهيزية
الحربية ويلقب « باشجاويش » في الجيش السلطاني . أما رصيده
من الثقافة المدرسية فهو حفظ القرآن الكريم (ختم واعادة)
وقراءة متن الأجرومية وشرحها ، وشرح الكفراوى ، وجملته الصرف ،
وانشاء العطار ، وكتاب علم الأخلاق ، وكتاب السنوسية وعلم
الحال في التوحيد الى جانب الجغرافيا والأطالس والحساب
والجبر والهندسة واللغتين التركية والفارسية (٣) .

ومن هنا نتبين أن ما ذهب اليه حسين المرصفي في كتابه
« الوسيلة الأدبية » لا يمثل الواقع حين يقول : « هذا الأمير الجليل
ذو الشرف الأصيل والطبع البالغ نقاؤه ، والدهن المتناهى ذكاؤه
محمود سامي باشا البارودي لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية
غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر
وعمله ، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ،
أو يقرأ بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية
ومواقع المرفعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه

(١) محمود فهمي : البحر الزاخر في تاريخ الاوائل والاواخر (١٣١٢ هـ)
ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) أنظر مناهج الدراسة في المرحلة الابتدائية في عهد محمد علي والمرحلة
التجهيزية الحربية في المدرسة المفروزة ص ١٥ ، ٢٢ من الكتاب .

المعانى والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن «(١) ، وقد تبع
المرصفي في هذه الدعوى جميع الذين كتبوا من بعده عن البارودى .

مرحلة الاعداد والتكوين :

يستقبل البارودى الحياة الجديدة فيجد الآمال العريضة قد
أصبحت فراغا ، وميادين القتال قد أقفرت من الأبطال ، والوية
النصر وبنوده قد طويت ، ويجد البارودى نفسه - وفيها أعراق
الامارة والمجد - تمور بما فيها من آلام الأمل المحطم ، وتثور لما
أصابها في عزتها الجريحة وقد أرغمت على حياة التعطل والفراغ ،
وهى ترى طريقها غير هذا الطريق ، ولكن الأسباب وان قصرت عن
تحقيق أماني البارودى العراض فانها قد مدت له في شئ آخر
تستمتع به روحه وترضى به نفسه ، وجده في مكتبة خاله ابراهيم
وهو يقرأ كتب التاريخ ودواوين الشعراء . وكانت المطابع قد أخذت
تعنى بنشر التراث العربى من موسوعات الأدب ودواوين الفحول
من الشعراء وكتب التاريخ والأدب ، واقتنى البارودى نفائس الثقافة
العربية التى ما تزال مخطوطة ، فكانت الفرصة للثقافة الذاتية
والاطلاع الخاص .

شغف البارودى بقراءة التاريخ والشعر ، فقد وجد فى كتب
سيرة آبائه وأجداده ، وقرأ بقية القصة التى لم تتمها له أمه وتركها
ليستكملها بنفسه . وتظهر له فى الأفق القريب صور آبائه الأقربين
وقد انتهت اليهم رئاسة مصر ومشيختها ثم تتراءى له فى الأفق
البعيد صور السابقين من أجداده وقد حازوا المجد فرسانا تحت
ألوية النصر الحمراء ، يرمون بالصليبيين الى البحر ، ويحمون
بشجاعتهم الشرق العربى من زحف التتار والمغول المدمر ، ويهزمونهم

(١) حسين المرصفي : الوسيلة الادبية للعلوم العربية (القاهرة ١٢٩٢ -
١٢٩٦ هـ) ج ٢ ص ٤٧٤ .

فى « عين جالوت » ، ويركزون أعلام مصر على ربوع الشام وجزر
البحر المتوسط :

من كل أزهـر كالدينـار غـرته

يجلو الكريهة منه كوكب ضرم (١)

ماتوا كراما وأبقوا للعلا أثرا

نالت به شرف الخيرية الأمم (٢)

وبيته الشاب فخرا وتتشنى أعطافه زهوا بأجداده ، ويحن اليهم
ويود لو أنه نعم بمشاركتهم حياتهم تلك التى لا يرى غيرها حياة ،
ويطير اليهم على جناح التمنى ، والمنى غصة وألم حين تقصر عنه
السبل ، ويكون الطريق اليه مظلما عبوسا . ويجد الفارس المعطل
العوض والعزاء حين يهتدى بفطرة الشاعر الفارس الى شـعر
الفرسان يقرؤه ويعيش معهم فيما يقرأ ، فيطوون الزمن ويحملونه
بخيالاتهم وتصويرهم — على بعد ما بينه وبينهم — الى معاركهم
فيسمع قعقة السلاح ووقع الأسل ، ويشترك بوجدانه فى مواقعهم ،
ويحتفل معهم بالنصر ويدوق ألم الهزيمة ، وتهز حماسياتهم روحه ،
وتلهب عواطفه وتتملك عليه قلبه ، وتسير بخياله على دروب المجد
والبطولة التى سار عليها آباؤه بما صورت من معارك وبما حققت
من بطولات .

استهوى البارودى هذا اللون من الشعر ، ووجد فيه نفسه
الحائرة ، وألفى معانيه تفصل من ذاته ، وتصدر من بين جنباته ،
وتعبر عن الحياة التى يهواها ويريد أن يحيها ، فتوة تعيش مع
الحب والجمال والطرد والشراب ، وحكمة تتسرب الى حنايا قلبه
وعقله . واندفع الشاب ينهل من هذا المعين محولا الى قلبه وروحه
هذا السيل الغزير من العواطف والصور ، فتختزن مخيلته المصورة

(١) كوكب ضرم : مشتعل متوهج .

(٢) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

وذاكرته اللاقطة كل ما استهواه من أشعار البطولة والحماسة ،
ويتأثر مزاجه وقلبه وخياله بذلك كله وينفعل له ، ويحفظ من
شعرهم ما يوافق ذوقه وميوله فيلهج لسانه بما يقرأ وبما يحفظ ،
ويحاكي بعد ما يختزن ، ويفنى بعد ما يتأثر ، ويفيق تارة فيزهو
بنفسه اعجاباً ، وتهجره ربة الشعر أخرى فيتعثر لسانه ومن كل
ذلك يتعلم ، ولكن زهوه بنفسه وكبريائه يمنعانه من أن يتحدث عن
الفشل أو عن التجربة في أول مراحلها ، فيستبقيها لنفسه حتى
تنضج القريحة وترشد ، ويسلس له قياد الشعر وتنقاد له القوافي ،
وحتى يجد نفسه في مستوى هؤلاء الذين يقرأ لهم . ويقبل على
القراءة والحفظ فتزداد ملكة الشعر منه قرباً ، وتظل به حتى تملك
عليه نفسه ، وتملاً عليه وجدانه ، وتأخذ عليه كل طريق فيستجيب
لها وينشد ما توحى به إليه ، ويتغنى بما تلهمه ، ويفيض النبع
ويسيل النور ، ويتجاوب الشاعر الناشئ ويدرك من غير وعى أن
هذا باب وفنه ، وفي طبعه رصيد ضخم من هذا الفن وموهبة
شعرية أصيلة وملكة شاعرة نابغة .

ومن حسن حظ الأدب والشعر أن البارودي قد استهواه شعر
الأقدمين ، واتخذ منه المثل الذي يسير على نهجه ، ولم يلتفت - في
فترة تكوينه - إلى شعر المحدثين من الشعراء ذلك الذي يمثل فترة
الركود والتدهور في تاريخ الأدب العربي كله . سواء في الأغراض
أو المعاني والأساليب ، أما الأغراض فقد كانت ضيقة تافهة لا تخرج
في جملتها عن المدح أو القول في المناسبات ، وكانت المعاني معادة
مطروقة أو مبتذلة ساقطة ، وأما الأساليب فكانت ثلاثة الأثافي
متكلفة مثقلة بأغلال من البديع فيها جناس وطباق وازدواج وفيها
إشارات ورمز وتورية ومطابقة وحساب الجمل ، وما إلى ذلك من
محسنات النظم التي كانت أشبه بالزينة الفاضحة والملابس المزركشة
لعروس قل حظها من الجمال . ولم تعد للشعراء في ذلك العصر قدرة
على خلق المعاني وابتكار الصور فجنحوا إلى التقليد واجتروا معاني

السابقين بالتشطير والتخميس والتضمين وهو تقليد يشهد بالعجز والقصور عن استيعاب المحسوسات والمعاني وقدرة التعبير عنها في قالب جميل .

لكن البارودي الناشئ كان من طراز غير هؤلاء جميعا ، كان غيرهم بنظرته الى الشعر نفسه ، فهو يقوله سموا بأغراضه عن أن تصاغ الا في أجمل لفظ وأروع عبارة ، كان غيرهم بتفكيره وبمثله الأعلى في الشعر وفي الحياة . لم يقله التماسا لعطف حاكم أو عطاء أمير ، وإنما تغنى به كما تغنى من سبقه من الأمراء الشعراء الذين خلد الدهر شعرهم وأثبت التاريخ في أمجد صفحاته أسمائهم ، وقد كان ابن المعتز والشريف الرضى وأبو فراس وامرؤ القيس من قبله شعراء . قرأ شعرهم جميعا فطرب واهتز وتمثل ثم احتذى وغنى كما غنوا ، ليخلق من خيال الشعر ميادين لمجد يعوضه ما فات سيفه في ميادين القتال بعد أن ردت الأقدار سيوف مصر الى أغمادها ، كان غيرهم لأنه لم يتعلم العروض والقوافي ليقول الشعر وإنما تغنى لأن موهبته الشعرية فرضت عليه التعبير عن العواطف والأحاسيس التي تموج في نفسه ولأن الشعر في سليقته ، ولا بد لابن الأيك أن يترنم ، فجاء بأنغام في الشعر لم يألها أهل زمانه ، وسما به الى مكان الفحول من الشعراء الأولين في الجاهلية والعصور الأولى من الاسلام . وكان الرسول الذي بعثته العناية الالهية لينفخ في الشعر العربي روحا تنشره من الضعف الذي انطوى عليه القرون الطوال ، وتبعثه من جديد .

وفيض آخر يغمره من إقراءاته فتسرب ينابيع « العروبة » الى خلایا روحه ووجدانه ، وتتعمق « المصرية » في حنايا ضلوعه وجنانه ، ويتأمل فلا يجد له بلدا سواها ، ويفكر فلا يرى موطننا يستأهله غيرها ، استقبلت أجداده حين جاءوها مهاجرين فرفعتهم الى مكان السيادة ، فمنحوها حياتهم وقدموها فداء في الدفاع عنها ، ولف جدثهم ثراها ، ومن بعدهم جاء فرأى نور الحياة بين أهلها ، وعرف

الدنيا في جنباتها ، وهو اليوم يرفل في الشراء والغنى الذى تقدمه
اليه ، ويجد نفسه لصيقا بها يرتبط بأرضها وبأهلها ارتباط مصير
ويختلط حبها بلحمه ودمه ، وعواطفه وشعوره ، ويلهج بهذا الحب
ما عاش في شعره ويهتف به طوال حياته من مثل قوله :
سل مصر عنى ان جهلت مكانتى

تخبرك عن شرف وعز أقدم
بلد نشأت مع النبات بأرضها
ولثمت ثغر غديرها المتبسّم
فنسّيمها روحى ومعدن تربها
جسسى وكوثر نيلها محيا دمي
فاذا نطقت فبالثناء على الذى
أولته من فضل على وأنعم
أهلى بها وأحبتي وكفى بهم
فخرا ملكت به عنان الأنجم
هى جنة الحسن التى زهراتها

حور المها وهزار أيكثها فمى (١)
ويتلفت البارودى الشاب حوله فيجد مصره الحبيبة وهى
راكعة فى حمأة الرجعية ، مرغمة على التخلف بأرادة واليها سعيد ،
واذا كان المد الرجعى قد بلغ غايته فى عهد عباس ، فان التخلف
والظلام قد ضربا بجرانها على الوطن فى عهد سعيد ، ينشئ الدواوين
والمصالح الحكومية ، وقبل أن ينتظم العمل فيها يصدر أوامره
بالفائها ، ويتخذ من الجيش تسليّة لأهوائه المتقلبة وهدفا لظنونه
وأوهامه المضطربة ، وتسيطر عليه بلاهته وضعف رأيه فيصرف
معظمه ويسرح أكثره لكى تجد شركة قناة السويس فى المجندين
المسرحين ما تريده من المسخرين لحفر القناة (٢) .

(١) الهزار : طائر غرد ، هذه الأبيات لم يسبق نشرها أنظر لورد كرومر :

مصر الحديثة ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) ينج : تاريخ مصر ص ١٩٥ .

وسعيد هو أول من فتح أبواب مصر لطلاب الثروة والمرتزقة
المغامرين من الأجانب ، فدخلها « أسوأ عناصر أوروبا والبحر
المتوسط » (١) ، ومن ثم كان عهده يمثل « النكسة التي فتحت الباب
للتدخل الأجنبي على مصراعيه » .

آفاق جديدة في الآستانة (١٨٥٧ - ١٨٦٣) :

رأى البارودى حكم سعيد وقد أسلم الوطن الى نكسة أخرى
هى نكسة التخلف ، ولم يجد فى جوها الآسن المظلم شعاعا من أمل
يصل به الى تحقيق ما تطمح اليه نفسه من خدمة وطنه ، وقد سرح
الجيش ، وتغلغل المرتزقة من الأجانب فى اقتصاديات البلاد ،
وتملكوا الاراضى ، وتحكموا فى مستقبل الفلاح والأمة بأسرها ،
واستولوا على مقاليد الأمور فى البلاد بعد أن كبها الوالى بالديون ،
ولم يعد لابن الوطن منفذ لمستقبل كريم . وضاق البارودى بكل
ذلك وهو صاحب النفس المتأججة الشائرة ، والهمة التى لا تعيش
فى الركود ولا تطيق التخلف ، ومن ثم فكر فى أمر نفسه وهداه تفكيره
الى أن يرحل عن الوطن الى حين حتى تنكشف الغمة التى يعيش
فيها الوطن ، ويزول كابوس التخلف الذى يجثم عليه . وشد الرحال
الى الآستانة عام ١٨٥٧ (٢) ، وأعانتة اجادته للتركية ومعرفته
للفارسية على الالتحاق « بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية
التركية (٣) » .

كان بين عمل البارودى بالخارجية فى الباب العالى وبين اللغات
علاقة وثيقة منحته الفرصة ليدعم صلته باللغة التركية - وهى
يومئذ أبان نهضتها - فتبحر فيها ، وكان من الطبيعى وهو الشاعر

(١) دافيدس لاندز : بنوك وباشوات : ترجمة عبد العظيم انيس (القاهرة
١٩٦٦) ص ٧٧ .

(٢) مذكرات الاسرة الخاصة .

(٣) مرالى الشعراء ص ٨ .

المبتدئ والأديب الناشئ أن تستهويه آدبها وتجذب به أندية أدبائها فتقوم وشائج العلاقات بينه وبينهم ، يسمع منهم ويختزن ثم تغلب عليه طبيعة الشاعر فيحاكى وينطلق لسانه بشعرهم ونثرهم ، ويجد في معرفة اللغات متعة لنفسه ، ودقعة في عمله ، ويرى آفاق ثقافتها ثروة لفكره وغنى لخياله ، ويحس في اجادتها انطلاقا من الاقليمية الى عالم اوسع يزيد من خبراته وثقافته ، فيمد آفاقه الى اللغة الفارسية وكان قد تعلم مبادئها في المدرسة التجهيزية فيأخذ في اتقانها والاطلاع على آدابها وقراءة شعرها ، « وينظم بها من القصائد ما يستدل شعراء الفرس بأمثاله (١) » . وأغلب الظن أن ما صنعه البارودي من شعر ونثر باللغتين التركية والفارسية لم يكن صادرا عن طبيعته الشاعرة ، بل كان محاكاة دعاه اليها التقليد واثبات المقدرة في النظم بين الشعراء ، أو لعله تجارب لم ترق الى المستوى الذى ينشده لنفسه فأغفلها من حسابه مع ما أغفل من تجارب الشعر العربى أول عهد الصبا ولم يسجلها ، ومن ثم سقطت من يد الزمن .

وكانت رغبة البارودي الملحة في القراءة تدفع به دفعا الى مكتبات الأستانة وقد حوت كنوز الثقافة العربية التى اغتصبها الأتراك من مصر والبلاد العربية ابان الفتح العثمانى ، ليجعلوا من عاصمتهم حاضرة الاسلام الثقافية والسياسية معا (٢) . وعاد البارودي الى مصاحبة الفحول من الشعراء العرب يقرأ دواوينهم الجاهلية والأموية والعباسية ، ويستظهر ما يطيب له من روائعها ، ويحاكى ما يوافق ذوقه من قصائدها .

والملاحظة الجديرة بالاهتمام أن البارودي يقيم على ضفاف البسفور نحو سبع سنوات (١٨٥٧ - ١٨٦٣) ولا تترك هذه الإقامة بصماتها على فنه أو تخط في شعره أثرا قويا نلمسه .

(١) المصدر السابق .

(٣) عمر الدسوقي : فى الأدب الحديث (١٩٤٨) ج ١ ص ١١ .

وعلى الطرف الآخر البعيد أمه وأخته وأهله وصحبه ووطنه
لا نجد للحنين اليهم ذكرا بين أشعاره في هذه السفرة ، وكأنه
لم يعاني الاغتراب والنوى عن الأهل والوطن ، وذلك غير مألوف
من طبع البارودي أو شاعريته الحسية المصورة ، فهو لم ينفأ
عن وطنه بعد هذه السفرة الا وشكا وتوجع واستعبر لفراق
الأهل والصحب والوطن ، لم يشغل عنهم بحرب ، ولم يوقف
عبراته وانينه يأس من العودة اليهم . والبارودي « المصور
البارع » الذي رسم لنا بشعره لوحات من كل مكان حل به من
كريد وروسيا وكولومبو وكندى بسرنديب ومواطن الصبا في مصر
لم تسجل عدسة الهامه صورة واحدة من سحر الآستانة أو سحر
الحياة فيها .

والديوان لا يهدينا - على سبيل القطع - الى شيء قاله
الشاعر وهو بالآستانة الا قصيدة واحدة عنون لها بقوله
« وقال يمدح اسماعيل خديو مصر » دون أن يعين المناسبة
أو المكان ، ومن سياق القصيدة وحده نستدل على أنه نظمها
ليستقبل بها الخديو اسماعيل وقد جاء الى الآستانة عقب توليته
عرش مصر (فبراير ١٨٦٣) ليقدم للسلطان عبد العزيز فروض
الولاء والطاعة . وفي القصيدة يقول بعد أن شيب ومدح
اسماعيل :

فلو مصر تدرى أرسلت لك نيلها
ليلقاك في جنح من الليل قاتم
وجاءت لك الأهرام تسعى تشوقا
الى دار قسطنطين سعى النسائم (١)
وهذان البيتان هما القرينة الوحيدة التي تدل على أن القصيدة
قد قيلت في الآستانة ، وهي قرينة لفظية ، وليس في بيئة النص

(١) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

ولا جوه العام دلالة أخرى تنم عن مكان القصيدة وهو
الآستانة .

ونهتدى على سبيل الظن من ترجمته لحياته التى أعبدها
معه الشيخ محمد عبده الى أنه قال قصيدة أخرى بالآستانة
تلك التى رثى بها أباه ، فقد ذكر أنه « رثاه بها لما ناهز
العشرين (١) » ، وقد كان بالآستانة فيما بين الثامنة عشرة
والرابعة والعشرين من عمره . ومع أن القصيدتين لا تمتان بصلة
فنية أو بيئية أو تصويرية الى الآستانة الا أنهما - وهما من أول
ما سجل من انشاده - تدلان على نضج الشاعر واستواء شاعريته ،
وعلى أنه تخطى مرحلة المحاولة والتجربة وأصبح على جادة الطريق
مع كبار الشعراء . ومن ثم فهما ليستا أول شعر قاله بل سبقهما
غيرهما لم يسجل .

ويمكن تعلل سكوت البارودى فى الآستانة بواحد من
أمرين :

أولهما : أنه غنى بالضرورة ، وما كان يستطيع السكوت
ولو أراد ، ولكنه غنى لنفسه ، ولم يصدق بشعره على الملأ أو يظهره
للناس لأنه فى نظره لم يكن قد جاوز مرحلة التجربة ، أو وصل
الى ما ينشده من المستوى الذى يريد أن يطاول به الذين يريد
أن يتمثل بهم من الشعراء ، ويساند هذا الزعم اعتراف الشاعر
نفسه فى قصيدة استقبال اسماعيل بما يدل على التوجس والتردد
وعدم الثقة بالنفس حين يقول :

وما الشعر من دأبى وما أنا شاعر

ولا عادتى نعت الصوى والمعالم (٢)

(١) الديوان شرح الجارم ج ١ ص ٢٠٤ ، والمنار مجلد ٧ جزء ٢٠
فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ مراثى الشعراء ص ٦ .

(٢) الصوى : جمع صوة الحجر يكون دليلاً فى الطريق : هذا البيت
لم يسبق نشره .

وهو الاعتراف الأول والأخير في حياة البارودي الشعرية :
وثانى الأمرين : أنه سكت عن الانشاء مضطرا اتقاء الحرج
والمعايرة ، وقد كانت الطبقة الحاكمة من الأتراك والجراسكة
يعيرون من يكتب بالعربية أو يتكلمها منهم فما بالك بانشاد الشعر
والتغنى به !! وحين تحرر فيما بعد من هذا الحرج « كانت الجملة
المأثورة التى يشير بها هؤلاء اليه فى معرض التعبير قولهم باللغة
التركية ، هم كاتب هم ابن بلد » (١) وقد رد عليهم بقوله :
تكلمت كالماضين قبلى بما جرت

به عادة الانسان أن يتكلما
فلا يعتمدنى بالأساءة غافل

فلا بد لابن الأيك أن يترنما
وقد غنى بالشعر ملوك وأمراء وفرسان من قبله .
اختارت نظارة الخارجية التركية محمود سامى البارودي
ليكون ضمن بعثة الشرف التى ترافق اسماعيل عزيز مصر أثناء مقامه
بدار الخلافة (٢) ، وتوسم فيه اسماعيل سداد الراى ، وأعجب
الخدو يبراعته فى الخط والانشاء التركى (٣) فقربه اليه ، مما جعل
البارودي يلهج بالثناء عليه ، فقدم نفسه اليه شاعرا مصريا من
رعاياه ، وأهدى اليه قصيدة جعلته خيرا للوك وهو فى دار الخلافة .
ولعبت القصيدة على أوتار الفروور فى اسماعيل ، وازداد بصاحبها
اعجابا ، ووجد فيه كسبا لديوانه فألحقه بحاشيته لينتفع بخبرته
وثقافته التركية وعاد به الى القاهرة فى فبراير ١٨٦٣ (٤) .
« وعينه معينا لأحمد خيرى (باشا) على ادارة المكاتبات بين مصر
والاستانة العلية (٥) » .

(١) عمر الدسوقي : محمود سامى البارودي (١٩٥٨) ص ٢٣ .

(٢) مذكرات الاسرة الخاصة .

(٣) الجوائب المصرية . عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

(٤) مقدمة الديوان شرح الامام .

(٥) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

بين الحاشية وطريق الأمل :

عاد البارودي الى الأهل والوطن شخصا آخر غير منذ سبعة أعوام ، عاد وفي أعطافه آمال كبار بعد أن هدته المقادير الى أقصر الطرق لتحقيقها ، عاد وقد بلغ الرابعة والعشرين حيث « ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار الفتوة » ، وقد أكسبته التجارب والعمل والاطلاع والتعامل مع الناس الثقافة من بابها الأوسع ، عاد وقد أخذت قصائده تتناقل في الأوساط الأدبية فتعقد ألسنة الشعراء من الدهشة . لذلك لأنهم رأوا فيها شيئا غير ما ألفوه في عصرهم ، ووجدوها بعثا جديدا للماضي المجيد الذي ظنوه ذهب ولن يعود ، وعرفوا فيها الاصاله التي عجزوا عن الوصول اليها ، وأصبحت حديث الأدباء في مجالسهم ، ورواية الشعراء في مجامعهم ، وأثارت المناقشة والجدل ، وأخذ الشعراء في تقليدها والسير على منوالها ولكنهم قصروا وما بلغوا شأوها ، واطمأن البارودي الى أن فترة التجربة قد آذنت بالانتهاء وأنه قد بلغ مرتبة الفحول من الشعراء ، وقد ألقت ربة الشعر أزمته بين يديه ، وأسست له القريض ، وملكته ناصية الشعسر ، وقدمت قيثارها اليه ، فصار « يلهج به لهج الحمام بهديله ويأنس به أنس العديل بعديله » وأخذ يسجل ما يقول « ولا بدع فلأنسان فتون بشعره وولوع ببنيات فكره ، ولولا ذلك مادون الناس أشعارهم ، ولا اتخذوا حلية الأدب شعارهم ، كيف لا ؟ وبقاء الذكر حياة الأبد ، وحب الخلود أطمع لقمان في لبد (١) .

ولا يستريح البارودي الى العمل الديواني وروتينه لأنه لم يخلق له ، وتنزع نفسه الطموح الى الأمل الذي يصبو اليه طوال حياته والحلم الذي يراوده منذ شب عن الطوق ، ذلك هو سبيل الجيش والحرب ، ويسعى البارودي حتى ينقل الى الجيش

(١) محمود سامي البارودي : مقدمة الديوان .

في يوليو ١٨٦٣ ، ويمنح رتبة البكباشي العسكرية ويلحق بالاي الحرس الخديوي ، ويعين قائدا لكتيبتين من فرسانه (١) ، وتستشعر نفس البارودي الهدوء وقد أصبح على جادة الطريق الذي يريد أن يسلكه ، وتفتحت آفاق الأمل رحبة في وجهه بعد أن أسعفته المنى فبدلت وهمه حقيقة وتصوره واقعا ، وأزالت المعوقات التي منعت من تحقيق ذاته الفارسة ، وقيدت فروسيته بالأغلال وأحالتها الى ضرب من الخيال .. وأصبح البارودي قائدا .

وأعلنت مواهب القائد الشاب عن طبيعته الحربية الأصيلة ، ودلت عليه روح الفروسية المخترنة في طوايا نفسه ، فتقدم سريعا الى الصدارة ، وأرسل مع خمسة عشر ضابطا من خيرة الجيش ليقضوا فترة في مشاهدة نظام الجيش الفرنسي والانجليزى واقتباس خبرة قوادهما (٢) ، والذي لا شك فيه أن زيارة البارودي لفرنسا وانجلترا - وهما الحضارة الغربية في ذلك الحين - قد أغنت خياله كشاعر ، وأثرت ثقافته الحربية كقائد ، فقد رأى حياة تختلف في صورها وتقاليدها عما ألفه في مصر وتركيا ، وشاهد مظاهر حضارة قطعت شوطا في التقدم ، واستجلت « زجاجة عينيه » طبيعة خلابة ساحرة تذكى الهام الشاعر ، وأكنت مشاعره ذكريات ترهف احساسه وتشحن عواطفه بصور وانفعالات جديدة ، واستوعب عقله خبرات عسكرية ، ومعلومات عن الفنون الحربية في الجيوش الحديثة تعمق استعداداته كقائد . ويرقى البارودي بعد العودة الى رتبة عقيد (قائمقام) في نوفمبر ١٨٦٤ ، ثم الى رتبة عميد (أميرالاي) ووكلت اليه قيادة الفيلق الرابع من الحرس

(١) مرآى الشعراء ص ٨ ، مقدمة الديوان شرح الامام .

(٢) مرآى الشعراء ص ٨ ، مقدمة الديوان شرح الامام ، انظر أيضا عصر اسماعيل ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

الخديوى فى ابريل ١٨٦٥ . الا انه المجد الذى سعى اليه البارودى صبيا ، جاءه اليوم يسعى بين يديه حفيا ، وعرف له الدهر مكانته ، وأمد له فى أسباب العظمة طائعا مختارا .

فى حرب كريد : (١٨٦٥ - ١٨٦٧)

حقق البارودى شطر المنى بعد أن أصبح فارسا شاكى السلاح ، وقائدا ترهب الأقران صولته ، وظل الشطر الآخر يضغط على عواطفه وأحلامه ، وألحت عليه فروسيته العارمة فى أطواء نفسه تريد أن تثبت ذاتها فى ميادين الحرب فيلهج بذلك فى عالم خياله راجيا أن يستكمل مناه ويقول :

فمن لى والأمـانى كاذبات

بيوم فى الكريهة أو دنان

ألاعب فيه أطراف العـوالى

وأطلق بين هبوته حصانى (١)

ترانى فيه أول كل داع

ويرتفع الغبار فلا ترانى (٢)

وكأن الأقدار كانت تسمع لندائه فاستجابت له ، وقد شبت « بجزيرة كريد » فى البحر المتوسط ثورة عامة على الحكم التركى أواخر عام ١٨٦٥ ، وعجز الجنود الأتراك عن اخمادها فاستنجد السلطان بمصر . وخرجت اليها حملة مصرية بينها « آلاى » من فرسان الحرس يقوده محمود سامى البارودى بوظيفة رئيس ياور حرب (٣) . « وكان خيالة ذلك الآلاى أبسل المصريين جنودا ، وأطولهم بنودا اختارهم على ما أحب من كافة ألوية الجيش ليكون قائدهم يوم الكريهة والطعان (٤) » . وأقلعت الحملة من الاسكندرية

(١) الهبوة : القبار يرتفع فى الجو .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٣) مرالى الشعراء ص ٩ .

(٤) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ .

والبارودى أسعد رجالها يتوق شوقا الى يوم يحرك فيه سيفه
وقد طال سكونه فى غمده ، ويلعب فيه اطراف العوالى ويلقى
اولئك الذين خرجوا على السلطان .

وتظهر كفاية البارودى العسكرية أيام اللقاء ، وتسفر
المعارك عن القائد البطل « وأجل ما يذكر له فى تلك الوقائع واقعة
احتال بها على الثائرين حتى أدخل منهم نحو الثلاثين ألفا فى
مضيق بين جبلين وقطع عليهم الرجعة بقسم من عساكره وسلط
القسم الآخر نيرانه على العدو من قلعة الجبل فألقوا السلاح
وطلبوا الأمان وساقهم أسرى (١) » وجنى لمصر الفخار .

وأحرز الجيش المصرى النصر للأتراك ، واستسلم الثوار ،
وانتهت مهمة البارودى الفارس ، وفرغ منه الشاعر لخياله
وخواطره يستجمع الذكريات ، ويستعيد المشاهد والصور وتموج
عواطف الفنان فيه بشحنات مختلفة من الانفعالات سرت اليه من
المعركة ، والتقطها من الطبيعة الجميلة ، وسعت اليه من الوطن
البعيد ، وتحرك ربة الشعر أوتار قيثارها تستثير الشاعر
ليفنى فيصور احساسه وسلوكه فى مأزق تعرض له هو وجيشه ،
ثم يرسم بالالفاظ والعبارات لوحة المعركة الكبرى بأبعادها
وألوانها وظلالها ، وبانفعالاتها والحركة فيها ، فتكون الخلق الفنى
وقد وهبه المبدع الحياة فبعثه صورة مجسمة للعيان ، فيها
لمسات النوم تداعب جفون الفرسان وقد أجهدهم المسير ولفتهم
الظلمة تحجب عنهم الرؤية ، فلا ينظرون على امتداد البصر غير
أسنة الرماح مشتعلة ، وتأتيهم من بعيد أصوات السمار والعازفين
وصهيل الخيل وصياح الحراس مختلطة من معسكر الأعداء ،
ويقرب المصور منهم حتى يشرف عليهم فيراهم على مشاعل النيران :

(١) المصدر السابق .

ملئوا الفضاء فما يبين لناظر
غير التماع البيض والخرصان (١)
فالبدر أكدر والسما مريضة
والبحر أشكل والرماح دوان (٢)
والخيل واقفة على أرسائها
لطراد يوم كربهة ورهان (٣)
وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا
يتكلمون بالسِّن النيران
ثم تزدوج الصورة حين يسفر الصبح ، وتتضح الرؤية ويردد
النظر بين الربا والمجانى :

فاذا الجبال أسنة واذا الوها
د أعنة والماء أحمر قان

ويهيح بالبارودى شوقه الى الوطن ، وتتداعى الذكريات ،
وما أسرع ما تأخذ الذكريات بعضها برقاب بعض والمرء ناء عن الوطن
بعيد عنه ، فيخرجها البارودى صورا من شعره ومزيجا من عواطفه .

وتستغرق حرب « كريد » قرابة عامين يتأجج فيهما قلب
البارودى حينما الى الوطن ، ولأول مرة يشدو بحبه له ويتغنى
بشوقه اليه ، فتشهد جزيرة كريد مولد التغنى بمشاعر البارودى
الوطنية ، وترى أول قطرات الفيض الذى تفجر فى عواطفه نحو
بلاده وظل يملأها بالنور والحب والفداء طوال حياته ، يذكر النيل
ومغانى الهوى على ضفافه ويحس بأنه أغرق فى وصف بلاد الرومان
وجمالها فيلتفت ليعلن أن بلاده أجمل بلاد العالم وأين من ماء بمصر
منازل الرومان ؟ ويدعو لمصر بالسقيا فيقول :

-
- (١) الخرصان : جمع خرص : وهو الرمح القصير السنان .
(٢) أكدر : مغبر من الغبار المثار : أشكل يقرب لونه الى الحمرة .
(٣) الأرسان : جمع رسن : اللجام ، الطراد : المطاردة فى الحرب .

فسقى السماك محلة ومقامة
في مصر كل روية مرنان (١)
حتى تعود الأرض بعد ذبولها
شتى النماء كثيرة الألوان
بلد خلعت بها عذار شبيبتي
وطرحت في يمنى الفسرام عناني
ويعود البارودي الى الوطن مع الجيش المكلل بالغار وقد أحرز
النصرين معا : أحرز النصر الحربي فيمنحه السلطان في أول أكتوبر
١٨٦٧ الوسام العثماني من الدرجة الرابعة (٢) ، وأحرز النصر
الأدبي فيتقلد زعامة الشعر ويصبح المثل الأعلى للشعراء .

الفجر الجديد في الشعر العربي الحديث :

كان الشعر العربي يعاني أزمة الضعف والانحلال منذ احتل
العثمانيون البلاد العربية ، فقد زحفت مع جيوشهم على البسلاد
أجناد الجهل ، وظلمة الفقر الذهني والمادي ، واعتصروا ما فيها
من طيبات الرزق ، ونزحوا ما فيها من تراث وعلماء ، وأرادوا أن
يتحول مركز الإشعاع الفكري ، والسياسي والديني الى الآستانة ،
وحتى تظل البلاد العربية ومصر خاضعة راكدة ضرب الأتراك بسور
من العزلة عليها ، وكانت تركيا بهذه العزلة الفكرية تريد للشعب
العربي الجهالة ، وعماية الفكر حتى يسلس قياده وتلين عريكته ،
وتظل بلاده المزرعة التي تنتج المحصول لملكها ليعيش عليه في بحبوحة
الحياة ونعيمها ، ويدفعهم الى ذلك أيضا « مركب النقص » الذي
يحس به الأتراك ازاء العرب فعلى الرغم من أنهم سادة العرب
ويتحكمون في مصائرهم وبلادهم الا أنهم يحسون نحوهم وفي قرارة

(١) السماك هنا : السماء : الروية : السحابة الكثيرة المطر ومرنان جمع
مرة وهي السحابة التي يحدث مطرها صوتا ورنينا أثناء وقوعه على الأرض .
(٢) النار ، مجلد ٧ الجزء ٢٠ في ١٩٠٤/١٢/٢٣ ، مرآة الشعراء ص ١١ .

نفوسهم برهبة خفية ، ونقص في الدرجة الدينية فالعرب أهل الدين الذى يعتنقه السادة الأتراك وأهل اللغة التى لا بد وأن يتعلمها الأتراك ليصلوا بها ويقرأوا بها القرآن ، ثم هم بعد كل ذلك خير منهم ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ويزيد هذا الشعور من حنق التركى وحقده فيزداد في اذلال العرب ، وسومهم سوء العذاب ، وسلبهم باسم الدين حقهم في الحرية السياسية والمعرفة والحياة .

وتتحالف الجهالة والعزلة وخمود الروح القومية على الأمة العربية . والصلة أقوى ما تكون بين الحياة العقلية والقومية ، وبين الأدب والفن ، ومن ثم فقد أصيب الأدب بالضعف والركود ، وإذا كانت الحملة الفرنسية قد هزت المصريين الى الأعماق ، وأيقظتهم من التخدير الذى أصاب عقولهم وأرواحهم من طول ما رزحوا تحت الظلم والاستبداد ، وإذا كانت قد جاءتهم بزاد جديد لطاقتهم الثورية الكامنة فيهم من لمحات عن العلوم الحديثة التى طورتها أوروبا ، وإذا كان هذا الزاد قد حمل فى طياته ثقة بالنفس ، وآفاقا جديدة تشد خيال الحركة المتحفزة للشعب المصرى ، فان المؤسسة الكبرى جاءت على يد محمد على حين وجه اليقظة الى تنفيذ مخطط يحقق له أطماعا فردية ، فجعلها فى اتجاه يؤثر فى عقول الناس ولا يؤثر فى عواطفهم ، وحصرهم فى سجن الاستبداد والقهر ، وحرهم من الحرية الفردية والحرية القومية ، ومن ثم بقى الشعر والفن على صورته السالفة فى العصور العثمانية ينبع من التكلف ويهسر فى أخاديد الصنعة ، ويعيش فى سراديب الضعف والتهالك ، وظل الشعراء يسلكون نفس الدروب الملتوية الضيقة التى سلكها أسلافهم ومعاصروهم فى البلاد العربية من أمثال الشيخ اسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين محمد بن اسماعيل والسيد على الدرويش ، ينشدون شعرا فقد روحه العربى الخالص ، وغدا جسما يخلو من الحياة ، فقد أحالته الصنعة والتكلف حيلا بديعية ، اضطرابا والتواء أشبه بالأحاجى والألغاز ، وظلا مطموسا لصاحبه على أوزان البحور الشعرية ، وأصبح المثل الأعلى للشاعر

قدرته على تكبيل شعره بأكبر عدد من أغلال الصنعة التي تكتم
أنفاس الخصائص الفنية وتذهب بروح الشعر ومعناه .

ثم خلف من بعدهم جيل تولى زعامته « محمود صنفوت
الساعاتي » وكان صاحب الوقت بزعم أهله وقد أخذ لواء الشعر من
السيد على الدويش وانضوى إليه معاصروه من أمثال على الليثي
وعلى أبو النصر وعبد الله النديم وصالح مجدى ومحمد النجارى
وعبد الهادى الأبيارى وغيرهم « وقصارى ما يكون من أبرعهم شعرا ،
وأبدعهم صنعة اذا نفّض رأسه وزاد فى حركة قلبه وضرب على
جبهته بكتا يديه أن يعطس ببیت فيه نكتة من البديع أكثر ما تكون
من نحو حسن الأخذ والتضمين والاقتباس (١) » . فالشاعر كما
كانوا يفهمونه لم يزد عن أنه نديم فى المحافل يلقى سامعيه ،
ويعاشرهم ، ويضحكهم بالملح والأحاديث ومن ثم فكل من كان يفهم
النكتة فى المجلس ويحسن ردها ، ويحفظ النادرة يتألق فى سردها ،
ويروى الأخبار ، وينشد الأشعار فهو شاعر مجيد ، ذلك لأن ذوق
العصر الذى عاش فى الظلمة الفكرية والسياسية قيم الشاعرية على
أنها اللياقة وذراية اللسان وهى قبل كل شىء صناعة كلام وتنميق
ألفاظ ، وبراعة فى المساجلة والأفحام .

لم يكن الشاعر منهم يتصور الشعر الا أنه نظم لمعان معبادة
معروفة ، وكل ما له من فضل هو حشد ألوان البديع وأغلاله ،
أو السير بأوائل الأبيات على نسق الأبيدية ، أو نظم القصيدة من
حروف معجمة أو مهملة ، أو يستخرج من آخر شطر فيها تاريخا
بحساب الجمل الى غير ذلك من أنواع البديع التي لا تحصى .
ولو أننا أردنا أن نرجع المسببات الى أسبابها لوجدنا أنهم يمثلون
عصرهم الذى ناخث عليه الجهالة وفساد الذوق ، فكانت العقول
التي تعيش فى ذلك العصر ترضيهم مثل هذه الأشعار ويطمئنون الى
هذا النحو من الأدب تقبل عليه الخاصة تفك رموزه دون القاء بال

(١) مصطفى صادق الرافعى : المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .

إلى معنى أو فكرة ، فهو أدب لفظي أولى أن تقاس أطوال جملته وزواياه ، وتنصرف عنه العامة إلى أزجالهم ومواويلهم وإلى أحاديثهم وقصصهم الشعبي .

ويطلع البارودي على أدباء عصره طلوع الفجر الجديد ، ويظهر في الستينات من القرن التاسع عشر في بيئة الشعر العربي ظهور المعجزة التي لم يسبقها أرهاص ينبىء عنها . ولم تكن الدلالات السابقة أو المعاصرة تشير إلى مجيء هذه القمة التي انبثقت شامخة وكأنها خرجت من أعماق خمسة قرون من التاريخ فريدة ليس معها قمة واحدة تدانيها أو تسامىها . ووقع شعره من النفوس موقع الماء من ذى الفلة الصادى ، شريف المعنى ، مشرق الديباجة قوى الأسر رصين العبارة جزل التراكيب .

أو كما يقول البارودي نفسه :

فألق إليه السمع ينبئك أنه

هو الشعر لا ما يدعى الملاء الغمر

يزيد على الانشاد حسنا . كأننى

نفثت به سحرا ، وليس به سحر

وظهرت في شعر البارودي ميزات واضحة دفعت به إلى الصدارة بين الشعراء حتى ألقى الشعر والشعراء أزمته بين يديه ، ذلك أنه وثب بالعبارة الشعرية وثبة قوية عبر خمسة قرون من الركافة والضعف إلى مصادرها الأولى من صحة التركيب وجزالة اللفظ ومتانة العبارة ، وارتفع بها من حماة الابتذال والاسفاف ورجع بها إلى أساليبها الرصينة القديمة ، وخلصها من كلف البديع وأثقاله ، وأعاد إليها ديباجتها القوية ، وردّها إلى مجدها التليد ، « وخلع عن شعره كل العقد التي كان يحجل فيها الشعراء من قبله . . . ونفخ فيه روحا جديدة من الاصاله ، وأزال عنه كل ما يعوقه من أعشاب البديع (١) » .

(١) شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ، ص ٤٦ .

وانفجر النبع الطبيعي من نفسه وتدفق من عواطفه شعره وفنه ، وقد أخرجته من حيز المعاني المحفوظة المعروفة الى فسحة واسعة من التعبير عن العواطف ، وعن العصر وأحداثه ، ملتزما ما وضعت حدودا للشعر الجيد فقد جعل « خير الكلام ما أثلت ألفاظه ، وأثلت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئا من عثرة التعسف ، غنيا عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظا ، وكان كريم الشمائل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس ، وصار بين قومه كالغرة في الجواد الأدهم ، والبدر في الظلام الأيهم (١) » . وقد أوتي البارودي من كل ذلك النصيب الأوفى والحظ الوفور .

واهتدى البارودي بفطرته السليمة الى الطريق الطبيعية التي سلكها من قبله من فحول الشعراء ، وقد كانوا يقرءون ويستظهرون شعر النابهين ممن سبقوهم أو عاصروهم من الشعراء حتى تكون سليقتهم ، ثم يحاولون فهم مقاصده ، وتبين مواقع الجمال فيه ، يأخذون أنفسهم بروايته حتى تتمثل ذاكرتهم الألفاظ والتراكيب ، ومن ثم وحين يأتيهم الدفق الشعري يسيل على ألسنتهم القول دون عناء ودون حاجة الى جهد واعداد وترتيب ، ففي الذاكرة رصيد ضخم من الألحان والأنغام والذخائر والتراكيب . والبارودي شاعر استظهر الكثير من شعر الأقدمين « وقرأ المئات من قصائد الجاهليين والمخضرمين ، وفحول المحدثين . . ولا نعرف أحدا بين أبناء جيل البارودي أو أبناء الجيل الذي تلاه قرأ أكثر مما قرأ من دواوين العرب واستفادت صياغته من هذه القراءة أكثر مما استفاد (٢) » . وتسربت العروبة مما قرأ وحفظ الى ينابيع نفسه ، وتمثلها تمثلا عميقا أعادت فيه للعربية سليقتها القديمة بكل خصائصها اللفظية

(١) محمود سامي البارودي من مقدمته لديوانه .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١٢٦ .

ومميزات التركيب فيها ، وإلى ذلك يشير حسين المرصفي (١) أستاذ البارودي وقارىء دواوين الشعراء معه (٢) بقوله : « انه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعانى والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن . . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ناقدًا شريفها من خسيسها ، واقفا على صوابها وخطئها ، مدركا ما كان ينبغى وما لا ينبغى وفق مقام الكلام » . ولعل قراءة البارودي بحضرة المرصفي على هذا النسق من الدراسة الأدبية دون التعرض لدراسة قواعد النحو والصرف والعروض من كتاب ، هي التي دعت المرصفي أن يقول : « محمود سامي البارودي لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية (٣) » ، لأن الواقع غير ذلك فقد قرأ البارودي في دراسته الخاصة لعلوم المرحلة الابتدائية ، وفي « المدرسة المفروزة » - كما سبق أن أشرنا - بعض كتب النحو والصرف ، ولكنها قراءة تهدف الى استظهار لا ينمى السليقة أو يفيد في تقويم اللسان . أما العروض فلم يعرفه البارودي الا بعد أن بلغ الغاية من شعره ، ومن شعر البارودي نفسه نستدل على أنه درس العروض وعرفه ليتقن مأخذ الشعر ويتجنب الوقوع في الزلل ، لكنه لم يعرف العروض أولا ثم قال الشعر شأن العروضيين بل قال الشعر ثم التمس العروض ليتقن صنعته . ويدل على دراسته للعروض معرفته بمصطلحاته في قوله :

(١) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٧٤ .

(٢) المقتطف مارس ١٩٠٥ .

(٣) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٧٤ .

لم تبن قافية فيه على خلل
كلا ولم تختلف في رصفها الجمل
فلا سناد ولا حشو ولا قلق
ولا سقوط ولا سهو ولا علل
ولا يعرف هذه المصطلحات العروضية الا دارس لعلم العروض .
ونأى البارودي بنفسه عن أن يبدأ بداءة معاصريه ، فقد كانوا
ياخذون من الطبقات الدنيا فينشأ الشاعر مثلها اذا كان موفقا ،
أو يكون أدنى بحكم الطبع ، ولكن البارودي كان من صفاء الفطرة
وتقاء الدهن وكمال الاستعداد ونصيحة أهل البصر بحيث وجد
السبيل فابتدر الغاية ، وصوب سهمه الى النجم ، واتخذ مثله من
الشعراء الفحول . وفي ذلك يقول (١) :

مضى حسن في حلبة الشعر سابقا
وأدرك لم يسبق ولم يأل مسلم (٢)

وباراهما الطائي فاعترفت له
شهود المعاني بالتى هى أحكم (٣)

وأبدع في القول الوليد فشعره
على ما تراه العين وشئ منمنم (٤)

وأدرك في الأمثال أحمد غاية
تبز الخطى ما بعدها متقدم (٥)

وسرت على آثارهم ولربما
سبقت الى أشياء والله أعلم (٦)

-
- (١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٢) حسن : أبو الحسن بن هانئ ، مسلم : مسلم بن الوليد الانصارى .
(٣) الطائي : أبو تمام حبيب بن أوس الطائي .
(٤) الوليد : أبو عبادة الوليد بن عبيد البحرى .
(٥) أحمد : أبو الطيب أحمد بن الحسن المتنبى .
(٦) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

ولم يكن سيره على آثارهم تقليدا لهم بالمعنى السيء ، بل أراد أن يجاريهم في ميادينهم ليرد الى الشعر جزالته ونصاعته ورصانته ، أما بعد ذلك فشخصيته في شعره قوية بارزة شخصية تستكمل حريتها ، ولا تظهر باهتة في ظل الأقدمين .

ولم تتكون قريحته الشعرية على الطريقة التي كانت سائدة في عصره بين الشعراء العروضيين الذين « كانوا ينظمون القصائد ويخوضون في الشعر لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقا أو واجبا على كل من تعلم العروض ودرس البيان والبديع وما اليهما من أصول الصناعة ، وهم كانوا يتعلمون هذه الأصول ويطبقون ما تعلموه فيما نظموه ، فكانت دواوينهم أشبه شيء بكراسات التطبيق في معاهد التعليم (١) ؛ بل كانوا يعتبرون الناظم على غير علم بالعروض داخلا فيما لا يعنيه متطفلا على غير فنه . وانما الشعر عند البارودي فيض تتفجر به مشاعره ، وينساب طبيعيا من عواطفه الى أسلة لسانه فيترجمه تراكيب وصورا ، ويتدفق تدفق ضوء الصباح المشرق يفصل عن ذاته فيدل عليها ويشير الى ملامحها وتنعكس في مرآته صورة من حياته يتجلى فيها طابعه الخاص ، وتمتزج المرآة بالصورة امتزاج الروح بالجسد ، ويصبح طابع الشخصية ممثلا للشاعر في شعره كما يقول البارودي :

فانظر لقولي تجسد نفسي مصورة

في صفحتيه فقولى خط تمثالي

وشعر البارودي لم يكن من جهد الصناعة أو من معاناة البديع وحيله وضروبه واللوانه بل كان صادرا عن طبع فنى أصيل وكانت في قرارة نفسه عين كامنة ما لبثت أن وجدت منفذا حتى تفجرت بالنور والجمال ، وظلت تفيض ولا تنضب وكلما استثارها أسعفته وأقبلت عليه كما يقول :

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٨ - ٩ .

ويا طالما رمت القوافي فأقبلت
سراعا فلا أروى ذكرت ولا حزوى (١)
فلا يحدون الناس حذو بلاغتي
فأقرب ما في شأوها الغاية القصوى
فطبيعة البارودي الأصلية هي التي حركته لقول الشعر وإلى
ذلك يشير :

اقول بطبع لست أحتاج بعده
إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر
إذا جاش طبعي فاض بالدر منطقي
ولا عجب فالدر ينشأ في البحر

وهو بذلك يعبر عن جوهر شعره وأساس مجده فشعره ينزع
من قلبه وعواطفه ، وتجرى فيه نبضاته وخفقاته ، ويفصل من دمه
وشعوره وأعصابه وأفكاره . وتجسد طبيعته الشاعرة في الحياة وفي
الحرب وفي العواطف وفي المتعة والألم ما يساعد نموها ويفذيها
في أطوارها المختلفة فيخرج شعره متين اللفظ رقيق الحاشية
يتحدث إلى القلوب والروح . وقد أحسّ البارودي بكل ذلك وعبر
عنه تعبيرا واضحا في قوله : « ان الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها
في سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب ، فيفيض
بلائها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة
ينبلج بها الحالك ، ويهتدي بها السالك (٢) » .

وينأى البارودي بشعره عن أن يتخذ سببا لمرضاة حاكم
أو سبيلا إلى غاية عند أمير فلم يمدح به أحدا طلبا لمعروفه ،
أو يقف به مع شعراء البلاط ينتظر الأذن للانشاد ، بل كان يرتفع

(١) لم يسبق نشر هذين البيتين وأروى وحزوى مكانان من المغاني التي تحدث
عنهما الشعراء .

(٢) البارودي : مقدمة الديوان .

بنفسه وشعره عن مقام الأمانة نفسه ، وفيه وراثة من مجد يبلغ السماكين ، وقد كان معاصروه يسخرون أشعارهم لمديح الحكام والأغنياء ، بل لم يكونوا يفهمون الشعر إلا أنه وسيلة للارتزاق فنادموا به ذوى اليسار والجاه ، وتهالكوا على الأبواب برقعهم وقصائدهم وانحطت مرتبة الشاعر حتى احتسب مع المرتزقة الذين يطعمون لوجه الله ، والذين عيروا البارودى من أبناء طبقة لقوله الشعر ، إنما عيروه لأنه نزل في نظرهم الى هذه الطبقة المتكسبة من الندماء الذين يعيشون على الفتات يطرون أصحابها ضارعين مستمطرين بهرضاهم وعطفهم . وقد كان البارودى واضحا في ذلك يقرر أنه يقول الشعر « لا تدرعا الى وجه أنتويه ، ولا تطلعا الى غنم أنتويه ، وإنما هى أغراض حركتنى ، وأباء جمع بى وغرام سال على قلبى ، فلم أتمالك أن أهبت ، فحركت به جرسى ، أو هتفت فسریت به عن نفسى » .

لم تكن جزالة العبارة وبهجة الديباجة ورصانة التراكيب هى كل الجديد الذى جاء به البارودى ، بل من الجديد الذى شدد الأسماع لشعره ، ودعا الى الإعجاب به هو استخدامه « زجاجة عينيه » اللاقطة تصور الواقع فى بساطة وسلاسة وقوة تحس معها بارسال النفس على سجيتها لأنه لا يتعمق ولا يتكلف ولا يعمد الى التعقيد أو الغوص وتكلف الاستعارات أو السير فى أخاديد البديع ودروب الصناعة ، وإنما يرسل نفسه على سجيتها ارسالا فيصور ما هو أمامه ، ويعبر عن عواطفه كما يريد أن يعبر الناس فلا يستطيعون . واعتماد البارودى على حواسه فى شعره صفة بارزة فيه - وخاصة المنظور الذى ظل يزداد وضوحا مع الأيام ، وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص ، وهو حين يسجل الصور بالفاظه الموسيقية ، لم يكن يسجلها فى صحتها وسكونها على عادة عشاق الطبيعة الصامتة ، بل فى نشاطها وتحركها حتى يخيل لقارئ شعره

وسامعه أن الحياة تنبض في كل جزء تقع عليه العين وتحيط به
الباصرة .

وعلى عهد البارودى كان بالقاهرة منتديات للأدباء ، ومجالس
للفقهاء ، ومجتمعات للظرفاء أو المفتنين ، وندوات خاصة يجتمع
فيها رجال الفكر وشيوخ العلم وعشاق الأدب ، وكانت ندوة
البارودى الأدبية تعتبر فى القمة من هذه المجالس يعقدها فى داره
بباب الخلق ، ويؤمها صفوة القوم من أعيان المنشئين والشعراء
والعلماء وعشاق الأدب والعلم (١) ومن هؤلاء : الشيخ حسين
المرصفى والسيد على أبو النصر وعلى الليثى ومحمود صفوت
الساعاتى والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب ، ومحمد سعيد بن
جعفر مظهر الشاعر الثائر ، وشيخ الأدباء عبد الله فكرى وأحمد
وهبى الشاعر « الطرابيشى » (٢) وطالب العلم محمد عبده ، وفيها
أمهات الكتب الأدبية تقرأ ودواوين الفحول من شعراء العربية
تنشد ، وفيها معارضات لها تنشأ ، ثم يأتى دور الملهم فيرين الصمت ،
ويتحول المجلس الى آذان متلهفة لسماع المعجز من نبي الشعر
الجديد ، ويعود بهم البارودى - حين ينشد - قرونا الى الوراء
عبر التاريخ ، وكأنهم فى حضرة الشريف الرضى تارة ، أو مجلس
المتنبى أخرى ، أو على الركب مع النابغة الذبياني ثالثة ، أو يشاركون
أبا نواس دنه ، أو يحملون السيوف الى الفارة مع أبى فراس ،
أو ينعمون بالطبيعة مع البحترى (٣) وفى كل مرة تهزهم شخصية
البارودى فتوقظهم من الحلم وتردهم من الرؤى والتصوير الى

(١) عبد الله النديم : سلافة النديم ج ١ ص ٢٤ .

(٢) كان يبيع الطرابيش فى دكان بالغورية : أحمد تيمور : تراجم أعيان
القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ص ١٤٤ .

(٣) عارض البارودى هؤلاء الشعراء فى بعض قصائد لهم وقد نشرت المعارضات
فى كتاب الوسيلة الأدبية وقد بدىء فى طبعه عام ١٨٧٥ وذلك يدل على انه قالها
فى شبابه منذ عاد من تركيا حتى وقت الطبع .

الحقيقة ، وهم لا يكادون يصدقون أن هذا شعر ينشده شاعر يعيش بينهم ، ويروونه القمة التي تثبت ذاتها دون أن تكون ظلًا لشاعر سبقه ، والرائد الذي نفخ في الصور فبعث الشعر العربي ، ويجدونه كما يقول هو عن نفسه :

أحييت أنفاس القريض بمنطقي
وصرعت فرسان العجاج بلهذي
وفجرت ينبوع البيان بمنطق
عذب رويت به غليل الحوم (١)
نشأت بطبعي للقريض بدائع
ليست بنحلة شاعر متقدم (٢)
يصبو بها الحكمى صبو عاشق
وتخف من طرب عريكة مسلم (٣)
قومته بعد اعوجاج قناته
والرمح ليس يروق غير مقوم
شعر جمعت به ضروب محاسن
لم تجتمع قبلى لحي ملهم

غزل البارودي وخمرياته :

نقل البارودي بعد عودته من حرب « كريد » من آلاى فرسان الحرس الى المعية الخديوية ياورا خاصا ضمن ياوران الخديو (٤) ، وكان اسماعيل قد قضى فى الحكم ما يقرب من خمس سنوات استطاع فيها بأسلوب الرشوة والمساومة مع الباب العالى أن يكسب

(١) الجوم : العطش .

(٢) النحلة : الدعوى .

(٣) الحكمى : أبو نواس ، الحسن بن هانىء بن ميسد الله بن صباح (١٤٥ - ١٩٩ هـ) ومسلم : مسلم بن الوليد الأنصارى (صريع القوائى) شاعر عباسى (٧٤٧ - ٨٢٣ م) ، هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٤) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ .

لنفسه من الامتيازات ما يجعله الحاكم المطلق في البلاد ، وكان خياله المحموم بأطماعه يفرع سامعيه ، وكان يرى المال وسيلة الى تحقيق آماله فأهاب به استعداداته التجارى أن يستخدم سلطته المطلقة في جمع المال بوسائل النهب والسلب والاذلال من المواطنين ، وبالدهاء والمراوغة والتحايل والدلة من المرابين الأجانب (١) . وحتى عام ١٨٦٧ كان قد جمع لنفسه من الأهالى واستدان من بيوت الأموال الأجنبية الملايين العديدة ، بددها ذات اليمين وذات الشمال على ملاذه الشخصية ، وطيشه مع النساء الأوربيات ، وسفهه في اقامة الحفلات الملكية (٢) .

وأصيب اسماعيل فيما أصيب بهوس بناء القصور فبنى نحو ثلاثين قصرا من القصور الفاخرة منها قصر الجزيرة (٣) وقد شيده على مثال قصر الحمراء بالأندلس ، وقصر الجزيرة (٤) وقد استورد لبنائه وتخطيط حدائقه مهندسين وعمالا من الآستانة ، وعلى مثال هذين القصرين بنى اسماعيل القصور العديدة في القاهرة والاسكندرية والأقاليم . ويصف شاهد عيان (٥) الحياة في هذه القصور فينقلنا الى خيالات تتوارى الأساطير الشرقية والغربية خجلا أمامها ، فألوف الجوارى الحسنات ، والوصيفات الجميلات «والقلفاوات» المثقفات ، « والشاويشات » المهدبات ، ثم فزيق الراقصات والمغنيات ، والممثلات والعازفات على الآلات الموسيقية النحاسية

-
- (١) الفريد سكاون بلنت : التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى (تعريب جريدة البلاغ ١٩٠٨) ص ١٦ .
(٢) المصدر السابق ص ١٨ .
(٣) استورد له المهندسين من النمسا لبنائه ومقره الآن فندق عمر الخيام .
(٤) مقره الآن حدائق الحيوان : أنظر تفصيلات وصف هذين القصرين في الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٤ - ٨٥ .
(٥) أحمد شفيق ، مذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ٥٠ - ٨٦ .

أو الوترية ، يستوردن من أوروبا وتركيا وبلاد الجركس عملاء
« يسرجية » ، ويدربونهن على العمل في هذه القصور . وكانت
زوجات الخديو الأربع يتنافسن في اقتناء أجمل الجوارى وارشق
الوصيفات حتى ينلن الحظوة لدى اسماعيل ؟!

في هذه البيئة البذخة اللاهية ، وبين ردهات القصور الفاخرة ،
وفي حدائقها الغناء المزهرة ، وعلى مرأى من طيورها الفسردة ،
وحيواناتها النادرة ، عاش البارودى ثمانية أعوام من شبابه وصباه ،
ضابطا بالحرس الخديوى وياورا خاصا لاسماعيل . وأتته الأسباب
كلها لتشد الفيد الحسان الى مداره ، ويصبح لدى كل رداح هيفاء
مناط الأمل ومهوى القلب ، وتجمعت له السبل لينعم بمجالس
اللهو والشراب والغناء : شباب يتفجر صبا وفتوة ، وثرء يسلكه
فى علىة القوم ، ومجد يعلو به الى الهام ، وفخار يكلل جبينه ببطولة
فى الحرب يتيه بها على أقرانه ، وتحببه الى قلوب العذارى ، وشعر
يخلب اللب ويسلب القلب من الضلوع ، ألا انها حياة اللهو القت
بكأسها بين يدى البارودى فى شبابه فكرعها حتى الثمالة ، يتصيد
قلوب الفانيات ، فيشقى بحبهن تارة ويسعد أخرى ، ويعب من
الصهباء حتى تظل به الأرض الفضاء تدور (١) ، ويعيش ما يشاء من
ليالى الأنس ومجالس اللهو والغناء .

ويستثير هذا اللون من الحياة شاعرية البارودى فيغنى ،
ويصوغ تجاربه صورا يصف فيها الجمال الذى يستمتع به
والأحاسيس التى تخامره ، ويفرد لكل متعة صورة ، فهو عاشق
سعيد مرة ، ومعذب أضناه الجفاء أخرى ، وشارب تارة ومستمتع
بالطبيعة رابعة ، أو يمزجها فى صورة واحدة تجمعها حين تلتقى
معانيها فى عواطفه وتختلط أحاسيسها فى نفسه فيجسد كل ذلك ،
ويشدو به على قيثاره شعرة ، ويخرجه الى الحياة ليبقى ، ونقرأه

(١) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ٢٢ .

فنجس بأن البارودي كان في شبابه « ابن كأس ولذة » (١) يستأثر
لنفسه بملذات الحياة ويهتبل المتعة ويعتبرها لينعم بآخر
قطرة فيها .

والواقع ان البارودي بفتوته العارمة ، وصبوة الشباب فيه
عاش هذه السنوات من عمره بشرا وشاعرا ، يستمتع بلهو الصبا
ومفاتيح الحياة ويجري على طبيعته مع الغواية والصبيا في سباق (٢) ،
لا يسأم اللهو ولا يسأم اللهو منه (٣) ، ويعلن ذلك كله فيقول :
عصيت نذير الحلم في طاعة الجهل

وأغضبت في مرضاة حب المها عقلي
ونازعت ارسان البطالة والصبيا

الى غاية لم يأتها أحد قبلي

وكان البارودي يرى الاستمتاع بالشباب هو البشرية السوية
فيجهر بذلك في قوله :

إذا المرء لم يطرب الى اللهو والصبيا

فما هو الا من عداد البهائم (٤)

ويتنقل قلبه في هوى العذارى ، يتعرضن له فتصور حسنهن
بلورتا عينيه في صفحة القلب ، ويصوبن اليه سهامهن المريضة
فيصمى قلبه « ويروح قريسة الأهداب » . ويخلع البارودي في
حب الفيد رسنه ، ويبيع بالسهد في ليل الهوى وسنه كما يقول :
خلعت في حب غزلان الحمى رسنى

وبعت بالسهد في ليل الهوى وسنى (٥)

(١) المصدر السابق ص ٣٤٤ .

(٢) انظر ديوان البارودي ج ٢ ص ٢٦٤ (الجارم) .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٥ .

(٤) هذا البيت لم يسبق نشره .

(٥) الرسن : المقود ، الوسن : النوم .

وأعجبتني على ذم العذول لها
صـبابة نقلت سري الى العلى
فليبلغ العذل منى ما أراد فقد
أسلمت للشوق روى والضنى بدنى (١)

ولكأنى بالبارودى وقد أحب فتيمة الصبابة ، ثم رحلت عنه
حبيبته فيحيل رحيلا حلاوة الحب التياغا وعذابا ، لكنه يرضى بما
يلقاه فى سبيلها من العذاب ، ويتمنى نظرة منها على البعد يقنع بها
فيقول :

يا راحلا غاب صبرى بعد فرقة
وأصبحت أسهم الأشواق تصمىنى
ان كان يرضيك ما ألقاه من كمد
فى الحب مذ غبت عنى فهو يرضينى
لم ألق بعدك يوما أستبين به
وجهه المسرة الا ظلل يبكىنى
قد كنت لا أكتفى بالشمل مجتمعا
فاليوم نظرة عين منك تكفينى (٢)

وتمرض فاتنة قلبه فيهلح ، ويريد زيارتها فيمنع ، ولا يملك من
أمرها وأمره الا الشكوى من العذاب والدعاء لها بالشفاء فيقول :

دع حبيب القلب ياسقم	فبنفسى لا به الألم
كيف حل السقم فى بدن	خلقت من حسنه النعم
منعوني من زيارته	وحمى اقلبي له حرم
تهموني فى مودته	والهوى من شأنه التهم (٣)

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٣) هذه القصيدة لم يسبق نشرها .

ويأتى دوره فيمرض من الحب ويصيبه العشق بالعلة ، ويسرى
فى جسمه الضنى ، وينحل حتى تبين أعظمه ، فيضرع الى حبيبته
لتمن عليه بالوصل حتى لا يتحكم فيه المرض وينشده لحننا
مرقصا يقول فيه :

عليـل أنت مسـقـمه	فما لك لا تكلمـه
سرى فيه الضنى حتى	بدت للعين أعظمـه
فلا ان باح تعـذره	ولا ان نـاح ترحمـه
اذا كان الهوى ذنبى	فقل لى كيف اكتمـه
ودمعى أنت مرسـله	وقلبى أنت مؤلمـه
ولا والله مالى فى الـ	هوى ذنب فأعلمـه (١)

وغزليات البارودى فى ديوانه المطبوع والمخطوط تدل على أنه
نقل فؤاده حيث شاء من الهوى ، وكابد الغرام الحقيقى مع أكثر من
حبيبة فى سنوات شبابه « فظيبة المقياس » كانت آثرهن عنده ،
ومن ثم كانت أكثرهن ذكرا فى شعره ، ولعلها أول من تفتحت لها
عواطفه فتمكنت من فؤاده وظل يذكرها طوال حياته وقد كان لأسرته
قصر بمصر القديمة يطل على روضة المقياس ، وكان للخديو اسماعيل
قصر فى روضة الجزيرة نفسها ، والبارودى فارس من فرسان حرسه
وياور من ياورانه . ثم « مهابة شبره » (٢) ، و « غزالة
الجزيرة » (٣) ثم « ليلى حلوان » ويسجل البارودى ليلة أنس
قضاها معها فى قصيدة يقول فيها :

فى نشوة الخمر سر من مرأشفها
وفى الأراكة شكل من تهاديهـا (٤)

-
- (١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٢) أنظر الديوان (الجارم) ج ٢ ص ١٠٨ .
(٢) أنظر الديوان (الجارم) ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ .
(٤) الأراكة : شجرة طويلة الساق كثيرة الورق والأغصان خوارة العود يتخذ
منها السواك .

يا ليلة بت أسقى من بناتها
ومن لواحظها خمرا ومن فيها
حتى اذا رف خيط الفجر وابتدرت
حمائم الأيك تشدو في أغانيها
قامت تمايل سكرى في مآذرها
والروع يفتها طورا ويثنيها
فعدت والعين غرقى في مدامعها
والقلب في لوعة تنزو نوازيها (١)

وروعة الغزل عند البارودي أنه صادر عن قلب لا يتكلف الحب بل يفيض به ويزخر ، فاذا نعم بحلاوته ولذته سال نفما يتدفق سلاسة وجمالا ، واذا عذبه الصد والشوق والهجران صاغ الألم في عواطف لاذعة يمازجها حس دقيق ، يصور ذلك كله في سهولة ويسر ، لأنه يصور واقعا تنبض به أحاسيسه فلا نلبث حين نقرأها أن تنفذ الى أعماقنا ، وتتجاوب معه مشاعرنا . ويحب البارودي ويفرق في الحب ، ويجهر بذلك ويعلنه على الملأ دون تحفظ أو خشية من لوم ، فهو يؤمن بأن الحب ضرورة لازمة لأنه فطرى في المرأة والرجل ، وألم الصباية هو الألم العبقري الذي تحيا به نفسه (٢) ، وان الفتى الكريم لا يعيبه اللهو والتصابي ، فكل مسوق لما أريد له (٣) ، ويتصدى للأمين ويطلب اليهم أن يدفعوا عنه الصباية ان استطاعوا ، أو فليدعوه وشأنه فليس له على الهوى أمر ولا نهى (٤) . ولم يوجه اليه اللوم ؟ ولو أنصفوا لكانت الفيد الحسان أولى باللوم منه كما يقول :

-
- (١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٢) أنظر الديوان (الجارم) ج ١ ص ١٢ .
(٣) الديوان (الجارم) ج ١ ص ٢٤٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

يلومون أشواقى كأنى ابتدعتها
ولو علموا لاموا الأطباء الجواريا
ومالى ذنب عندهم غير أننى
شدوت فعلمت الحمائم الأغانيا
وهل يكتم المرء الهوى وهو شاعر
ويثنى على أعقابهن القوافيا ؟ (١)

والبارودى فى أكثر حبه كان عفيفا لا يزيد مطالبه فى معشوقته
عن اللمسة أو الهمسة ، والمناجاة أو البسمة ، وأكثر ما يكون مناه
قبلة تطفىء لهب الشوق وحرارة الجوى . وكان البارودى يتيه
بعفته فى حبه ، ويرأها موضعا لفخره ، ففى قصيدته « ربة
العود (٢) » يصرح بأنه « أبا للعين فيها ما تقر به » ، لكنه « زاد كف
الصبا عن معقد الأزر » وفى قصيدة « أبى الشقوق الا أن يحن
ضمير (٣) » ، بعد أن قضى الليل يشرب مع حبيبته خرج حين أقبل
الصباح « يجر الذيل تيهها وانما ، يتيه الفتى ان عف وهو قدير »
ثم يعلن مذهبه فى اللهو والخلاعة والحب صريحا فى قوله :

وماذا على من خامر الحب قلبه
إذا مال معها للخلاعة والصبو
وهل فى الصبا واللهو عار على الفتى
إذا العرض لم يدنس بأثم ولا بغو (٤)

والواقع أننا نجد البارودى المخب فى أكثر تجارب حبه فاتك
الصبوات فى قدسية وجلال ، عرف الحب شريعة وجدانية فلم

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٢) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٨ .

(٤) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

يتردد في اعتناقها ولو كان رئيس وزراء ، فالحب عنده جذوة روحية
تصل صاحبها بسرائر الوجود وترفعه الى اوج المجد والخلود كما
يقول :

والعشـى مكرمة اذا عف الفتى
عما يهيم به الغوى الأصـور (١)
يقوى به قلب الجبـان ويرعوى
طمع الحريص ، ويخضع المتكبر

ولكن دعواه العفة المطلقة وعدم مقارفته زلة في الحب وانه لم
يدنس غرامه بأثم أو اعتداء ينقضها اعتراف صريح منه بأن الشباب
قد نزي به فانزلق وخرج عن خط العفة الذى رسمه لنفسه مرة ،
وصراحة البارودى في الاعتراف تدل على الصدق الفنى في شعره
فقد كان أمينا مع عواطفه وصادقا في التعبير عنها حين قال :

وملمس عفة قد نلت منه
بأيدي اللهـو ما شاء التمنى
ملكـت به حنان الشوق حتى
قضيت لبـانتى وأرحت ظنى (٢)

وقد بدا لبعض الكتاب (٣) أن يؤكدوا أن البارودى لم يكن
صادقا في غرامياته ، وقد جزموا بأن قصائده في هذا الفن لم تكن
الا محاكاة لأساليب القدماء ، ولا ندرى كيف جاز أن تقوم هذه
الدعوى رغم صدق العاطفة التى تفيض بها غزليات البارودى ،
فتصل الى قلوبنا وتشركننا معه فى آلام نفسه ومشاعره ، وملذاته
ووساوسه ، وتجعلنا نحس الدموع التى يعبر بها عن يأسه تارة
ولهيب الشوق فى حناياه تارة أخرى ، ورغم ما تذكرنا آيات شعره

(١) الأصـور : المنحرف عن الرشاد .

(٢) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

(٣) محمد حسين هيكـل فى مقدمته للديوان فرح الجارم ومعروف .

فى الفزل بفرامىات « الشرف الرضى » فى كثر من الأفىان ، ورفم ما فصرأ به البارودى نفسه فى شعره بأنه أأب وآنقل وآنذب وهجر وبكى وآألف فآنقل له الدعوى : لا ، أنك لم أفعل ولكنك آنقل الأقدمين !! وفى مقدمة دىوانه فقول البارودى نفسه عن دوافع قول الشعر عنده : « أنما هى أغراض أركتنى ، وأباء أجمع بى ، وگرام سال على قلبى » فىأتى أصحاب الدعوى وفآهمسونه بالكذب ، وفقررون أن الغرام سال على قلب غيره ، وما هو الا ناقل ومقلد له . ورائد هؤلاء محمد أسفن هفكل السفاسى الوزفر ، ولعله بعقلفة السفاسى الوزفر فى عصره أراد آنزفه البارودى عن مآثم الفففىان فكتب عنه وقد نسى أن البارودى مر بفآرة الشبأب ، وبقى فى مآفلآه أنه وصل الى رئاسة الوزارة ، وفجب على الوزراء ورؤساءهم - فى آصوره - أن ففشوا بلا قلوب !!

وكذلك ذهبآ الدعوى فى آمرفاء البارودى ، فقد آآهمآ هذا الفففى القوى من أأب الآفة والبهجة . وآمشق مآعة الشرأب وظلال أنسه الوارفة بالزفف ، وأعلآه آفلدا لا فنبع من أأس ، ولا فصدر عن عاطفة صادقة ، وذلك لأن محمد أسفن هفكل ، مرة أخرى ، لم فآصور بعقلفة عصره أن فآهر رؤفس الوزراء بشربه الأمر أو أن فعرف الناس عنه أنه فشرأ ، ومن ثم ذهب فى دعواه أن آمرفاء البارودى كانت آفلدا ، مع أن البارودى آفنى بالآمر وآآآرها فى العقول والأأاسفس وأوصافها فى ألوانها وأآآها وعآقها ، آفاء آفر مارس الشرأب آآى عرف أسرار الآجرة . كل ذلك فى عاطفة فففى قوة وآفوفة ، بل فففى فرأا وبهجة ولذة ، وكأنما فرفد أن فمنأنا مآبة الآفة . ودىوانه ملأ بمأالس الشرأب فى لبالى الأنس ، آارة فى آنافا قصاده وطورا فى مقطوعات وقصائد مفردة ، فصف دنانها وآآى « صوت عطاسها آفن فآآ للشرأب » (١) ، وندمانها وكأوسها وسقاتها وصال رائعا فى أكثره

(١) الدىوان (الأارم) ج ٢- ص ١٥٢ .

يعبر بنا القرون الى الوراء لنستعيد ما نظمته فيها أبو نواس وابن المعتز .

وأكثر ما يكون البارودي مبدعا حين تقترن نشوة الشباب فيه بفرحة الحياة وتستوعب أحاسيسه ذلك كله ثم تمزجه بجمال الطبيعة وفتنة الحسان الجميلات ، ويغنيه العاشق المفتون بالجمال والمنتشى بابنة الكرم نغما يدفع قلوب السامعين الى مشاركته حياته ومتعته ، وحين نستعرض قصائده « غاد الندى بالجيزة الفيحاء » ، أو « الا عاطتيها بنت كرم تزوجت » ، أو « وليلة أنس قصر اللهو طولها » ، أو « أدر الكأس يا نديم وهات » أو « زمزى الكأس وهاتى » ، أو « املا القلح » ، أو « تغنى الحمام ونم الشدا » ، أو « نم الصبا وانتبه الطائر » (٢) وغيرها من « حبذا الراح فى أوان البهار » (١) نجد أن البارودي كان يحيا حياته فى شبابه كما يهوى يستأثر لنفسه بكل نعيم فى دنياه ، ويجمع جمعا بديعا بين الطبيعة والحب والخمر وكأنما تلتقى معانيها فى نفسه لقاء واحدا (٢) ومن جميل ما وصف لنا فيه ليلة من ليالى شرابه وأنسه قوله :

لاعب السكر قد فثنى	ودعاه فرط السرور فغنى
لم يزل يرضع السلافة حتى	غاب عنا كأنه ليس منّا
فأنمناه فوق مهد وثير	برهة ، كى يفيق ثم انصرفنا
فلبثنا هنيهة ثم لمّا	خف من سكره وأقبل قمنا
وأدرنا الكؤوس حتى تولت	أنجم الليل من أحاد ومثنى
يا لها ليلة أبحنا بها اللهـ	و الى وردة الغداة وتبنا (٤)

(١) أنظر الديوان (الجارم) بالترتيب ج ١ ص ١٩ ، ٢٢ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١٢١ ، ٢٦٠ ، ج ٢ ص ١١٦ .

(٢) الديوان ج ٢ ص ١٤٢ .

(٣) شوقى ضيف : البارودي ص ١١٣ .

(٤) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

وكذلك شأن الفرسان من رجال الحروب يستخفون بالحياة حين تورى الحرب زندها ، ويفرقون في حبها ومتعتها حين تغيب السيوف في أغمادها ، وكأنما يعوضون أيام الشدة بالرخاء ، وأيام الخطر بالمتعة والنعيم ، أو لعلهم ينتهبون اللذة واللهو قبل أن تناديهم الخطوب مرة أخرى ، فلا يدرون ماذا يكون مصيرهم فيها ، كذلك كان البارودى كما يدل على نفسه بشعره وكما يخبر عنه عارفوه ومعاشره وأبناء عصره (١) ، ويجسد لنا البارودى فارس القرن التاسع عشر المثال الرفيع للفارس العربى منذ ردت عنه الأساطير حين دخل التاريخ من بابه العريض فى القرن السابع مع امبراطوريته الواسعة الى حروب الصليبيين والتتار ، يعيد الى واقعنا صورته بجميع خطوطها وألوانها النفسية بعثا ونشورا ، حتى الظلال التى قد تعلق بالصورة من طريقة تناوله الحياة العامة والخاصة ، فتعكس السمو فى شخصيته والنور الذى يضيء جوانبها من عشقه وخمره وحبه لجمال الطبيعة وفخره وابائه وكرمه .

وعلى هذه الصورة ظلت قيثارة البارودى أثناء عمله بالقصر ضابطا وياورا للخديو تعزف أنغام الحياة التى يعيشها مستمتعا بحبه وصبواته ، متنقلا بين مجالس اللهو يجنى اللذة ويكرع الصهباء ، فخورا على الأقران بفار النصر الذى أحرزته فروسيته، وبما حشد فى نفسه من شيمة نبيلة تأبى الدنيا ، وعزيمة ترد لهام الجيش وهو يمور ، وخلق كريم يزينه الوقار ، ويقسرن ذلك كله بمجد آبائه السابقين فيفخر بنفسه ويتيه بأجداده على الدنيا . وديوان البارودى مفعم بالفخر الذى تسوقه أحيانا ريح التيه حتى تصل به الى حد الغرور ومن فخره بنفسه وجدوده قوله :

تأبى لى الضسيم نفس حرة ويد

أطاعها المرفهان السيف والقلم

(١) شعراء مصر وبيثانهم ص ١٣٤ .

وعزيمة بعثتها هممة شهت
بها على الدهر عضبا ليس ينثلم
وفتية كأسود الغياب ليس لهم
الا الرماح اذا احمر الوغى أجسم
مرفهون حسان في مجالسهم
وفي الحروب اذا لاقيتهم بهم (١)

ويظل البارودي منطلقا في لهوه يغنى ويفخر ، حتى أواخر
عام ١٨٦٧ فتفتقد حمام الأيك أنغام الهوى من صديقها الشاعر ،
ولا تعود تسمعه ينتقل من حبيب الى حبيب يشدو نغمات الحب ،
ويبكي ألم الصد ، ويذرف الدمع من لوعة الأسى ونار الهجران .
ثم يأتيها صوته من بعيد يعزف لحن الاستقرار والعيش الهنيء
في قفصه الذهبي الجديد فقد وجد البارودي ألفه ، واهتدى الى
القرين وتزوج (٢) بعديلة يكن .

(١) جمع بهمة : الشجاع الذي يستبهم مأناه على أقرانه . هذه الابيات
لم يسبق نشرها .
(٢) ذكرت بعض المصادر ، أن هذا الزواج هو الزواج الثانى للبارودي ،
ولكن الأسرة تنفى أنه تزوج بأحد قبل زوجته عديلة .

الفصل الثاني

بين السياسة والثورة

مولد الشاعر :

ويقبل عام ١٨٦٨ فاذا به من الأعوام الحاسمة في حياة البارودي،
فقد أعلن في قصيدتين (١) أن السنة التاسعة والعشرين من عمره
سنة فاصلة بين عهدين من حياته ، عهد الصبا واللهو والغواية ،
وعهد الجد والمسئولية والهداية كما يقول :

نزعت عن الصبا وعصيت نفسي
ودافعت الفواية بالتأسي
ومن يك جاوز العشرين تترى
وأردفها بأربعة وخمس
فقد سمرت لعينه الليالي
وبان له الهدى من بعد لبس
وكان من الممكن أن نصدق البارودي وهو يذكر لنا البواعث
الظاهرة لهذا التحول حين يقول :

نظرت الى المرأة فكشفت لي
قناعا لاح فيه قدير رأسي
ولكننا نحس بريح ملتفة بالعاطفة الوطنية الصادقة تطالعنا به

(١) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ١٦٠ ، ٢٠٢ .

قصيدته الثانية - العينية (١) - وتفوح منها ثورة تجتاحه ونفسه ودنياه ، وتنقله من عالم الفردية الذاتية التى يعيش فيها الى محيط العمل من أجل الجميع ، ومن محور الحياة الخاصة الذى يدور فيه الى مجال النضال الوطنى الكبير ، ثورة يريد لها أن تمتد من نفسه الى مواطنيه فتوقظهم ليستأصلوا أسباب ذلهم وعلة ظلمهم ، ويشعلوها نارا تذهب بأسباب العذاب والظلم . ومثل هذا التحول الكبير لا يمكن أن يحدث للبارودى فجأة ودون بواعث ومقدمات ، أو أن يسببه بلوغه سنا معينة عاشها البارودى فانفعلت بها نفسه وشحنت بها عواطفه حتى وصلت الى درجة التشبع فأفاق . والبارودى منذ عاد من حرب « كريد » أصبح بحكم عمله قريبا من مركز السلطة ومحور السياسة والحكم فى البلاد ، يلزم صانعها « ياورا » ، ويعيش مع مستشاريه من رجال المعية قرنا وزميلا ، ويرى البارودى الأحداث تسرع من حوله منذرة بالخطر حتى لتكاد تسلم الوطن الى نهاية مفزعة من الافلاس والخراب والوقوع فى أغلال النفوذ الأجنبى ، فتشده اليها فزعا مشفقا .

رأى البارودى « اسماعيل » وقد قرب اليه طفمة من المتصرين والأجانب - يقودهم العميل الأرمنى نوبار - وجعلهم رسلا يجلبون له الملايين من البيوتات المالية الأجنبية قروضا تسوق البلاد الى الهاوية ، وتجرها الى مهاوى الاحتلال ، لينفقها على ملاذه ومبازله ، وشهد البارودى قبضة اسماعيل وهى تقطر بدم الضحايا من الفلاحين الذين اعتصرهم جباته وجلادوه حتى آخر درهم يملكون ، فى صورة ضرائب لم تسنها الا شهوة الطاغية الى المال . وزين له مستشاره طريق الفساد ، واخترعوا له الأساليب التى ترضى أهواءه ، وتمد بالمال معدة أطماعه ، وذكروه بما فعل جده محمد على من مصادرة الأراضى لتكون ملكا خاصا للوالى فهو نائب السلطان فى البلاد وخليفة الله فى أرضه والعباد .

(١) المصدر السابق ص ٢٠٢ .

يرى البارودي كل هذه الأحداث ويرقبها ، ويشهد خفايا الأمور
ويسمعها وهو صاحب النفس الأبية الحرة فيمضه الظلم ، ويخزه
الفساد وخز الأبر ويفيق من سكرة الصبا ، ويجفو النوم عينيه
كما يقول :

فسمع أنين الجور قد شاك مسمعى

ورؤية وجه الغدر حل عرى جفنى (١)

وتشده الأحداث بقوة الى دائرتها ، وما كان ليستطيع ولو أراد
ان يكون بمنأى عنها ومعزل ، فهي أحداث يتعلق بها مستقبل أمته ،
يراهم ولا يستطيع ان يدفعها فتموج في نفسه ثورة مكبوتة ، وتضيق
عليه الأرض بما رحبت كما يقول :

وغدت حيران الفؤاد كأنما

ضماقت على برحبيها الآفاق

وتزداد الأحوال سوءا خلال عام ١٨٦٨ « فقد أسندت وزارة
المالية الى اسماعيل صديق المفتش (٢) . . وكان هذا الرجل في ذاته
من الكوارث التي حلت بمصر (٣) » . ويرى البارودي البلاد تهوى
الى الكارثة وقد انتهت مقاليدها الى ثلوث الطفيان : يجثم في
قاعدته اسماعيل المفتش ونوبار ويقبض على قمته الخديو اسماعيل ،
ويكشف البارودي حجب الغيب ببصرة الشاعر ، يرى سفينة
البلاد تسرع بقيادة الثلوث الى صخور الهاوية لتتحطم ، وتهزه
الأحداث فيفوق من سكرة الصبا ويقلقه الفزع والخوف على وطنه
فيتغير كما يقول :

وهل يستفيق المرء من سكرة الصبا

إذا لم تهذب جانبيه الوقائع ؟

(١) هذا البيت لم يسبق نشره ،

(٢) أخو اسماعيل من الرضاع مجهول الأصل ويقال أنه جزائري المولد .

(٣) الرافض : عصر اسماعيل ج ٢ ص ٣٢ .

وتشهد سنته التاسعة والعشرون من عمره هذه الأفاقة وذلك
التغيير ، فتحظى بمولد البارودي الثائر .

ويفكر البارودي ويطيل التفكير في عمل يقف به تيار الفساد
الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي يجر البلاد الى الهاوية ،
ولكن عجز الوسيلة يشل تفكيره ويكبت ثورته ويعود البارودي الى
نفسه فيجدها وحيدة عاجزة عن أن تفعل شيئاً ينقذ الوطن من
الذئاب التي تكاثرت عليه فيتألم ، وتضطرب جوانحه « بثورة
مكبوتة » ، ثورة على الحاكم الظالم وثورة على الحاشية الفاسدة ،
وثورة على المواطنين الذين أذلهم الطغيان حتى عدموا الأحساس
بإنسانيتهم ووجودهم وتسعفه ربة الشعر بقيثارتها لينشد عليها
نشيد « الثورة المكبوتة » (١) ، يذكر فيه اسماعيل وجشعه في جمع
الأراضي والمال ويتنبأ له بالنهاية المحتومة لكل جشع ظالم فيقول :

يود الفتى أن يجمع الأرض كلها
اليه ولما يدر ما الله صانع
فقد يستحيل المال حتفا لربه
وتأتى على أعقابهن المطامع
فذرهم يخوضوا انما هي فتنة
لهم بينها عما قليل مصارع

ثم يبلغ به الشعور الوطني ذروته فيدعو قومه الى الثورة على
الأوضاع الفاسدة ، دعوة تثير فيهم الحمية ، وتهزهم من مضاجع
الغفلة ، فيمس مواطن الخزي التي يعيشون فيها من هوان وذل
وظلم ، ويحاول أن يدفع عنهم الخوف الذي ملأ قلوبهم ، ويدعوهم
الى حمل السلاح لتكون ثورة مسلحة تقضي على رءوس الفساد
فيقول :

(١) الديوان : الجارم : ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢١٣ .

فيا قوم هبوا انما العمر فرصة
وفي الدهر طرق جمّة ومنافع
أصبرا على مس الهوان وأنتم
عديد الحصى ؟ انى الى الله راجع
وكيف ترون النذل دار اقامة
وذلك فضل الله فى الأرض واسع
أرى أرؤسا قد أينعت لحصادها
فأين ولا أين السيوف القواطع
فكونوا حصيدا خامدين أو افزعوا
الى الحرب حتى يدفع الضيم دافع
ولكنها صرخة تذهب قبض الريح ، ويعود صداها يتعثر فى
أذيال الخيبة ، وحيدا كأنه مر بصحراء بلقع ، ويتلفت البارودى
حوله فلا يجد سميعة لندائه ولا مجيبا له ، وكأن مواطنيه قد وضعوا
أصابعهم فى آذانهم كيلا يسمعوا ، وآثروا أن يكونوا حصيدا خامدين
فيثور البارودى عليهم ويقول :

أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة
الى ، ولباني الصدى وهو طائع
فلم أدر أن الله صور قبلكم
تمائيل لم يخلق لهن مسامح

وثورة البارودى على الأوضاع الفاسدة عام ١٨٦٨ ودعوته قومه
الى الثورة واستعمال القوة حدث وطنى يستحق الدراسة والاهتمام .
فالبارودى لم يكن من الطبقات المظلومة التى تعانى ارهاق الضرائب
أو محنة السخرة ، ولم يمس عرضه بأذى من فجور الخديو وبطانته ،
ولم يهضم حق من حقوقه فى الرتب العسكرية أو المراكز المدنية ،
بل كان على النقيض من ذلك ، كان الجراكسة وهم الطبقة التى
حظيت بالامتيازات فى الدولة والتى يختار منها أنصار الخديو
ومعاونوه وضباط جيشه ، يرقل فى الثراء والنعيم ، ويعمل حارسا

للخديو ثم ياورا ، ويصاهر الأسرة الخديوية بزواجه من بنت أحمد يكن ابن أخت محمد على ، ولو أننا تعمقنا دراسة «القصيدة العينية» التي خرجت منها صيحته الأولى للثورة ، وما أحاط بها من ظروف نفسية للشاعر لوجدناها صرخة صادرة عن وطنية صادقة ، أطلقها البارودى الشاعر ذو الاحساس المرفف ، والنفس الحرة الكبيرة ، انبعثت من شعور الفنان المتألم للحرية المذبوحة فى وطنه ، وللظلم الذى يجثم على صدر مواطنيه ، وللارهاب الذى يفسى كرامة المصريين وقلوبهم ، فيهب بهم أن يهبوا للثورة ، وهنا يظهر البارودى الفارس فيمد الفنان بالوسيلة والأداة وهو لا يعرف فى هذه المرحلة من حياته الا السيف والنطع حلا للمشكلات السياسية، ومن ثم دعا قومه الى الحرب ، والى معركة تطيح برءوس الارهاب وتخلصهم من الفساد .

والذين كتبوا عن البارودى من المؤرخين السابقين ساروا على النهج الذى رسمته « حملة التشهير » المدبرة التى قامت عقب الاحتلال البريطانى وسلطت على زعماء الحركة الوطنية العربية سموم أقلامها ، ووجهت اليهم أكاذيبها ومفترياتها ، حتى تنال من سمعتهم ، وتشوه وطنيتهم فتقتل فيهم المثل العليا للأجيال التى تجيء بعدهم حتى يفقدوا الثقة فى الزعامة الوطنية ، فتخمد فى نفوسهم روح الكفاح ويموت فى قلوبهم نبض الحماس للوطنية الذبيحة على يد الاستعمار وأعوانه . زعمت حملة التشويه وتبعها — بحسن نية — من كتب بعدها من المؤرخين ، أن صرخة البارودى لانقاذ وطنه ورفع شعار الحرية فيه لم تكن من أولها صرخة بريئة لوجه الوطنية والحرية ، بل دفعته اليها أغراض شخصية من اطماع ذاتية وآمال تراوده فى تولى الملك !! والحقائق تجعلنا نختلف مع أولئك الذين ذهبوا هذا المذهب فى القاء التهمة جملة دون تفصيل أو توقيت ، فالبارودى حين صرخ صرخته الوطنية الأولى عام ١٨٦٨ وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ودعا الى ثورة مسلحة لم يكن يهدف الا الى صالح وطنه وانقاذ مواطنيه فأطلقها نفثة مصدور ألم

قلبه الضام وشاك سمعه أنينهم . وظروف البارودى وقتذاك من صغر سنه ومركزه الوظيفى ، وعدم توافر امكانيات الثورة الحربية ووسائلها من قوة عسكرية ، أو قوة شعبية تؤيده ، أو أنصار وأعوان يقفون الى جواره وهو يقود انقلابا يزيل به النظام القسائم ويتولى على أثره الملك تجعل الأمل المزعوم ضربا من الوهم ، ونوعا من الخيال . ولم يعرف عن البارودى أنه كان موهوما أو مخبولا !!

وحقيق بالبارودى أن يجد الأنصاف من وطنه فيعترف له بأن صوته كان أسبق الأصوات فى الدعوة الى الثورة المساحة على الفساد والظلم فى مصر الحديثة . وجدير بالتاريخ أن يسجل له هذا السبق ويذكر له بالتقدير شجاعته الوطنية « فى وقت بلغ فيه الاستبداد أشده ، والظلم جاوز حده ، والطغيان فى عنفوانه ، والقهر قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له أى عبيد !! (١) حقيقة أن صيحته الأولى لم تجد لها صدى فى نفوس الشعب ، ولم يشفع البارودى قوله بعمل ايجابى سريع لقلّة العون والأنصار ، ولكن صيحته ظلت تدور فى سماء الوطن تطن فى أذن المواطنين حتى تبعتها صيحات آخر منه ومن غيره ، فارتفعت الصيحات حتى اخترقت الآذان ومست القلوب ، وأزالت عن الأفئدة خوفها واستردت شجاعته فقامت بالثورة .

وكان البارودى ذا بصيرة ورأى ، فعاش الاستبداد والرجعية واهلها وهادنهم رغبا عنه كما يقول :

اعاشرهم رغما ، وودى لو أن لى

بهم نعما أدعو به فيسارع

ولعله عايشهم ليجد فرصة ينشر فيها رأيه ويجمع الأنصار من حوله ، أو لعله خشى أن يقابل رضا اسماعيل وعطقه بالتخلى عن

(١) محمد عبده : تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ١٢ .

خدمته فيستجلب نقمته أو يثير من حوله الشكوك. وما أكثرها في عهد اسماعيل ، ذلك الذي يجعل النفي والتشريد لمن لا يجوزون رضاه ويأخذ الناس بالظنة ويقتلهم بالشبهة ، أثر البارودي سياسة الانتظار والصبر والملاينة ، ومع ذلك فلم يكن - وهو الشاعر - بمستطيع أن يكتُم الثورة التي تجتاح نفسه ، فكانت تخرج سما في شعره ، وشواظا من نار سخريته وهجائه ، يطلقها على ثالوث الفساد والطغيان وأعدائهم ، ويصليهم بدمه ومكائه ، يصممهم بالعار ويسجل مثالبهم للتاريخ . يهجو نوبار فينشدد فيه قصيدته التي يقول فيها (١) :

وصالك لي هجر وهجرك لي وصل
فزدني صدودا ما استطعت ولا تألو
وكيف أود القرب من متاون
كثير خبايا الصدر شيمته الختل
بك أسودت الأيام بعد ضيائها
وأصبح نادى الفضل ليس به أهل
فما نكبة إلا أنت رسولها
ولا خيبة إلا وأنت لها أصل

وفي اسماعيل صديق المفتش وزير مالية اسماعيل يقول (٢)
من قصيده في هجائه :

يا سابق الشيطان في فعله
أمننا كفى أنك من حزبه ؟

(١) دلتني كريمتا الشاعر الفاضلتان فاطمة ومشيرة على أن هذه القصيدة قيلت في نوبار والقصيدة كاملة - الديوان (الامام) ج ٢ ص ٥٩٦ - ٦٠٥ .

(٢) ذكرت لي كريمتا الشاعر ان هذه القصيدة قيلت في اسماعيل صديق المفتش .

لو لم تكن في الدهر مستوزرا
 ما سارع الناس الى سبه
 أنت الذي لولا خمبول الوري
 ما نام من امن على جنبه
 يفعل بالناس افاعيله
 ولا يخاف الله من ذنبه (١)
 ويمتد هجاؤه الى الذين يعاونون في الحكم جميعا ويذم سيرة
 رجال الحكومة الاستبدادية على عهد اسماعيل فيقول :
 وأناس صـحبت منهم ذئابا
 تحت أثواب ألفسة ووداد
 أظهروا زخرف الخداع ، وأخفوا
 ذات نفس كالجمر تحت الرماد
 فترى المرء منهم ضاحك السـ
 ن وفي ثوبه دماء العبياد
 حكموا مصر وهي حاضرة الدنـ
 يا وقد سما حسنهما في البوادي
 أصبحت بعددهم جحيما وكانت
 جنة ليس مثلها في البلاد
 وقعوا بين معدنها وقراها
 بضروب الفساد وقع الجراد
 في زمان قد كان للظلم فييه
 أثر النار في هشيم القتاد (٢)

وفي ٨ يونيو ١٨٧٣ صدر فرمان الجامع وفيه تغير أسلوب
 وراثة العرش في مصر فأنحصر في الابن الأكبر ، وتحددت به ولاية

(١) هذه الابيات لم يسبق نشرها .

(٢) الابيات الاربعة الاخيرة لم يسبق نشرها .

العهد في محمد توفيق بن اسماعيل ، وعين محمود سامي البارودي كبيرا لياوران ولي العهد (١) الجديد ، وتهيأت بذلك فرصة للبارودي عرف فيها توفيق عن قرب ، ووضع يده على مفاتيح شخصيته التي تحكمت فيها عوامل كثيرة سببتها نشأة توفيق وعلاقته بأبيه فأخرجت منه انسانا ضعيف الرأي مترددا قليل الشجاعة والحزم (٢) ، وكان قد ولدته إحدى جوارى اسماعيل ، فلم يعامله المعاملة الخليفة بولي عهده ، وكانت نشأته بين سيدات الحريم أكثر مما هي بين الرجال ومن ثم نشأ ضعيفا لا يسهه الا الاذعان لكل ارادة أقوى من ارادته ، ولكنه يسعى بعد ذلك لتنفيذ ما يريد بالطرق الملتوية الخفية (٣) . عرف البارودي عنه كل ذلك خلال الشهور الثلاثين (٤) التي قضاها كبيرا لياورانه - فلم يحمل له احتراما طوال حياته . وفي أكتوبر ١٨٧٥ نقل البارودي كاتب السر الخاص (سكرتيرا) لاسماعيل (٥) .

عاد البارودي الى معية اسماعيل فوجده وكأن الشيطان يتخبطه من المس بعد أن بلغت ديونه ٩٦ مليوناً من الجنيهات رهن فيها كل موارد الدولة ، وأحاط به الدائنون من كل مكان وشددوا عليه قبضة السداد ، وهددته الدول التي ترعى مصالح الدائنين بأشهار افلاسه فارتكب الجريمة الوطنية الكبرى ، وباع أسهم مصر في قناة السويس (نوفمبر ١٨٧٥) لانجلترا فمهد الطريق أمامها للاحتلال الذي أصبح بعد ذلك أمرا لا مفر منه .

-
- (١) مرائي الشعراء ص ١١ ، مقدمة الديوان شرح الامام .
(٢) عبد الرحمن الرافعي : الثورة العربية والاحتلال الانجليزي (١٩٤٩) ص ٢٢ .
(٣) التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر ص ٩٥ - ٩٦ ، الرافعي الثورة العربية ص ٢٢ .
(٤) مرائي الشعراء ص ١١ .
(٥) المصدر السابق .

وتتجالف القوى المستنزفة للمالية المصرية لتدفع بها الى
الافلاس فبينما ترزح البلاد تحت ديون اسماعيل ، وينتهك التدخل
الأجنبي استقلالها - تطلب تركيا نجدة من الجيش المصرى لتعينها
على ثورة الهرسك وبلاد الصرب ، ولا يجد اسماعيل فى خزائن الدولة
الخواوية ما يعد به الحملة ، فيوفد البارودى الى الاستانة برسالة
خاصة عل السلطان يقبل اعتذار مصر ويعفيها من العبء الجديد ،
ويقيم البارودى فى الاستانة ثلاثة اشهر (١) ثم يعود الى مصر يحمل
تهديد السلطان ووعيده ، ويفرض اسماعيل على الشعب المرهق
« ضريبة الجهاد » وتسافر الحملة لتقدم الشبيبة المصرية ضحايا
لحرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، « ويوفد البارودى الى الاستانة
برسالة أخرى تختص بالفتنة البلغارية وخروج الجبل الأسود على
تركيا (٢) ، ويتعرض البارودى فى هذه الرحلة للموت (٣) ولكنه
ينجو ليعود الى الوطن فيجد ما هو أشد على نفسه من حمام يؤده ،
وجده وقد زحف عليه أخطبوط الاستعمار الأوروبى سافرا فى
صورة الرقابة الثنائية من فرنسا وانجلترا (نوفمبر ١٨٧٦) وفى
القصر وجد نيرون مصر ينقض على صحبه وأوليائه ، ليتخلص
منهم فى جنون الخائف ، وفزع المستبد الذى ضعف أمره ، وضيق
عليه الخناق فانكشفت جرائمه ، ولا يجد له مهربا الا فى القضاء على
شركائه ثم القاء التبعة عليهم فلا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم (٤) .
ويعاف البارودى القصر ومن فيه ، ويكره العمل الذى يربطه به
فيطلب العودة الى الجيش .

(١) مرآى الشعراء ص ١١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الجوائب المصرية : ١٩٠٤/١٢/١٥ عدد ٥٧٢ .

(٤) اغتيال صديقه اسماعيل المفتش فى نوفمبر ١٨٧٦ .

فيض المعركة :

وتواتى البارودى الفرصة ليعود الى الجيـش فى اعلان الروسيا الحرب على تركيا (ابريل ١٨٧٧) وتستنجد تركيا بمصر فتنبجدها بحملة من اثنى عشر ألف مقاتل (١) ، وينضم البارودى الى الحملة قائدا من قوادها لعل الحرب تفسل آلام نفسه او تنسيه ما حل بوطنه من الذل والهوان ، وما ينزل به من عذاب على يد جلاديه « رجال الحكومة الاستبدادية » .

أقلعت الحملة فى مايو ١٨٧٧ الى الاستانة ثم الى « وارنة » على البحر الأسود (٢) ولا يلبث الفارس حتى يجد نفسه على أرض المعركة قاب قوسين من اللقاء الذى يتوق اليه ، يصحبه فيه « حسام وطرف أعوجى ولهزم » يأخذ البارودى فى الاستعداد للمعركة فلا يترك لعنصر المفاجأة منفذا ، ولا يهدأ حتى يعد لكل أمر عدته ، ثم يأوى الى خيمة القائد فيسمع نشيجا يحسول المرافق أن يكتمه حتى لا يسمعه قائده ، وتهتز عواطف الفنان فيه ، وتستثار شاعريته ، وتسرع اليه ربة الشعر بقيثارها ليفنى ، فيبدأ بصلاة وابتهاال قربانا للوطن البعيد ، ولمغانى حبه وصباه فى « روضة المقياس » تلك التى ما ان فارقتها حتى أخذ يحن لها شوقا ودون مزارها مسالك يأويها الردى ومنادح ، ويكشف عما يتنازعه من شرف الواجب والحنين الى الوطن ، فيبعث للوطن بالدعاء ويؤثر البقاء ليعدو على جمع العدا فيكافح ، ويرسم لوحة لأرض المعركة بعد أن عسكر فيها بجيشه ثم يحدد ملامح الصورة فيضع فيها تنظيم الجيش للمعركة المقبلة بتفاصيلها فيقول :

(١) قدر محمود فهمى الحملة بخمسة وعشرين ألفا فى كتابه البحر الزاخر

ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) ذكرت الجوانب المصرية فى عددها ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ أن مركزه كان

فى « وارنة » ثم فى « رسجق » وآخر فى « فيلييه » .

مدافعنا نصب العدا ومشساتنا
 اقيام تليها الصافنات القوادح (١)
 ثلاثة اصناف تقيهن سساقه
 صيال العدا ان صاح بالشر صائح (٢)
 وينثنى الى بكاء الرقيق ، ذلك الذى يخشى عليه من الردى وهو
 يعرف أن البارودى القائد يتقدم جيشه فى المعركة ، والعدو يستهدف
 القائد بالاصابة فيسدى اليه النصح ، ويحكى البارودى ما دار بينه
 وبين الرفيق فيقول :
 ولم يك مبكاه لخوف وانما
 توههم انى فى الكريهة طائح
 فقال اتشد قبل الصيال ولا تكن
 لنفسك حريبا ، اننى لك ناصح
 ولا راي الا أن تكون بنجوة
 فانك مقصود المكانة واضح
 فقلت تعلم انما هى خطه
 يطول بها مجد ، وتخشى فضائح
 فان عشت صافحت الثريا وأن أمت
 فان كريما من تضم الصفائح
 وبعد اربعة أشهر (٣) يصل الجيش المصرى الى مقاطعة
 « سرنسوف » بأوكرانيا ، ويقبل « عيد الفطر » وكان البارودى
 قد فقد الشعور بحساب الزمن بعد أن استحوذت الحرب على قلبه
 وعقله ، وأعطاه كل نفسه ، ولم تعد الحياة عنده الا صبحا يفر
 فيه على الأبطال وليلا يأوى فيه الى الأدغال (٤) ، وتستفرقه المعارك
 فلا يدرى من أمر « العيد » شيئا حتى يخبره به مرافقوه ، وفجأة

- (١) الصافنات القوادح : الخيول ، الاصيله التى بلغت الخامسة من عمرها .
 (٢) ساقه الجيش : مؤخرته .
 (٣) اكتوبر ١٨٧٧ شوال ١٢٩٤ .
 (٤) الديوان (الجارم) ج ١ ص ١١٢ .

ينحسر عنه لثام الفارس ، ويظهر من تحت السرد الأب الحنون
والحبيب المشوق والصديق والمواطن ، وتترى الذكريات اليه من
كل جانب : ذكريات الحمى والأهل والصحاب ، وتهجمه الغربة
والوحدة بالأمهما وعذاباتهما في بلاد لا صلة تقرب بينه وبين أهلها .
يمور كل ذلك في عواطفه ، وتضغط الآلام على نفسه ثم تجسد
المتنفس في لسانه فيحكى ، وينشد ما فعلت به ذكريات العيد
وهو غريب فيقول :

ألا أيها اليوم الذى لم أكن له

ذكورا ، سوى أن قيل لى هو عيد

أتسألنا لبس الجديد سفاهة

وأثوابنا ما قد علمت حديد

ثم يصف البلاد الذى يقضى بها العيد مقاتلا ومحاربا وصفا
تخالها مائلة لك فيه ، ويصور الحركة والصورة بحيث تتوهم
أنك ترى وتسمع فيقول :

بلاد بها ما بالجحيم ، وأنما

مكان اللظى ثلج بها وجليد

تجمعت البلغار والروم بينها

وزاحمها التاتار ، فهى حشود

إذا راطنوا بعضا سمعت لصوتهم

هديرًا تكاد الأرض منه تميد

وبين الذكريات الحلوة والواقع الموحش تظهر اللفتة الى العودة
وأمنية اللقاء فيقول :

فمن لى بأيام مضت قبل هذه

بمصر ؟ وعيشى لو يدوم حميد

عسى الله يقضى قربة بعد عودة

فيفرح بالقيس أب ووليد

ويكتب البارودى الى الصحب والرفاق فى الوطن عل حديث

الشوق منهم يطفىء لوعة الوجد عنده ، غير أن البريد يتأخر ،

ويمضى زمن لا يأتيه فيه قادم بشرى ، ولا يعطف عليه بريد ،
فيؤرقه القلق ، ويبرجه الشوق ، فيغنى آلامه ومواجهه ، ويكتب
الى صديقه واستاذة « حسين المرصفي » . ولكن كتبه تشوى
شعرا وليس لها رد ، فيهرع البارودي الى قيثارته ، ينشد
عليها عاتبا ومغاضبا ، ويفيض في وصف احساسه وشوقه الى
الوطن حتى ليكاد المرء يسمع فيها صوت « الوابور » ينعب بالبين
والفراق ، ويلمس من الفاظها لوعة النأى وحرقة الاغتراب ،
ويحسن فيها القلق والترقب للبريد المتأخر ، ويرى صورة متحركة
للمعركة مع أمة الروس والبلقان في قوله :

أدور بعيني لا أرى غير أمة
من الروس والبلقان يخطئها العد
جواث على هام الجبال لفارة
يطير بها صوت الصباح اذا يبدو
اذا نحن سرنا صرح الشر باسمه
وصاح القنا بالموت ، واستقتل الجند
فأنت ترى بين الفريقين كبة
يحدث فيها نفسه البطل الجعد (١)
اذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خلتهم
بحورا توالى بينها الجـزر والمد
وبين كل ذلك يظهر البارودي الفارس وسط المعركة :

صئول وللأبطال همس من الونى
ضروب وقلب القرن في صدره يعدو (٢)
فما مهجة الا ورمحي ضميرها
ولا لبة الا وسيفي لها عقد

(١) الكبة : الحملة يحملها الجيش ويندفع بها على عدوه .

(٢) الونى : الضعف والاعياء . القرن : من يقاوم وهو نظير في الشجاعة .

وظلت الحملة المصرية تحارب نحو عام في بلغاريا واکرانيا بشجاعة وجسرة وأبلى الجنود المصريون بلاء حسنا ، حتى وضعت الحرب أوزارها ، واضطر الترك الى عقد معاهدة « سان استفانو » المشهورة في مارس ١٨٧٨ ، وأنعم على البارودی برتبة اللواء والوسام المجیدی من الدرجة الثالثة ونیشان الشرف (١) لقاء ما قدمه من ضروب الشجاعة وألوان البطولة .

واستيقظ المارد :

ترك البارودی تركيا وهي تجر أثواب الهزيمة في حربها مع روسيا ، وعاد ليجد في مصر نصرا مؤزرا . . نصرا حققته الصحافة والأدب في إيقاظ الرأي العام وتجميعه وتحريكه ، ويسمع في ندوته الأدبية أخبار ذلك النصر ، ويحكي له صديقه « محمد عبده » قصة التطور فيقول : « منذ نشبت الحرب بين تركيا والروسيا وجد الناس من أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا ، فتطلعوا الى ما يرد من أخبار الحرب وسهلت كثرة الأجانب في البلاد ورود الجرائد الأوروبية الى طلابها من الأوروبيين ومهدت مخالطتهم للعامة والخاصة الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد العربية التي كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على ما لا يهم ، فانطلقت في إيراد الحوادث ونشرها . . وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية في مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتها عن اصلاح الأفكار ، وتهذيب الأخلاق ، فتسابق الى ذلك الكتاب ، وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن

(١) مرائی الشعراء ص ١٢ .

الناظر فيها أنه في عالم خيال ، أو أرض غير أرض الخيال (١) »
ثم يسمع البارودى تلك المناقشات تدور جهارا في المجالس
والمنتديات ، ولكنها تتحاشى ذكر اسماعيل بنقصد أو التعرض
له بدم على الملأ ، فالخوف منه مازال يعقد الألسنة « الطاغية
في كل مكان ، وهو لا يرحم مصرى يرفع راية العصيان » وينصت
البارودى الى الهمس يسرى في المجالس الخاصة حول الدكاتاتور
الذى أذل المصريين بظلمه بينا يركع اليوم هوانا وضعفا أمام
« لجنة التحقيق الأوروبية » ، وقد تغفل نفوذها في البلاد ،
وأصبح سلطانها فوق كل سلطان . ويتوقع البارودى بلحاظ
رأيه نهاية اسماعيل ، وترى بصيرته - ولها من وراء الغيب
أذن سمیعة وعین ترى مالا يراه بصير - قرب الخلاص من حكمه ،
ويذكر يوم نادى الأحرار ليتعجلوا هذه النهاية بالثورة المسلحة
فلم يستمعوا النداء ، واضطر وقد خذله قومه أن يغمض عينه
على القذى ، فيشكو لقيثارته ويقول :

لعمري لقد ناديت لو أن سامعا

وتوهت بالأحرار ، لو أن منقذا

وطوّفت بالآفاق ، حتى كأنى

أحاول من هذى البسيطة منقذا

إذا ما رأيت الشيء في غير أهله

ولم أستطع ردا ، طرفت على قذى

ونجد البارودى في هذه الفترة يمزج دعوته الى الثورة للإصلاح
بآماله العراض ، ويكشف عن مكان المجد الذى تنازعه اليه نفسه
حتى يخرج أمتة من المحنة التى تطحنها ويقودها الى المجسد
السياسى ويخلصها من ظلمة الجور فى قوله :
فحتى متى يا دهر أكنم لوعنة

تكلف قلبى كلفة الريح بالشذا ؟

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٣٧ - ٣٨ .

ألم يأن للأيام أن تبصر الهدى
فتخفض مافونا ، وترفع جهبدا
إذا لم يكن بالدهر خيل لما غدا
يسير بنا في ظلمة الجور هكذا

وفي أبريل عام ١٨٧٨ يعين البارودى « مديرا » للشرقية (١)
فيمكث بها أربعة أشهر ، يرى فيها رأى العين صنوف العذاب
وألوان الأرهاق التى يعانىها الفلاح من أعوان الخديو تارة ومن
مندوبى التحصيل للرقابة الثنائية تارة أخرى ، ثم يعود البارودى
الى القاهرة فى سبتمبر ١٨٧٨ بعد أن عين رئيسا لضبطيتها
(محافظا) (٢) ، ليجدها تتأجج برد الفعل الذى أحدثه تأليف
وزارة مختلطة (أغسطس ١٨٧٨) ، ويمور رأى العام فيها بثورة
تكسر آخر قيد يمنع المارد من الانطلاق . واسماعيل سفاح الشعب
بالأمس يجأر اليه ويستنجد به اليوم ليقف معه فى محنته ،
وليشد أزره أمام النفوذ الأجنبى الذى يحفر له قبره ويدفعه
الى نهايته المحتومة . « فيشعر الشعب بقوته وحاجة الحاكم
اليه ، ويتنبه الرأى العام فيه الى أنه يستطيع أن يقف الظلم
ويطالب بحقوقه ، وأن من حقه مراقبة الولاة والحكام ، ورفع
صوته بنقدهم (٣) » .

عبأت الوزارة المختلطة بتكوينها المهين للكرامة القومية وبأعمالها
المثيرة للخواطر شعور الشعب بالكراهية نحوها من أول يوم لها ،
وزادت الكراهية حين ظلت تمعن فى اذلال الأمة وتحابى المصالح
الأجنبية حتى لم يبق للصبر منزع فتفجرت الثورة عليها فى صفوف
الجيش ، وخرج الضباط يستردون كرامة الأمة ويطيحون بنوبار
ووزارته الأوروبية . ظهرت بوادر الخطر واضحة فى الانبعاث

(١) مرائى الشعراء ص ١٥ .

(٢) مرائى الشعراء ص ١٥ .

(٣) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٢١٩ .

الوطنية الجديدة بين الأمة على أصحاب المصالح المشتركة من الرجعيين والاستعمار فأسرعوا الى الاتفاق حتى يكونوا جبهة يقفون بها تيار الشعور الوطنى قبل أن يجرفهم جميعا ، وامتصوا دفعة الكراهية وفورة الثورة بتغيير الواجهة والمظهر الخارجى فعين محمد توفيق ولى العهد رئيسا لمجلس النظار (مارس ١٨٧٩) ولكن توفيقا لم يكن بأكثر وطنية من نوبار ، ولم تكن وزارته بأحسن حالا من الوزارة السابقة ، بل كانت أسوأ منها ، ذلك أنه فوق تعيين الوزيرين الأوربيين مثار الشكوى ومناط الاهانة الوطنية تقرر أن يكون لهما فى مجلس النظار الحق فى وقف كل عمل لا يوافقان عليه ، وعادا أقوى مما كانا عليه وصارا صاحبى الكلمة النافذة فى شئون الحكومة جمعاء ففقدت الوزارة صبغتها القومية ، وفضت مجلس شورى النواب بعد خمسة أيام من تشكيلها فدل مسلكها على أنها تبغى حكم البلاد بارادة المستعمرين !! .

نداء الثورة :

رأى الشعب فى توفيق دكتاتورا تحت التمرين لن يلبث حتى يتمثل فوق خضوعه للنفوذ الأجنبى طغيان أبيه وسيرته الأولى ، فاضطربت الأفكار وثارَت الخواطر وقويت فى النفوس فكرة « الكرامة القومية » ، واتجه الرأى العام الى مناقشة السبل التى تخلصه من التدخل الأجنبى كله واسقاط الوزارة الأوروبية الثانية ، وأخذت مراكز القوى الوطنية كلها تموج بالغضب والثورة ، وتحرك فى اتجاه متشابه ، ولكنها كانت يعوزها الربط والتجميع حتى تتكتل فى حركة واحدة توجه بها رأس الحربة الى قلب الرجعية والاستعمار ، ذلك لأنها افتقدت الزعيم الذى يمكن أن يقودها فى ثورة تستأصل الفساد وتطهر الوطن من أمدائه الرجعيين وطلائع الاستعمار . . . الزعيم الذى ترضى عنه صفوف القوى الوطنية لغيرته القومية وحميته الوطنية ومكانته وسمعته بين مواطنيه .

وكان البارودى قد أحس بالأمال قد نيطت به ، وبالأنظار قد

تطلعت اليه فخرج على الأمة « بندااء الثورة » يبدؤه فيقدم نفسه الى مواطنيه ليعرفوا فيه الأمير الحق والقائد المرجو ، وليقارنوا بينه وبين من في دست الحكم ، فهو الذي وهب نفسه للمجد وطلابه حتى بلغ منه قممه السماء ، وأعد للحياة سيفه ورأيه وهمته التي لا يشغلها الصغير من الأمور ، وهو الشجاع الذي لا يقهر ، والحذر الذي لا يخدع ، وقد علمته التجربة ، وكفه حلمه عن التهور ، فما كشف قناع الحلم عن سفه ، ولا مسح جبين العز من خجل ، ثم يشرح الأسباب التي يدعوهم من أجلها الى الثورة ، وكيف استهدفهم بالأذلال والقهر حكام بلغ بهم الفساد والذلة لطلائع الاستعمار درجة عافتهم بسببها كراسي الحكم وكادت أن تلفظهم :

من كل وغد يكاد الدست يدفعه

بفضا ويلفظه الديوان من ملل (١)

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت

قواعد الملك حتى ظل في خلل

واصبحت دولة الفسطاط خاضعة

بعد الأباء وكانت زهرة الدول

ويضرب على أوتار العزة والكبرياء في مواطنيه فيصور ما أصاب

بلادهم حين تسلط الطفافة ، وتحكموا فيها بظلمهم ففسدت

الأخلاق وتخبط الناس في ظلمات اليأس ، ثم يستثيرهم ويشعل

لهيب الكرامة فيهم ليصبوا جام غضبهم على ظالمهم ويندفعوا الى

الثورة فيقول :

لم أدر ما حل بالأبطال من خور

بعد المراسي وبالأسياف من فلل

لا يدفعون يدا عنهم ولو بلغت

مسن العفافة من جبن ومن خزل

(١) الدست : فارسية تستعمل للمجلس والديوان .

خافوا المنية فاحتالوا وما علموا
ان المنيسة لا ترتد بالحيسل
هيات يلقي الفتى امنا يلبد به
ما لم يخض نحوه بحرا من الوهل (١)
ثم يصرخ فيهم داعيا الى الثورة حيث يقودهم فيها الى الحرية
والاستقلال ويرد لهم حقوقهم الضائعة وكرامة الوطن المسلوقة
فيهتف :

فبادروا الامر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل (٢)
وقلدوا امركم شهما اخا ثقة
يكون ردا لكم في الحادث الجلل
ولا تلجوا اذا ما الراى لاح لكم
ان اللجاجة مدعاة الى الفشل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا
لكل منتزع سسهما ومختسل
لا تتركوا الجدد او يبدو اليقين لكم
فالجدد مفتاح باب المطلب العضل (٣)
حتى تعود سماء الأمن ضاحية
ويرقل العسل في ضاف من الحل
ولكن نداء البارودي الى الثورة يذهب كما ذهب اخ له من
قبل لا يرتد اليه صده وان اختلف السبب وتغيرت الظروف ، ذلك
ان الرجعية قد أحست بمواقعها تتزلزل من تحتها أمام هدير الأمة ،
فهادنت لتستعد ثم تنقض ، وعمدت الى الخديعة والمراوغة لتمنيح

(١) الوهل : الفرع .

(٢) الشكالة : الوثاق بين يدى الدابة ورجلها : وشكالة الريث قيد البطة
والتأخر .

(٣) المطلب العضل : المستفلق .

الدفع الثورى ، وتفتيت قواه ، وتغيير اتجاه الحركة الوطنية .
نفذت الى موقع الثوار والمطالبين بالدستور حين قبل اسماعيل
« ولى النعم » اللائحة الوطنية وكلف « محمد شريف » بتشكيل
الوزارة فرضوا وشكروا ، وتسلمت كذلك الى « الحزب الوطنى
الحر » بأن هرع توفيق - دكتاتور الأمس والمعتدى على مجلس
النواب بفضه - الى الحزب يتقرب الى زعمائه ويعلن انضمامه
تحت لوائه ، ويتصل بجمال الدين وينضم الى محفله الماسونى ،
ويجذب آراءه فى الاصلاح (١) ، « وصار جمال الدين صلة قوية بينه
وبين المصلحين الذين وعدهم توفيق مرة بعد أخرى بأنه متى
وصل الى العرش فسوف لا يحيد قيد شعرة عن جادة الحكم
الدستورى (٢) » .

أسلوب الرجعية :

كان أسلوب توفيق فى خداع القوى الوطنية ومجاهرته بالأصلاح
حين يتولى العرش ، ووعوده بأقامة حياة دستورية ، أسلوبا يدل
على دهاء شديد ، فقد استطاع أن يخول تيار الكراهية عنه ،
ويستبدله بالتقدير والمودة ، وتطلعت اليه القوى الوطنية على أنه
الأمّل المرتقب فسعت الى عزل أبيه (٢٦ يونيو ١٨٧٩) وأقامته
على عرش مصر ليأتى الاصلاح على يديه (٣) . « ورحب المصلحون
جميعا بارتقاء توفيق منصة العرش ، واعتبروه دليلا على حسن
الطالع ، وتطلعوا الى العصر الجديد بثقة الرجال الذين خطوا
خطوة فى سبيل تحقيق آمانيهم » (٤) . واستطاع توفيق أن ينفذ
الى البارودى أيضا ، وقد أدرك أن فى اكتسابه الى صفه كسبا لأرض

(١) تاريخ الأستاذ الامام : ج ١ ص ٤١ .

(٢) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٥ ، تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ١٣٦ .

(٣) جريدة مصر : عدد ٤ فى ٢٥ يوليو ، ٧ أغسطس ١٨٧٩ .

(٤) بلنت : التاريخ السرى : ص ٩٥ .

جديدة يدعم بها موقعه ، وينال تأييدا شعبيا من القوى الوطنية
التي تثق فيه فعينه وزيرا للمعارف والأوقاف (١) . وحسب
البارودى كما حسب غيره من القادة الوطنيين أن توفيقا مخلص
فى دعواه الإصلاح ، وفى اقامته حياة دستورية سليمة ، وقد خيل
للمصريين الوهم الذى أحالته الخديعة يقينا أن عهد الاستبداد
الفردى قد زال الى الأبد ، وأن الحكم الدستورى قد أظل البلاد .
ونال البارودى نصيب كبير من هذا الوهم فأنشد مطولة يحيى فيها
توفيقا « ويهنئه بجلوسه على الأريكة الخديوية » ، ولعل خاطرا
طاف به مما يعرفه عن حقيقة توفيق فاستدرك « وذكره بما كان
وعده به من انشاء مجلس نواب الأمة المصرية (٢) » وهو وعد مؤيد
من الشعب ، ومن الله فقد أوصى به الاله نبيه وشاورهم فى الأمر ،
وجعله قاعدة الحكم فى الاسلام وأمرهم شورى بينهم ، وسجل
البارودى عليه أمره السامى باتخاذ الشورى قاعدة لحكمه ، وكأنه
قد أصبح أمرا واقعا ، وقانونا مقضيا لا مفر من تنفيذه ، ومن أجل
ذلك كله فهو يهنئه ويمدحه ثم يقول :

من المشورة ، وهى أكرم خطبة
يجرى عليها كل راع مرشد
هى عصمة الدين التى أوصى بها
رب العباد الى النبی محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه
ومن استهان بأمرها لم يرشده
أمران ما اجتمعا لقائد أمة
الا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم
شورى ، وجند للعدو بمرصد

(١) فى وزارة محمد شريف : الوقائع المصرية ٥ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) الديوان (الجارم) ج ١ ص ١٣١ .

هيئات يحيا الملك دون مشورة

ويعز ركن المجد ما لم يعمد

وبينما الشعب يحتفل بمكاسبه القومية كانت القوى الرجعية تقوى مواقعها ، وتنظم صفوفها ، فأخذ توفيق ولما يمض شهر ونصف شهر على اعلان منشور الدستور ينقض وعوده ، وينقض على مواقع القوى الوطنية فرادى ، ففي اليوم الذى اطمأن فيه على عرشه بوصول فرمان السلطانى ، اعلان رغبته فى التخلص من « محمد شريف » ، فاستدعاه ووزراءه وطلب اليه الاستقالة بعد أن رفض البرنامج الدستورى الذى أعده (١) ، وحين شعر « الحزب الوطنى الحر » بالخطر على الآمال الدستورية ، وأخذ أعضاؤه يشحنون العواطف ويعبئون الراى العام بخطبهم وأحاديثهم ليطالب الشعب بتنفيذ الدستور ، قبض على زعيمه جمال الدين الأفغانى (٢) فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ ونفى من البلاد . وشرذ أنصاره ومريده . وحددت اقامتهم فى بلادهم وقراهم بعيدا عن العاصمة . ومنعوا من الحديث فى السياسة .

بدأت الرجعية تحتل مواقع جديدة على حساب المكاسب الوطنية فشكل توفيق فى ١٨/٨/١٨٧٩ « مجلسا عاليا » ينعقد تحت رئاسته « بعد أن صار لغو مجلس النظار وأبطاله (٣) » . وتشكيل المجلس على هذه الصورة أصاب الأمة بخيبة أمل كبرى فى توفيق ، وأظهره على حقيقته ، استبداديا يهوى إعادة سيرة أبيه فى الحكم ، ولكن الذين من خلفه يستند اليهم ، ويستمد منهم قوته وهم وكلاء الدول خافوا أن يظهر فى أفق مصر اسماعيل آخر يخرج عن طاعتهم ومن ثم كان عليهم أن يبحثوا عن عميل آخر يسمع لهم

(١) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٩٢ ، مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٠ .

(٢) أمر النفى منشور بالوقائع المصرية ١٨٧٩/٨/٣١ وبالأهـرام

فى ١٨٧٩/٨/٢٨ .

(٣) الوقائع المصرية فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ .

ويطيع يضعونه على رأس السلطة الفعلية في البلاد يكتبون به الشعور الوطنى ويضربون به الخديو ، وفى هذه التفرقة يسود نفوذهم ويقوى ، وكان « مصطفى رياض » العميل المثالى ، فقد كان يمعن فى الاذعان لوكلاء الدول ، ويهوى الحكم المطلق هواية تسلطت على نفسه ، ولم يكن توفيق يملك الا الاذعان ، فأصدر قرار تعيينه رئيسا للوزراء فى ١٨٧٩/٩/٢١ .

وتوالت الضربات المفاجئة على المواقع الوطنية . فأصبحت صفوفها بدع شل قدرتها على المبادرة والعمل ، وأخذت فى التفرق والانحسار أمام المد الرجعى وتسلى اليأس الى بعض القلوب ، وانطفأت فيها شعلة الأمل فى اصلاح البلاد ، فاستكانت وضعفت ، وواجهت الحركة الوطنية فى مصر أخرج لحظاتها ، وكان لابد من ظهور عناصر قوية تتسلم القيادة ، وتعيد تنظيم الصفوف المتفرقة وتطلع بخطة جديدة تبعث الاطمئنان فى القلوب الفرعة ، وتملك من السيطرة على النفوس ومقومات الزعامة ما تستطيع به أن تقود البلاد فى مقاومتها ضد مد الطغيان ، وكفاحها فى سبيل الحياة الدستورية .

الولاء لحركة الضباط :

والبارودى فى هذه الفترة يترك الدين يأخذون بظواهر الأمور واطارها الخارجى فى مظنة من أمره ، فقد أخذ عليه بعض المؤرخين انه خرج على الاتفاق الذى عقده شريف مع وزرائه - بألا يشتركوا فى وزارة جديدة الا اذا وافق الخديو على البرنامج الدستورى الذى أعده شريف وأن يكون هو رئيس الوزراء - وانضم وزيرا للأوقاف والمعارف فى المجلس العالى الذى شكله الخديو برئاسته واشترك فى وزارة رياض وزيرا للأوقاف وهو يعلم نزعته الاستبدادية ، وبفضه للشورى ، وخضوعه المزرى للنفوذ الأوروبى ولكأنى بهم يهتمون الرجل بالانضمام الى صفوف الرجعية وبالانحراف عن

المبادئ الدستورية وتأييد الحكم المطلق ، ولكننا اذا محصنا الحقائق التاريخية من حياة البارودى الأولى والأخيرة وتتبعنا الدلائل السابقة والشواهد اللاحقة من أعماله فى الحركة الوطنية لناينا به عن كل مظنة ، وابتعدنا عن كل مأخذ بسبب اشتراكه فى الوزارتين : فالبارودى لم يقبل الوزارة ليكون من أنصار توفيق وهو انذى يعرفه ظلا للاستعمار ، ضعيف الشخصية ، ولو أنه كان من أنصاره لما كان أول مناد بخلعه ، ولما ناله بعد ذلك الضر والأذى من جراء ثورته عليه ، وكذلك لم يدخل البارودى وزارة رياض انحرافا عن المبادئ الدستورية وهو من أشد المناصرين لها حماسا فى « الحزب الدستورى » (١) ، وفى « الحزب الوطنى الحر » وفى « المحفل الماسونى » (٢) ، ومن أكبر الدعاة لها بين الناس فى شعره الذى تتناقله الألسن وتردده المجالس وينشد فى المنتديات ، وقصيدته فى توفيق تجعله بحق « شاعر الشورى » . وفوق ذلك كله فالبارودى يعتبر أبا الدستور فى مصر القرن التاسع عشر ، فالدستور الذى وضعه وهو رئيس للوزراء عام ١٨٨٢ يعد اكمل الدساتير فى مصر ما قبل ثورة ١٩٥٢ ، ولم تنل البلاد فى ماضيها دستورا أكثر تحقيقا للآمال منه . وفوق ذلك فهو فى الوزارتين « قد اشترط للاشتراك فيهما أن يحتفظ بالاستقلال فى كل ما يخص وزارته (٣) » ، ولم يكن منصب الوزارة غاية آماله فلما بلغه عض عليه بالنواجز ونسى فى سبيله مبادئه ، فأمال البارودى كانت فيما وراء الوزارة ، بل كانت كما يقول أحد معاصريه « أوسع من رحاب مصر » (٤) .

ولعل الذين أخذوا على البارودى موقفه هذا وقعوا تحت

(١) بلنت : التاريخ السرى : ص ٩٩ - ١٠١ .

(٢) انظر ص ٧٣ ، ٨٢ من الكتاب .

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٦ .

(٤) يعقوب صروف : المقتطف ج ١ مجلد ٣٠ فى ١٩٠٥/١/١ ، جورجى

زيدان : تاريخ مشاهير الشرق ج ٢ ص ٣٠١ .

تأثير « الولاء » من البارودى لحزب شريف الدستورى وقد كان من انصاره ، وأغلب الظن أن « الولاء » نفسه - لو علموا - هو الذى دفع بالبارودى الى أن يخرج على اتفاق شريف ، وأن يقبل العمل فى مجلس الخديو وفى وزارة رياض ، ولكنه ولاء لجماعة وطنية أخرى تعمل فى سرية وتكتم وهى « تنظيم الضباط بالجيش » .

نبتت البذور الأولى لحركة الضباط بالجيش فى حرب الحبشة (١٨٧٥ - ١٨٧٦) بين من بقى من الضباط المصريين الصغار الذين عادوا وقلوبهم تفيض بالمرارة والألم ، وقد تركوا من خلفهم ألوف الضحايا من اخوانهم الجنود والضباط (١) ، أودت بهم القيادة الخرقاء وسوء التدبير ، وجبن قادة الحملة وجهلهم المطبق بفنون الحرب وإدارة المعارك ، وخيانة أركان الحرب الأمريكين الموظفين بالجيش المصرى (٢) واستطاعت حركة الضباط أن تثبت وجودها كقوة سياسية حين عبأت المشاعر ، وسيطرت بالتوجيه على نحو ٦٠٠ ضابط ولقيف من طلبة الكلية الحربية ، ونحو ألفين من الجنود ، فقاموا بالمظاهرة العسكرية التى أسقطت الوزارة المختلطة (٣) (١٨٧٩/٢/١٨) ، ولم يكن ليغيب عن فطنة الدكتاتور الخسذر اسماعيل أن المظاهرة لا يمكن أن تكون وليدة المصادفة ، وعرف بخبرته أن من ورائها حركة منظمة ، فأمر بأن يطلق آلاى حرسه النار على المتظاهرين (٤) ولكن قائد الحرس - وكان من أنصار حركة الضباط - أمر العساكر بإطلاق أسلحتهم فى الفضاء .

(١) بلغ ضحايا هذه الحرب ٨٥٠٠ من الجنود المصريين وبلغ ما أنفق عليها ٣ ملايين من الجنيهات .

(٢) تفاصيل ما دار فى هذه الحرب أنظر أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار ج ١ ص ٣٠ - ٤٣ وكان من العائدين أحمد عرابى وعلى الروبى وفرج عبد العال .

(٣) كشف الستار ص ٤٥ . تفاصيل المظاهرة فى عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٣ .

(٤) كشف الستار ص ٤٥ .

وساورت اسماعيل الشكوك فأخذ في القبض على كل من يظنه من زعمائها ، وحامت الشبهات حول أحمد عرابي وعلى الروبي ومحمد النادي (١) . وجيء بهم أمام مأمور ضبطية القاهرة (المحافظ) محمود سامي البارودي « فأنسوا فيه تأقفا من الظلم والاستبداد ، وميلا الى العدل والدستور (٢) » ، وترك لقاء البارودي في نفوس زعماء الحركة الكثير من الثقة به والاطمئنان اليه واتصل به على الروبي سرا (٣) فوجده معهم على الطريق .

اجتمع قادة التنظيم بالبارودي وكاشفوه بأمرهم وبتقديرهم لعدله ، ولعدم تعصبه لجنسه ، وأرادوه أن يرشدتهم برأيه ، وأن يشير عليهم بوطنيته الصادقة كلما حزبهم أمر ، وله منهم السمع والطاعة ، ولهم عليه النصيح والحماية فقبل ، ورأى البارودي أن إبقاء علاقته بهم سرا أدعى لنجاح الحركة حتى يكون لسانهم - دون أن يعرف أحد - والمدافع عنهم أن أصابهم ضرر ، والمؤيد لمطالبهم لدى الحكومة ، والمندر لهم أن أحاق بهم خطر (٤) ، وتعاهدوا واقسموا على الولاء والوفاء . كان ولاء البارودي اذن لحركة الجيش وليس لمحمد شريف وحزبه ، ومن أجل هذا الولاء قبل أن يعمل مع توفيق ورياض « كضرب من المصانعة كيلا تظهر نواياه الحقيقية ، وحتى تظل مستورة الى حين (٥) » ، وحتى يمنع عن الحركة الضرر ما استطاع ، وينذر زعماءها بالخطر حين يلوح في الأفق ، « فكان ينقل الى عرابي ورفاقه من قرارات مجلس الوزراء ما يتعلق بهم ليحذروه أو يتهيئوا للقائه (٦) » .

(١) المصدر السابق ، البحر الزاخر ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) كشف الستار ص ٤٦ .

(٣) بلنت : التاريخ السري ص ١٠١ .

(٤) بلنت : التاريخ السري ص ١٠٥ .

(٥) شوقي ضيف : البارودي ص ٧٢ .

(٦) مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٠١ .

ويغلب على الظن أن البارودى كان همزة الوصل فى اللقاء بين زعماء حركة الضباط وأعيان البلاد وكبرائها والعلماء ذلك اللقاء الذى أسفر عنه تكوين جمعية سرية أطلقت على نفسها « الحزب الوطنى المصرى » ، واتخذ الحزب مقره فى حلوان بعيدا عن العيون والرقباء (١) ، وتغلغل حركة الضباط فى مراكز الثقل كلها : فى الجيش ، وفى الوزارة وفى القصر وفى المعارضة (٢) ، وأصبحت فى موقف يخول لها حرية العمل والقدرة على المبادرة واختيار الوقت المناسب للمعركة الفاصلة مع الرجعية وعملاء الاستعمار .

وشغلت السياسة ، وحركة الكفاح السرى بارودينا الشاعر فلم يمنح الشعر والأدب شيئا جديدا يسجل مجريات الأحداث اللهم الا وصاياه التى أكثر منها فى هذه الفترة ، فهو يدعو فى شعره الى الاحتراس والحذر وعدم الاندفاع فى الثقة بالناس ولعله كان يرمى الى أن ينبه أعضاء الحركة السرية فى الجيش وفى الحزب الوطنى . أما فى وزارة الأوقاف فكان البارودى نشيظا لا يكف عن العمل « فقد نقح قوانينها وجعلها على قواعد راسخة سليمة ، وسد ابواب الخلل التى كانت الوزارة عرضة له (٣) » . ونهض بمشروعات كثيرة للإصلاح أقام بها العمل فى الوزارة على جادة الطريق السليمة، وكون لجنة من العلماء والمهندسين والمؤرخين وناط بهم البحث عن الأوقاف المجهولة ، مستعينين بكتب التاريخ وحجج الوقف الموجودة بالديوان ، ورد بذلك للوزارة من الأوقاف الضائعة والمغتصبة ما لا حصر له ، وأنشأ الكثير من المساجد والمساكن ، وجمع الكتب والمخطوطات الموقوفة المتفرقة فى المساجد ووضعها فى مكان واحد

(١) كشف الستار ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) كان من زعمائها على فهمى وهو قائد الخرس والمقصود بالمعارضة - الحزب الوطنى بحلوان ، وهو يعارض حكم رياض وتوفيق .

(٣) مرآى الشعراء ص ١٦ .

محفظ هذا التراث من الضياع ولما أخذ « على مبارك » فى انشاء دار الكتب « كانت هذه المجموعة الضخمة النادرة من كتب وقاف أكبر المجموعات التى نقلت إليها (١) . واهتم البارودى بآثار العربية فعين لها لجنة من ذوى الخبرة فجمعوا الكثير منها وضعوها فى مسجد الحاكم حتى يبنى لها دار خاصة (٢) . استطاع البارودى فى هذه الفترة أن يخرج صديقه محمد عبده من عزلة التى فرضت عليه بعد أن حددت اقامته فى قريته عقب نفي مال الدين الأفغانى ، وأن يزكيه لدى رياض كى يتولى تحرير وقائع المصرية (يونيو ١٨٨٠) ، فبدأت به الوقائع والصحافة صرية عهدا جديدا (٣) .

تمية الثورة :

نهج رياض فى حكم الأمة النهج الذى تعلمه من أستاذه اسماعيل ، بتفق مع طبيعته الغشوم ، ويرضى أولياء نعمته : استبداد مطلق ، نظرة الى الشعب بعين الزرارية والاحتقار ، وقسوة وظلم فى حصيل الأموال التى فرضت ظلما على المواطنين لمقابلة التسويات جنسية ، وضرب على الأمة بيد من البوليس والجواسيس . غلق وتعطيل للصحف التى تخط قلما فى نقده أو المس بالمصالح الأجنبية (٤) ، وفصل للموظفين المصريين بغير حساب وتعيين مستشارين والخبراء الأجانب بمرتبات خيالية ، وانقاص لعدد

(١) مرائى الشعراء ص ١٦ - ١٧ .

(٢) مرائى الشعراء ص ١٧ .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ١٣٧ .

(٤) أغلق رياض صحف : مرآة الشرق ، مصر ، التجارة ، مصر الفتاة ، يفورم ، المساجير ، ايجيبسيانو ، وأندل ومطل فترة صحف : الاسكندرية ، حروسة ، الفار والسكندرى . منع من دخول البلاد صحف : النحلة ، نضارة ، أبو صفارة ، القاهرة ، الشرق .

الجيش واحالة ضباطه الى الاستيداع ، ظلمات من الظلم يعيش في أعماقها. الشعب بكافة طبقاته وقواه العاملة وتتجمع في صورة الكراهية والغضب حتى يبلغ السيل الزبي ، وتصل الأرواح الى التراق منذرة بتفجير شعبي تخرج به الأمة الى فجر جديد !!

وكانت القداحة التي أورت شرارة الضوء لهذا الفجر الجديد هي الفروق الطبقيّة والعصبية للجنس التي أخذت تتحكم في مقدرات الضباط والجيش ، فقد كان الضباط الجراكسة والأرناؤود والأتراك يمنحون الترقيات ويوضع زمام سلطة الجيش في أيديهم على حين يبقى الضباط المصريون أسوأ أنواع المعاملة والزرارية والأهمال ، وأمعن كبار الضباط الجراكسة في تعصبهم حتى كادوا يجعلون حرمان الضباط المصريين من الترقى أمرا مشروعا ويقصرونها على بنى جنسهم ، وبدأت الثورة تجتاح قلوب الضباط المصريين جميعا ، وكان أكثرهم قد انضم لحركة الضباط (١) . واجتمع زعماء التنظيم وقرروا العمل علانية لوقف الظلم الذي حاق بهم وأظل البلاد ، « فوافقهم على طلب الأنصاف محمود باشا سامى ناظر الأوقاف . وهو منضم اليهم في أصل الاتحاد ، ويعد واحدا من الأجناد فجعلوه مرجع مشورتهم ومظهر سريرتهم (٢) » .

وأصبح التنظيم وهو يعبر مرحلة التحول هذه في حاجة ماسة الى اختيار زعيم يقود العمل العلنى ضد الطغيان وأغلب الظن ان البارودى لم يناعز أحمد عرابى الزعامة لأنه كان يراه أحق منه بقيادته وقد كرس له سنوات عديدة من عمره وتجمع من حوله اخوانه الضباط ، ومن ثم بايع الضباط أحمد عرابى برياسة الحركة

(١) مصر للمصريين ج ٤ ص ٨٤ . من أعضاء التنظيم السرى أحمد عرابى ، عبد العال حلمى ، على فهمى ، على الروبى ، محمد النادى ، محمود فهمى ، محمد عبيد ، أحمد عبد الغفار ، الفى يوسف ، خضر خضر ، على عيسى ، أحمد فرج ، يوسف فهمى وغيرهم أنظر محاكمات زعماء الثورة العرابية مصر للمصريين : ج ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٤٤ .

وزعامتها وأقسموا له يمين الولاء (١) على السيف والمصحف (٢) .
وبقى البارودي مستشار التنظيم ولسانه في مجلس الوزراء . ولئن
كان وجوده في مجلس الوزراء والحركة ما زالت سرا غير مذاع
ضرورة ، فوجوده فيه بعد أن أعلنت عن نفسها وأصبحت هدفا
ظاهرا لمؤامرات الخديو ورياض وطلائع الاستعمار - حتم لازبا
تقتضيه حمايتها والوقوف بجانب مطالبها .

وفي صبيحة ١٧ يناير ١٨٨١ تقدم أحمد عرابي وعلى فهمي
وعبد العال حلمي بمذكرة يطلبون فيها - نيابة عن ضباط الجيش -
عزل عثمان رفقي وتعديل قوانين العسكرية بما يحقق العدل
والمساواة . وأسفرت حركة الضباط بهذه المذكرة عن نفسها وأعلنت
للأمة وجودها . وتدخلت كقوة سياسية تغير من مفاليد الحكم بعد
أن رأت حتمية الثورة ، وأنها الحل الوحيد لعهد جديد . واجتمع
مجلس الوزراء في ٣١ يناير برياسة الخديو وقرر توفيق ورياض
وعثمان رفقي قتل الحركة في مهدها باستئصال زعمائها ، ودبروا
لثلاثهم مؤامرة للقضاء عليهم بعد محاكمة صورية (٣) « ولكن السر
وصل الى الضباط في الحال ، من محمود باشا سامي المفضل (٤) ،
وحين دعاهم عثمان رفقي صباح اول فبراير الى وزارة الجهادية
بقصر النيل ، أعدوا الخطة المضادة ، وما أن اعتقلوا حتى سارع آلاى
الحرس بالأفراج عنهم ، وعاد بهم الى ثكناته ثم انضم اليهم آلاى
طرة فتجمعوا في ساحة عابدين .

(١) مصر للمصريين : محضر استجواب عبد العال حلمي ج ٧ ص ٦٠ .

(٢) كشف الستار ج ١ ص ١٥٤ .

(٣) البحر الراجح ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، مذكراتي في نصف فسين
ج ١ ص ١١٣ .

(٤) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٥٥ وتاريخ مشاهير النرق
ج ٢ ص ٣٠١ .

ورأى الخديو جيش مصر لأول مرة يواجهه بأسلحته ونيرانه ويوجه أول انذار اليه ، فتملكه الذعر والاضطراب وظهرت طبيعة الجبن والخور فيه ، وانتهر البارودى لحظة الضعف فأشار عليه باجابة طلبات الجند وحاول تبرير مظاهرتهم العسكرية فقال له : « انى أراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديو ، ولو أجيبت طلباتهم لانحسنت المسألة بسلام (١) ، واستسلم توفيق وانتدب البارودى لمفاوضة الزعماء ، ومن الطبيعى أن تسفر المفاوضات - والبارودى على رأسها - عن التسليم بمطالب الجيش كاملة فأقبل عثمان رفقى ، وألغى قانون العسكرية ، وأسندت وزارة الجهادية الى محمود سامى البارودى ، وكان النصر مؤزرا ، واستتردت القوى الوطنية به شجاعته فأيدته بروح منها ، ووقفت خلفه تناصره ، وأخذت تتطلع الى عمل أكبر .. الى ثورة تطيح بالفساد كله .

كانت حركة فبراير عملا بطوليا فى نظر المصريين ، فقد كانوا يخافون الخديو ، ويهابون سلطانه ، ويرون فيه سيدا وضعه الخليفة ليطاع وتعنو له الوجوه ، وما كان يتصور أحد أن يذهب الى مقر سلطانه جندى فلاح نشأ فى قرية ومن ورائه جنود فلاحون مثله ، ويقدمون المطالب بيد والانذار بيد أخرى فيظفرون بمطالبهم ويجبرون الخديو على الرضوخ لهم ، وينقلبون لم يمسسهم العذاب الاليم . وكانت حركة فبراير من ناحية أخرى ذات أثر كبير فى مجريات الأحداث ، فقد أصبح الجيش بفضل عمله الجرىء الفعال موضع اعجاب الأمة وتقديرها ، واعتبرت الأمة ما قام به الجيش عملا وطنيا مجيدا لأنه بعث الأمل فى أن تتبعه وثبات أخر تنقذ الشعب من الحضيض الذى يتردى فيه ، وأحست الطبقات المتعلمة التى تتطلع الى الحياة الدستورية أنها ليست قليلة الحيلة أمام الاستبداد كما كانت تتوهم فان لديها فى الجيش قوة مادية متجمعة،

(١) كشف الستار ج ١ ص ١٦٥ .

ولو أنها انضمت اليه ووجدت المسعى الى الهدف لوضعت حدا عاجلا لشقاء البلاد . وأحسن المتحالف الرجعى الاستعمارى من الخديو ورياض ومعتد انجلترا - بالخطر الذى يتهدد مصالحهم من النفوذ الشعبى الذى نالته حركة الضباط فى طول البلاد وعرضها بعد حادثة قصر النيل « وأيقنوا أنها لم تعد عملا عسكريا محصورا فى دائرة المطالب العسكرية ، بل تحولت الى حركة وطنية عامة يؤازرها المصريون جميعا عسكريون وغير عسكريين (١) » ، ورأوا رأى العين مدى العطف والتأييد الذى نالته من جميع الطبقات وفى مقدمة المؤيدين لها العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان وكما يقول محمد عبده « ان الجند والأمة كليهما كانا فى جانب عرابى (٢) » ، وشرع كل طرف من ثالوث الخطر يفكر فى طريقة للخلاص من زعماء الثورة وبذلك يقضون على المد الوطنى قبل أن يستفحل أمره . ولكن محاولاتهم ذهبت عبثا ، فقد كان صديقهم « محمود سامى » وزير الحرب ينذرهم بكل مؤامرة تدبر لهم فى الخفاء ويطلعهم على ما يصل اليه علمه من الدسائس التى تحاك ضدهم ، واستطاع أن يفعل ذلك بنجاح بعد أن قال من الاجتماع بعرابى ، وأن ظلا على اتصال دائم بواسطة على الروبى (٣) . وضاق نفس الخديو وعيل صبر رياض من فشل المؤامرات وكشف الدسائس (٤) . وكان موقف البارودى من حركة فبراير ودفاعه عن زعماء الحركة ومطالب الجيش فى مجلس الوزراء يثيران الشك فى نفس رياض فبث العيون والأرصاد من حوله حتى تأكد من العلاقة السرية بين البارودى وزعماء الحركة « ومن نقله

(١) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١١٨ .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢١٥ .

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤) بلغت المؤامرات كما عددها عرابى فى كشف الستار ج ١٠ ص ٢١٩ - ٢٢٩

ثلاث عشرة مؤامرة أنظر مصر للمصريين ج ٧ ص ٦٩ .

قرارات مجلس النظار اليهم (١) ، فدرس له عند الخديو وظل به حتى « اعتقد توفيق قلبا وقالبا أن « محمود سامي » متحد اتحادا كليا مع زعماء الحركة (٢) ، « وأن بقاءه في نظارة الجهادية مع صلة الى عرابي سبب تطاول الضباط على السلطة العليا في الدولة (٣) ، فخاصبه ورياض العداء وتربصا به الشر وتلمسا له أسباب المضايقة حتى اضطر الى الاستقالة في ٢٢ أغسطس ١٨٨١ .

كان البارودي قد اتفق مع زعماء الضباط أنه اذا لم يستطع دفع الضر عنهم قدم استقالته ، وعليهم أن يعدوا هذه الاستقالة انذارا لهم يتوقعون بعده شرا مستطيرا ، وكان البارودي بالاسكندرية حين قدم استقالته ، وبعد أن عاد الى القاهرة (٤) أرسل اليه رياض مع خطاب قبول الاستقالة وكيل الداخلية ليبلغه بأن عليه أن يترك القاهرة فورا ويسافر الى ضيعته ويظل بها محدودة اقامته ، وأحس الزعماء مخالف الرجعية والاستعمار توشك أن تنشب بأعناقهم وهم يرون في استقالة البارودي نذر الشر الذي يكاد أن يحيط بهم (٥) .

استقل البارودي القطار الى ضيعته بقرقية (٦) ، وذهب اليها ونفسه تتميز من الغيظ ، وقلبه يفيض بالكراهية والحقد على رياض ، ذلك المنام الذي كشف صلته بزعماء الحركة وجرى بالوقعية حتى أقاله فأصابه في مقتلين : أصابه في أمانيه الشخصية

(١) مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١٩ .

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٠٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢١٢ .

(٤) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٩ .

(٥) مصر للمصريين : ج ٧ ص ٦٩ - ٧٠ محضر اسنجواب محمود سامي البارودي .

(٦) مركز أجا : دقهلية .

تبدلت أحلاما . وأصابه في مهمته الوطنية فاصبحت حركة الضباط ولا سند لها في معسكر الرجعية يحميها من مؤامراتها ويرد عنها غائلة العدوان . وأفعم قاب البارودي بالمرارة والألم من رياض فهرع اليه شيطان الشعر بدق له طبول الهجاء والانتقام ، ويعلم الحرب عليه ، ويصب جام الهجاء على رأسه . ويعصرونه بالوان من خلقه ومن طبعه صورة بشعة تشمئز منها النفس وينحني أمامها هجاءوا العربية جميعا ويعترفون لها بالسبق ويحمونها الى متحف التاريخ ليبقى ذكرها أبدا في كل عصر له سجع وترنم وفيها يقول :

هذا الذي تكره الأبصار طالعته
فحفظها منه آيذاء وإيلام
في وجهه سمة للفرد بينة
وبين جنبه أحقاد وأوغام (١)
جاءت به عجز ليست بطاهرة
لها بمدرجة الفحشاء إزلام (٢)
مستيقظ للمخازي غير أن له
طرفا عن العرض والأوتار نوام
وكيف يصلح أمر الناس في بلد
حكاه لبنات اللهو خدام (٣)

ولا يلبث البارودي في ضيعته طويلا حتى تأتيه أخبار من القاهرة تفزعه ، فقد كانت استقالته حقا نذير الخطر الزاحف على زعماء الضباط ، وأكدت الأحداث أن الأمر قد قضى فيه بلبيل ، وأن الخطة قد وضعت للقضاء عليهم بقسوة وبلا رحمة ، ويتكشف

(١) جمع وغم : الحقد الثابت في الصدر .

(٢) المدرجة : الطريق والإزلام جمع زلم : السهم والنصيب .

(٣) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

البارودى فى خطة الرجعيين - بعين السياسى والقائد - ما يوشك أن يدفع بالجيش الى حرب أهلية ، وما يتهدد الوطن كله بنكسة تذهب بما أحدثته حركة فبراير من يقظة للشعور الوطنى وتجميع الرأى العام حول المطالب القومية ، ويشتد نداء الواجب الوطنى على قلب البارودى وعواطفه فيهرع الى القاهرة ويضرب بتعليمات الخديو ورئيس الوزراء عرض الحائط ، فمثاله لا يخلد الى الاعتكاف السياسى بين الأحداث تصنع تاريخ الوطن . ويعود البارودى الى القاهرة فتعود الى زعماء الضباط ثقتهم بأنفسهم ، وقد وجدوا سياسى الحركة الى جوارهم يمدهم بمشورته الناضجة ، ويكشف لهم بخبرته ودهائه مغاليق الأمور ، ويبصرهم بالحدود التى تقف بهم دون التردى فى مزلق التهور .

ويتصدر البارودى اجتماعات الضباط فى منزله كل ليلة يستعرض مع زعمائهم الموقف ، ويناقشون الخطة ، ويدرسون الاحتمالات ، ويعدون لكل أمر عدته (١) ويأخذ البارودى مكانه الحقيقى بين زعماء « حركة الضباط » علانية ، ويتبين للناس أنه سياسىها ومستشارها الذى تصدر عن رأيه ومشورته .

ويشتد الضغط على الزعماء من الرأى العام يطلب الخلاص من الخوف والأرهاب الذى تعيش الأمة فى ظلماته ، وتتجمع الطبقات المختلفة فى مجالسها ومنتدياتها ، وتجمع على أن لا منجى للوطن مما يعاينه الا بثورة تزيح رياضا من الوزارة ، وترغم الخديو على التسليم بالحكم الدستورى . وتتطلع الأعين الى الجيش وقد بعث انتصاره فى وثبة فبراير آمال الأمة فى الوثبة الكبرى .

وتثبت التجربة ، وهى ما تزال تؤكد كل يوم أن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال المصرى أن يعبر عليه من

(١) مصر للمصريين ج ٧ ص ٦٠ محضر استجواب عبد العال حلمى .

الماضى الى المستقبل . ، وقد أثبتت التجربة أيضا ان الجيش هو الذى يبدأ الخطوة التنفيذية الأولى دائما فى الحركات الوطنية الثورية فى الشرق ، ويتدخل فى اللحظة الحرجة ليعبر عما يضطرم به قلب الأمة من ثورة . ولينقذها مما تعانيه من ظلام سياسى وعبودية اجتماعية ، ذلك لأنه - ولا يزال - العامل الأكبر فى الحركات السياسية ، له وحده من القوة والاتحاد ما يمكنه من تحقيق أهدافه . ومن هنا نرى أن الجيش كان مقدرا له أن يلعب دورا هاما فى السياسة الوطنية التى لم يكن هناك بد من ظهورها ، وقد جمع فى جنوده أبناء الشعب بمختلف طبقاته الكادحة التى أرهقها التحكم والاستغلال ، فكانت تسرى فيه أحاسيس الأمة المختلفة ، ومن ثم أصبح نقطة الارتكاز الطبيعية التى تجمع من حولها السخط القومى . ونقطة الانطلاق التى اتخذت طريقها الى الثورة .

الزحف المقدس :

تحددت الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ١٨٨١/٩/٩ ساعة الصفر لقيام الجيش بالثورة ، فزحف أحمد عرابى على رأس وحدات من « آليات » الجيش الى ميدان عابدين ووجهت الى القصر مدافعها (١) ، وارغم الخديو على قبول مطالب الأمة فأقال وزارة رياض ، ووافق على تشكيل مجلس نيابى ، وعلى زيادة الجيش والتصديق على قوانينه ، ونجحت الثورة دون أن تراق فى سبيلها قطرة دم واحدة ، وانتصرت الأمة بواسطة جيشها الذى استطاع أن ينقذها من وهدة الرق السياسى ، وأن يهيء لها سبيل الإصلاح الدستورى السليم . واستيقظ الناس من حلمهم الطويل فاذا بهم قد تخلصوا من الاستبداد ، وتحققت لهم أمانهم التى انتظروها قرونا وأجبالا طويلة . وشكلت وزارة جديدة برئاسة محمد شريف فى ١٨٨١/٩/١٤ والبارودى وزير الجهادية فيها .

(١) أنظر تفصيلات الزحف على عابدين فى كشف الستار ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢٨

وبينما المصريون يحتفلون بالنصر الوطنى كانت طلائع الاستعمار فى جنون الفزع وهى ترى الأمور تنتهى فى مصر الى أيدي مواطنيها، والحكم النيابى سوف يدفع بمصر الى أن تستكمل استقلالها وعزتها فتعيد النظر فى المصالح الأجنبية القائمة على السلب والنهب دون سند من ضمير أو قانون . وأخذت إنجلترا وفرنسا تعدان عدة التحدى والتدخل المسلح . فلم يكد مجلس النواب الجديد يجتمع فى ١٨٨١/١٢/٢٦ حتى طلب المراقبان الانجليزى والفرنسى عدم تعرضه للميزانية لأنها من اختصاصهما وحدهما . وأرسلت الدولتان فى ١٨٨٢/١/٢٠ « مذكرة مشتركة » تؤيد ما طلبه المراقبان الماليان من أن مجلس النواب ليس من حقه الاقتراع على الميزانية المصرية . واعتبر المجلس هذه المذكرة اهانة موجهة اليه ، فما ان تقدم « شريف » باللائحة الأساسية للمجلس وقد نص فيها على منع النواب من الاشراف على الميزانية - استجابة لمطالب المراقبين الأوربيين ، ومهادنة للنفوذ الأجنبى - حتى أجمع النواب على رفض هذه اللائحة . وقرروا أن يعدوا هم دستوراً يحقق لمصر الحياة الديمقراطية الصحيحة ويكفل لها الاستقلال الكامل .

وثارت ثائرة محمد شريف ، وتجاوز غضبه غضب أحلافه الجدد من الأوربيين ، فقد كان يعتقد أن المصريين قد خافوا ليحكمهم الأتراك ، أما أن يتحكموا فى بلادهم ويجرؤوا فيرفضوا قانوناً تقدم به محمد شريف زعيم الحزب الدستورى نفسه فهذا أمر فى نظره غير محتمل (١) !! وظهرت شخصيته التركية المتفطرة على حقيقتها ، وتعرى من ثياب التستر وراء المطالبة بالدستور ، لتبين أغراضه المخفية فى دعواه ، وتكشفه هداًفاً وساعياً وراء الحكم والسلطان، ولم يكن رد أعضاء مجلس النواب إلا أنهم طلبوا اقالة شريف ، وتعيين من يكون أكثر موافقة لرغبات المجلس وأحرص على كرامة الوطن واستقلاله .

(١) بلنت : التاريخ السرى ص ١٤٤ .

وزارة الشعب :

وأجمع أعضاء مجلس النواب على أن البارودى هو رجل الساعة الذى يستطيع بثوريته أن يتجاوب مع آمال الأمة ويكفل لها الحياة الديمقراطية السليمة . ويحافظ على كرامتها الوطنية باستقلالها الكامل ، وأنهت اللجنة الى الخديو رغبة المجلس فأسند الى البارودى رئاسة الوزارة فى ١٨٨٢/٢/٤ . ومن أجل ذلك أطلق على وزارة البارودى بحق « الوزارة الوطنية » . وأطلق عليها أيضا « وزارة الثورة » ، فقد كانت تضم ثلاثة من زعمائها : محمود سامى البارودى للرئاسة والداخلية وأحمد عرابى للحربية والبحرية ومحمود فهمى للأشغال (١) .

وافتححت وزارة البارودى أعمالها بأعداد الدستور ، وجعلته بحيث يوائم آمال الأمة ويحقق ارادتها ، ويحفظ كرامتها كدولة مستقلة ، لمجلس نوابها حق نظر ميزانيتها . وحمل البارودى الدستور (٢) الى الخديو وكأنه يحمل آمال الأمة وتوقعاتها عليه بالموافقة ، فلم يسعه الا أن يضع خاتمه بالتصديق ، وما كان ليستطيع - ولو أراد - أن يفعل غير ذلك .

وكان يوم الأربعاء ٨ فبراير قمة المجد الذى بلغه البارودى فى حياته السياسية كلها ، وذروة النصر الذى وصلت اليه الأمة بثورتها ، ومجلس نوابها ، ووحدة القوى الوطنية فيها ، فقد حضر « محمود سامى البارودى » رئيس الوزراء الى مجلس النواب ومعه « اللائحة الأساسية » المحققة لأرادة الأمة مصدقا عليها من الخديو « وقوبل البارودى فى المجلس بالتعظيم والاكبار وسر النواب بنفوذ

(١) أما باقى الوزراء فهم : على صادق للمالية ، مصطفى فهمى للخارجية والحقانية ، عبد الله فكرى للمعارف ، حسن الشريعى للأوقاف .

(٢) يتكون الدستور من ٥٣ مادة ونصه كاملا فى مصر للمصريين : ج ١

ص ٢٢٧ - ٢٣٢ .

رأيهم فشكروا الوزارة الجديدة على ذلك » ثم وقف محمود سامي خطيباً في المجلس يقدم الدستور لنوابه بخطاب سياسي جامع (١) يكشف عن منابع أصيلة لوطنية البارودي القوية العميقة .

انتهت دورة مجلس النواب الأولى في ٢٦ مارس ١٨٨٢ ، وكان السلام والاستقرار قد انتهيا بانتهائها في البلاد ، ذلك أن طلائع الاستعمار قد أصيبوا بالذعر والهلع وهم يرون أهل مصر وقد نجح مجلس نوابهم نجاحاً يضعه في مصاف المجالس العريقة في التاريخ ، وتحقق الوزارة الوطنية آمال الأمة في الإصلاحات المختلفة ، ووجدوا في ذلك النجاح علامات الخطر على نفوذهم ، واستقلالهم للبلاد ، وأصاب الرجعية مس من الجنون وهي ترى « الفلاحين » يستلبون السلطة منها ، ويحاولون فينجحون في موضع الثقة الذي وضعتهم الأمة فيه ، فأصبحوا وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان ، وكان لابد للرجعية وحلفائها من القيام بعمل يشوهون به هذا النجاح ، ويستردون به سلطانهم ، فخططوا للقضاء على الثورة ، بتنظيم اغتيال جماعي لرجال الوزارة ، وكبار ضباط الجيش ، والرءوس المفكرة في الثورة ، ولكن سبقت مشيئة الله فاكشفت المؤامرة قبيل تنفيذها بساعات (٢) ، وحكمت المحكمة العسكرية على المتآمرين بما ارتأته قصاصاً للجريمة ، ولكن العناصر المعادية للثورة أيقنت أن تنفيذ الحكم في أنصارهم لابد وأن يضعف معسكرهم ، ويفقد ثقة عملائهم فيهم ، فأوعز المعتمد البريطاني إلى الخديو بالامتناع عن التصديق على الحكم (٣) ، وأيقن البارودي أن توفيقاً قد رمى بثقله كله في جانب مندوبي الاستعمار ، وألقى بزمامه اليهم يصرفونه كيف يشاءون ، وأن خديوى البلاد بدأ يطلب جهازاً منهم حمايته

(١) نص الخطاب في الوقائع المصرية ١٢/٢/١٨٨٢ .

(٢) كشفها أحد المشتركين فيها وهو الملازم خليل حسن : انظر مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١٣٥ .

(٣) مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١٣٦ .

من شعبه وحكومته ، وغضب البارودى لكرامة الوزارة ، ولكرامة الوطن ، « فذهب الى الخديو ليقدّم له اللوم الشديد لنزوله على ارادة قناصل الدول واهماله رأى وزرائه » (١) . وانقطعت العلاقة بين الخديو ونظاره من هذا اليوم (٢) .

ولم يجد البارودى ووزرائه مفرا - وقد اختلفوا مع الخديو بعد أن سلك مسلكا تخطى فيه حدود الدستور ، وتعدى به على استقلال البلاد - من أن يعرضوا الأمر على مجلس النواب ليرى فيه رأيه ، فاستدعوا النواب من عطلتهم الى القاهرة ليجتمعوا فى جلسة غير عادية ويقضوا فى الأزمة برأى . واجتمع النواب بالوزارة بصفة غير رسمية ظهر يوم ١٢ مايو ١٨٨٢ فى دار البارودى ، ليقفوا على أسباب الخلاف بين الوزارة والخديو ، فازدادوا ايمانا بأن الأزمة مدبرة من الخديو وحلفائه طلائع الاستعمار ، وأيدوا موقف الوزارة وساندوها وقرروا « أن الخديو اذا استمر على دسائسه مع القنصلين الانجليزى والفرنسى لم يكن مناص من محاكمته وخلعه » (٣) .

ظهر الخطر واضحا لتحالف الرجعية والاستعمار فى وقوف النواب صفا يساندون الوزارة ضد الخديو فاتجهوا الى أسلوب التفرقة ، وعزف توفيق لأولئك الذين حملتهم موجة الثورة معها وهم طامعون فى المناصب ، وضرب على أوتار الأغراء لأولئك الذين دفعتهم رياح المصلحة الشخصية فتسللوا الى الصفوف الوطنية ، واستمع الى أغرائه محمد سلطان (٤) رئيس مجلس النواب وستة من النواب الاقطاعيين الذين وجدوا أن مصالحهم مرتبطة بالخديو

(١) الكتاب الأصفر عام ١٨٨٢ وثيقة رقم ٦١ ، انظر أيضا : الرافعى الثورة العربية ص ٢٦٣ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٣٧ .

(٣) بلنت : التاريخ السرى : ص ١٩٨ .

(٤) أغراء الخديو بأقلاق الأساطيل الأوروبية الى مصر لتقمع الثورة وتعيد النظام القديم ووعده برئاسة الوزارة .

وحكم الطبقة الغنية (١) ، وأحس بقية النواب بالمؤامرة ، فبدأ لهم ان يدركوا الأمر قبل أن ينصدع الرأب وتحدث الفرقة ، « وطلبوا بانعقاد مجلس النواب على صورة رسمية لينظر في أمر الخلاف ويقرر ما يراه ملائماً لمصلحة البلاد وأهلها (٢) » . وحين رفض الخديو اصـدار « دكريتو » بعقد المجلس « قرر النواب والوزراء ورجال الثورة عقد جمعية عمومية من أعيان البلاد وعلمائها ونوابها يتخابرون فيها ويتشاورون في كيفية حل المشكلة ، وأخذ الناس يرقبون عقد هذه الجمعية حتى تحسم النزاع (٣) » . وكانت النذر كلها تعلن أن عقد هذه الجمعية سوف يسفر عن اجراءات حاسمة ضد الخديو ، فعمد الى أسلوب المخادعة حتى تفوت الفرصة ، وحنى رأسه للعاصفة ليكسب الوقت حتى تصل اليه المعونة والسند من الأساطيل الحربية التي وعده بها معتمدا انجلترا وفرنسا ، وأوعز الى عملائه الجدد من النواب المنشقين بزعماء سلطان رأس الاقطاع بالصعيد أن يسعوا بالصالح المؤقت بين الطرفين ، وتمت الوساطة في ١٥/٥/١٨٨٢ (٤) على ألا يستشير الخديو الأجانب في أمور الدولة ، ولا يقطع أمرا الا بأذن من الوزارة الدستورية .

وما لبثت الأساطيل أن وصلت الاسكندرية فجر يوم ٢٠ مايو ، فأحست الرجعية بالقدرة على التحرك والمبادرة بالانقضاض مرة أخرى ، وبدأ تحالف الرجعية والاستعمار تنفيذ مخططه في نفس اليوم الذي وصلت فيه الأساطيل ، « فنصح قنصل بريطانيا الخديو توفيق بأن ينتهز فرصة وصول الأسطول ويطلب من النظارة استقالتها لتخلفها وزارة أخرى يعتمد عليها . . وتنفيذا لهذه

(١) بلنت : التاريخ السرى : ص ١٩٩ .

(٢) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٧١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٢ ، الوقائع المصرية في ١٦ مايو ١٨٨٢ .

الخطة كلف توفيق سلطانا بأن يتوجه الى عرابى ومحمود سامى ويطلب منهما استقالة الوزارة (١) . وكان هناك شطر آخر من مخطط الرجعية والاستعمار تولاه الطرف الثانى من التحالف غير المقدس فقد أرسل قنصلا الدولتين موظفا من سفارة فرنسا الى عرابى يطلب منه باسمهما مغادرة البلاد (٢) ، واجتمع مجلس الثورة، وعرض عرابى عليه طلب القنصلين فاستنكر المجلس تدخل الدولتين السافر فى شئون البلاد ، وقوبل طلبهما بالاستياء والغضب الشديدين « حتى لقد صرح أحد أعضاء المجلس - أمام الموظف الفرنسى الذى ينتظر الرد - أن الجيش يمزق عرابيا اذا هو تخلى عن الثورة واعتزلها (٣) » ، وظهرت أهداف المخطط واضحة أمام رجال الثورة والوزارة ، فقد كانت ترمى الى الاطاحة « بالبارودى وعرابى » وهما حجر العثرة فى سبيل اعادة البلاد الى أيدي الرجعيين ونفوذ الاستعمار . وأخذت العناصر الوطنية تتأهب لما ينذر به الموقف من جسيمات الحوادث ، وصمم مجلس الثورة والوزارة على ألا يقرؤا أى تدخل لانجلترا وفرنسا فى شئون البلاد وان أدى ذلك الى القتال .

واراد البارودى أن يكون التصميم على هذا القرار مقدسا فيسد على الشيطان منافذ الدس والخديعة بين زعماء الثورة وكبار الضباط (٤) فدعاهم جميعا الى تحالف مقدس يعقدونه بثكنات عابدين وتلا عليهم الشيخ محمد عبده قسم الوفاء للثورة وتجديد

(١) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٤٠ .

(٣) محمود الخفيف : الزعيم المفترى عليه ص ٢٠٣ ، انظر البحر الزاخر

ج ١ ص ٢١٦ .

(٤) أحمد عرابى ، عبد العال حلمى ، طلبه عصمت ، يعقوب سامى ، على الروبى ، على فهمى ، محمد عبيد ، أحمد عبد الغفار ، الزمر ، حسن جاد ، على يوسف ، محمود فهمى ، عمر رحى . انظر مصر للمصريين ج ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٤ .

الولاء لمبادئها على المصحف والسيف (١) وهم يرددون بعده :
« والله العظيم والله العظيم والله العظيم قاهر السموات والأرض
المتسلط على القوى والقدر ، وحق ما في كتاب الله تعالى اننى وأنا
(فلان) لا أخون وطنى ، ولا أخون نفسى ، ولا أغش أخوانى ،
ولا أحدا من أهل بلادى ، وأحافظ على عرضى وعلى دينى ، وعلى
عرض أهل بلادى ، ولا أدع أحدا أيا كان يتعدى على أحد من أهل
بلادى ما دمت قادرا على منعه ، واننى أحافظ على النظام وعلى
القانون العسكرى بكل ما يمكننى ، وبقدر استطاعتى ، وإذا حنثت
بيمينى هذا فأكون مستحقا لقطع الرقبة وشق الصدر ، وأكون
محروما من مزايا الانسانية والآداب (٢) » .

المذكرة المشتركة :

خرجت الصحافة الوطنية تعلن الى الجمهور فى سخط وغضب
مقترحات الخديو باستقالة الوزارة ، وطلبات معتمدى الدولتين
بأبعاد عرابى عن الوطن ، فألهبت العواطف وحركت تيار الكراهية
نحو الخديو والأجانب ومن انحاز اليهم من النفعيين
والمستضعفين (٣) ، وكان توفيق يتعجل القنصلين فى اتخاذ اجراء
حاسم مسلح يقف به زحف الثورة وتيار الراى العام قبل أن
يكتسحه من الطريق ، وأن يعتمدا فى هذا التدخل على موافقة
محمد سلطان رئيس مجلس النواب ومن انفصل معه من معسكر
الثورة (٤) ، واهتدت الدولتان الى منفذ التفارقة وطريق التدخل ،
فوجهتا الى الحكومة المصرية والى الخديو فى ٢٥ مايو ١٨٨٢
« المذكرة المشتركة » أو « البلاغ الأخير » ، ويطلبان فيها : « سقوط

(١) مصر للمصريين ج ٧ ص ١٤٠ ، محضر استجواب على الروبى .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ ، محضر استجواب الشيخ محمد عبده .

(٣) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٧٤ .

(٤) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢٤٢ .

الوزارة البارودية ، ونفى أحمد عرابي خارج البلاد ، وتحديد إقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف المصرى (١) .

ونفذ الشيطان فعلا من الصدع الذى أحدثه « محمد سلطان » فى اجماع مجلس النواب ومن الخلاف بسببه فى الصف الوطنى ، كاقترح لحل الأزمة !! وذهب البارودى والوزراء الى الخديو فقد عزت الدولتان مطالب المذكرة اليه وهو رئيس مجلس النواب يستطلعون رأيه فى « المذكرة » ، ويقص البارودى ما حدث من توفيق فيقول (٢) : « ولما عرضت تلك اللائحة على الحضرة الخديوية صدر لى نطقها بأن القنصلين المذكورين قدما لها لائحة بالنص عينه ، ولما سئل جنابه عن رأيه استصوب عقد جمعية والمذاكرة فى هذا الأمر ، وما يقر عليه الرأى تحرر به كتابة ، وانه أرسل نسخة من تلك اللائحة تلغرافيا الى الباب العالى ، وينتظر التعليمات . . وطلب منا الحضور فى ثانى يوم » .

وغنى عن البيان أن البارودى ومجلس وزرائه قد اتفقوا دون خلاف على رفض المذكرة ، لأن « الطلبات المدونة فى اللائحة التى قدمها قنصلا انجلترا وفرنسا تتعلق بمسائل داخلية تختص بالأمور الادارية التى اعترفت الدول الكبرى دائما بأن حرية العمل فيها من خصائص الحكومة المصرية (٣) » ، وأعدت الوزارة مذكرة رسمية بهذا الرفض ، وانتظرت حتى تأتى التعليمات التى زعم الخديو أنه فى انتظارها من الاستانة ، ولكن الدوائر الوزارية والثورية علمت فى اليوم التالى أن الخديو قبل مذكرة الدولتين دون انتظار لرد الاستانة أو مشورة مجلس وزرائه (٤) ، فذهب البارودى رئيس

(١) نص المذكرة فى جريدة الوطن عدد ٢ يونية ١٨٨٢ ، تاريخ الثورة العرابية ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٣ محضر التحقيق مع محمود سامى البارودى أنظر أيضا ج ٤ ص ٢٧٤ .

(٣) من رد الوزارة على المذكرة : ونص الرد فى المصدر السابق .

(٤) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٤٠ .

الوزراء ومصطفى فهمى وزير الخارجية الى الخديو ليتعرفا جلية الأمر ، « ولما قابلا سموه سألاه عن رأيه فى مذكرة الدولتين وعن رد الاستانة فأجابهما بقبوله لها ، فاعترضا على هذا القبول قائلين : انه كان يجب الرجوع فى هذا الأمر الى السلطان والوزارة فهو أمر متعلق بالمعاهدات الدولية وبأمر داخلى والدستور ينص على ألا يتخذ الخديو إقرارا الا بموافقة وزرائه ، وعندئذ طلب رئيس النظر صدور « دكريتو » يجمع النواب لعرض الخلاف عليهم فأبى الخديو فانسحبا دون اجابة لامتعاضهما مما سمعاه (١) » .

وجد البارودى أن الأزمة بين الوزارة والخديو أصبحت تهدد مستقبل الوطن ، ولم يعد الحكم فيها يخص مجلس النظر وحده ، فدعا الى « جمعية عمومية » تمثل الأمة وتضم النظر وأعضاء مجلس النواب ورجال الثورة والعلماء والأعيان (٢) ، ولم يكن هناك خلاف فى الجمعية على رفض المذكرة ولكن السؤال الذى تبلورت المناقشة فيه كما يقول الشيخ محمد عبده هو : هل يمكن لنا أن نجتمع مجلس النواب ؟ وانطلق صوت الشيخ محمد عبده فى الاجتماع يعبر عن رأى الشعب بمختلف طبقاته فيقول : « اجتماع مجلس النواب حق للشعب ونحن نوابه ، ولا بد لنا من أن نطلب النواب الى القاهرة ، حتى لو أراد عرابى أن ينفذ ما طلب من ابعاده ارضاء للسياسة الأجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى اليه الخلاف (٣) » .

ورأى البارودى اجماع الأمة على رفض طلبات الدولتين فجمع النظر فى ٢٦ مايو وقرروا ارسال « مذكرة الرفض » - التى أعدت من قبل - الى قنصلى الدولتين حتى يسجلوا بها رد حكومة البلاد

(١) المصدر السابق ص ١٤٠ - ١٤١ ، أنظر أيضا مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٣ محضر التحقيق مع محمود سامى البارودى .
(٢) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

الشرعية لتنقض قبول الخديو الذى أبداه لهما . وبعد أن اطمأن البارودى الى أن رد الحكومة الشرعية قد وصل مندوبى الدولتين جمع النظار مساء اليوم نفسه وبحثوا موقف الخديو وتعديه على الدستور ونقضه لاتفاق ١٥ مايو الذى تعهد فيه بالألا يقطع برأى يمس مستقبل البلاد أو يتصل بالدول الأجنبية الا بعد مشورة الوزارة وعن طريقها ، وقرروا أن يحتجوا احتجاجا رسميا على قبول توفيق لمذكرة الدولتين ، واظهارا لهذا الاحتجاج قدم البارودى استقالته ومجلس وزرائه .

كان افتئات الخديو على الدستور ، وقبوله لائحة الدولتين ، واعترافه بحقهما فى التدخل فى شئون البلاد ، واستعدادهما على استقلال الوطن الشرارة التى فجرت بركان الثورة المحتدمة فى قلب البارودى على توفيق ، فقامت قيامته وأعلنها عليه حربا شعواء ، أنفة مما فعله حليف الاستعمار وركيزة الرجعية ، وانتقاما لكرامة هذا الوطن الذى عرضته الخيانة للخطر . ورأى البارودى أن الداء كله فى توفيق ذلك الأفعى الذى أودت سمومه بالوطن أو كادت ، فيقسم أنه لن يهدأ نفسا حتى يخلص البلاد منه ولو بأراقة الدماء ، وبتقديم حياته قربانا لوطنه . ويدق مارد الشعر طبوله فتزيد من رناتها ثورة البارودى النفسية فينشد :

تا لله أهـدا أو تقوم قيامة
فيها الدماء على الدماء تراق
أنا لا أقر على القبيح مهابة
ان القرار على القبيح نفاق
قلبي على ثقة ونفسي حرة
تأبى الدنى ، وصارمى ذلاق
فعلام يخشى المرء فرقة روحه
أوليس عاقبة الحياة فراق ؟

ثم يصور لنا عملاء الرجعية الجدد بقيادة سلطان ، ويرد عليهم
وقد شنوا عليه حملة دعائية تلومه على موقفه من الخديو صاحب
السلطة الشرعية في البلاد فيقول :

عابوا على حميتي ونكسائتي
والنار ليس يعيبتها الاحراق
فأعرفهم ، واحذر تشابه أمرهم
لا تستوى الأغلال والأطواق
شروا الضلالة بالهدى ، واغترهم
لين الحياة ، وماؤها الرقراق

ثم يتحول الى رأس الخيانة وسليل الرجعية فيلطخه بالعار
ويصمه بالخزي ، ويضع صورته على معبر التاريخ في اطار من
الدلة والهوان فيقول فيه :

عدادك في سلك البرية خزية
ودعواك حق الملك أدهى وأعظم
لقد هانت الدنيا على الناس عندما
راوك بها في ملك يوسف تحكم (١)
فان تك أولتك المقادير حكمها
فقد حازها من قبل عبد مزنم (٢)
وشتان عبد بالمحجة ناطق
وحر اذا ناقشته القول أغتم (٣)
فهذا أذل الملك وهو معزز
وذاك أعز الملك وهو مهضم (٤)

-
- (١) يشير الى يوسف الصديق الذي قام على خزائن مصر .
(٢) يشير الى كافور الأخشيدي : المزنم : المستلحق بغير قومه .
(٣) اغتم : عيب لا يبين .
(٤) مهضم : كسر ذليل ، هذه الأبيات من الجزء المخطوط بالديوان .

ولم تكن ثورة البارودى على توفيق وعملائه الا صدى لثورة
الامة فقد كان لاستقالته أسوأ وقع فى البلاد ، وأحس الناس نذر
النكسة وبوادر العاصفة ، وأيقنوا أن الخديو قد « باع البلاد
للأجانب (١) » ، وفتح لهم أبواب السيطرة على مصاريعها فقامت
الامة قومة رجل واحد ، « وتأججت الثورة فى القلوب وأخذت طوائف
الامة تعلن انضمامها الى البارودى وعرابى ضد الخديو وأنصاره » .
وعقدت الاجتماعات الوطنية فى أنحاء البلاد تأييدا لموقف الثوار
واعلانا لرفض « المذكرة الأجنبية » ، وتنديدا بموقف « الخائن
توفيق » (٢) وصدرت الفتاوى من شيوخ الأزهر وعلمائه بخيانة
توفيق وكفره ، ونودى بخلعه فى اجتماع النواب والأعيان ورجال
الجيش فى منزل محمد سلطان نفسه فى الليلة المعروفة « بليلة
أبى سلطان (٣) » وحضر الى العاصمة - كما يقول عرابى فى مذكراته -
جميع أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة ، وقدموا مئات العرائض
بواسطة مديرهم محتجين فيها على عمل الخديو ، ويطلبون أحد
أمرين : اما رفض اللائحة المشتركة ، أو عزل الخديو الذى قبل
تدخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية (٤) . وتصف صحيفة
كبى من صحف الاستعمار اجماع الأمة ووقوفها صفا واحدا
ضد توفيق والتدخل الأجنبى فتقول « وخرج علماء الأزهر
وقساوسة الكنائس وحاخامات المعابد وأعضاء مجلس النواب ،
وأعيان الفلاحين ، ومندوبو المدارس والمعاهد ، وفريق كبير من
التجار وأصحاب الحرف وساروا الى قصر الخديو ، وطلبوا رفض

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) بلنت : التاريخ السرى ص ٣٠٧ .

(٣) تفاصيل اجتماع هذه الليلة فى مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٢ محضر

استجواب يعقوب سامى ، ج ٤ ص ٢٧٦ ، والبحر الزاخر ج ١ ص ٢١٧ .

(٤) مذكرات عرابى المخطوطة ص ٢٦٨ .

المذاكرة (١) « . ورغم كل ذلك فقد أمعن الخديو في موقف العداء من الأمة ، وربط مصيره بالنفوذ الأجنبي ، ودار في عجلته ، وكره الشعب والأمة .

فشل توفيق في تعيين وزارة جديدة تحمل جريرة ما فعل ، وساد البلاد الاضطراب والذعر ، وكادت تسلم الأمور فيها الى الفوضى فليست هناك من وزارة مسئولة (٢) ، والجيش شق عصا الطاعة على الخديو وأعلنه بالعصيان (٣) ، وأصبحت البلاد كالبركان الذى يهوج ويوشك أن يلقي بالحمم فلا تبقى ولا تذر . قدر البارودى الخطر الذى يتهدد الوطن ، وأحس الاضطراب الذى يسود نفوس الشعب والأجانب ، ورأى المؤامرات الدولية تخططها انجلترا وفرنسا لخلق الأسباب والمعاذير ليستعيدا نفوذهما فى البلاد ويتخذا الخديو ذريعة ووسيلة وأداة تنفيذ . ويزوى الأمل الذى راود المصريين بالأمس القريب فى حكم جديد تسوده الحرية والعدالة والمساواة وينقلب سرايا ، وينفعل البارودى بكل ذلك فيصور المحنة التى يمر بها شعبه ووطنه فى قوله :

كنا نود انقلبا نـستريح به
حتى اذا تم ساءتنا مصـبايره
فالقلب مضطرب فيما يحـاوله
والعقل مختبل مما يحـاذره
ان دام هذا أضع الرشـد كافله
فيما أرى ، وأطاع الغى زاجـره
تنكرت مصر بعد العرف ، واضطربت
قواعد الملك حتى ريع طائره

(١) التيمس البريطانية فى ٢٩/٥/١٨٨٢ .

(٢) ظلت البلاد ٢١ يوما دون وزارة .

(٣) مصر للمصريين ج ٧ ص ٦٢ مختصر استجواب عبد العال حلمى .

فأهمل الأرض جراً الظلم حارثها
واسترجع المال خوف العدم تاجرهِ
واستحكم الهول ، حتى ما يبيت فتى
في جوشن الليل الا وهو ساهره
ويرى البارودى ببصرة السياسى وشفافية الشاعر أن المحنة
لن تنكشف الا بالثورة الحمراء ، فقد تحملت النفوس فوق طاقتها
ولن يطول بها الزمن حتى تنفجر في ثورة تستأصل أعوان الرجعية
وعملاء الاستعمار فيقول :
انى أرى أنفسا ضاقت بما حملت
وسوف يشهر حد السيف شاهره
شهران أو بعض شهر ان احتدمت
وفي الجديدين ما تغنى قواقره (١)

وجدت الرجعية وحلفاؤها زمام الأمور يوشك أن يفلت من
أيديهم وقد أحبط خططهم تعيين عرابى حاكما بأمره في البلاد ،
ورفضت البعثة التركية مذكرة الدولتين مضطرة بعد أن رأت اجماع
الأمة على رفضها (٢) ، ووجد مندوب انجلترا نفسه أيضا وقد فشل
في خلق الأسباب للتدخل المسلح ، وكان لابد اذن من مؤامرة جديدة
تصور البلاد بصورة الفوضى والاضطراب فتلتبس انجلترا لنفسها
العدر أمام الرأى العام العالمى في احتلال مصر ، ويتخلص بها
الخديو من الثورة وزعمائها ، وتمخض التحالف غير المقدس عن
حادث الاسكندرية المعروف في ١١ يونية ١٨٨٢ .

وتتمة لخيوط مؤامرة « التحالف » أعلن الخديو فجأة عزمه على
السفر الى الاسكندرية وأدار ظهره للشعب ، واستقبل بوجهه

(١) الجديدان : الليل والنهار ، القواقره : جمع قاقرة وهى الداهية .

(٢) رغم الرشوة التى قدمها تولىق اليها لتكون فى صفه وقدرت الرشوة

بمبلغ ٥٠ ألف جنيه غير الحلى والمجوهرات أنظر التاريخ السرى ص ٢٢٦ .

الأسطول البريطاني ، وأقام هو وأنصاره تحت ظلال مدافعه ، وبقيت القاهرة مقرا لزعماء الحركة الثورية يتزعمهم البارودي وعرابي ، يجتمعون كل ليلة في دار البارودي التي أصبحت مركزا لقيادة الثورة (١) ، يدرسون التطورات السياسية ، وقضايا الساعة . وفي هذه الاجتماعات كان الزعماء يناقشون مستقبل مصر وأنواع الحكومات التي تصلح للبلاد وكانت « الجمهورية الحياضية » هي نوع الحكومة المفضل عند البارودي ، ويقول شاهد عيان لهذه الاجتماعات (٢) : « وأخذ محمود سامي وهو ذو ذكاء ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر ، ومما قاله : لقد كنا نرمي منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا ، وعندئذ كانت تنضم اليها سوريا وليها الحجاز . ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت (٣) » .

كانت دعوة البارودي الى خلع الخديو وقلب نظام الحكم الى جمهورية مستقلة عن تركيا ، حيادية كسويسرا تمثل المرحلة الأولى للوحدة العربية بانضمام سوريا والحجاز اليها ، وكانت تدرس بين زعماء الحزب في نطاق السرية حتى لا يستعدوا السلطان عليهم

(١) مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٤ محضر استجواب محمود سامي البارودي وكان من أبرز المجتمعين الشيخ محمد عبده ، الشيخ عليش شيخ الأزهر ، والشيخ الهجرسي ، وحسن موسى العقاد ، وعبد الله النديم وبعض أمراء الأسرة الخديوية وعبد الرحمن البحراوى والسادات أنظر التاريخ السري ص ٢٥٦ - ٢٥٥ .

(٢) لويس صابونجي (١٨٤٣ - ١٩٢٨) صاحب جريدة النحلة وكان يصدرها من لندن باللغة العربية . وقد اتخذ الفريد سكاون بلنت مراسلا له بالقاهرة يواقيه بأنباء الثورة العربية في يونيو ويوليو ١٨٨٢ .

(٣) من خطاب صابونجي الى بلنت في ١٨ يونيو ١٨٨٢ التاريخ السري ص ٢٥٥

فى هذه الظروف . وفى اجتماعات زعماء الثورة بمركز الحزب (١) كانت تناقش اتجاهات الدول الأجنبية والتدابير التى يجب أن تتخذها مصر لمواجهة الأطماع الأوروبية ومدى استعداد الجيش والبلاد فى مواجهة احتمالات التدخل المسلح ، ورأى البارودى ببصرة القائد الحربى أن قناة السويس هى أضعف نقط الدفاع فى السواحل المصرية ، ونصح بأن تتخذ الإجراءات لردمها فى ساعات قلائل عندما يبدو من جانب أوروبا أو تركيا أول دلائل الاعتداء (٢)، ولكن عرابيا استبعد فكرة الاعتداء عن طريق القناة تحت تأثير الوهم الذى خادعه به دلسيس من حيدتها واستعداد الدول وخاصة فرنسا لمنع أى اعتداء يأتى من ناحيتها (٣) .

عاد الأمن واستتب النظام بعد تشكيل وزارة جديدة برئاسة اسماعيل راغب وكان عرابى وزير الحربية فيها ، ولم يؤد حادث الاسكندرية الغرض المنشود لمديره ، وكان لابد لمعسكر الرجعية والاستعمار من خلق سلسلة من تعلات وأسباب جديدة تحقق مآربهم وكانت كبرى التعلات والأخيرة فى سلسلة الاختلاقات طلب الأدميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى فى ١٨٨٢/٧/٦ وقف تحصين القلاع على شواطئ الاسكندرية لأن فى ذلك تهديدا للأسطول الموجهة مدافعه الى الاسكندرية !!

ولسنا بصدد البحث حول قانونية هذا الطلب أو اقامة الحججة على أنه تلمس مكشوف وذريعة واهية لما وراءه من أمر كان قد تقرراً من أمد بعيد ولكن الذى يعيننا هنا أن الأمة لم تبحث على أقدامها .

(١) دار محمود سامى البارودى : مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٤ ، التاريخ السرى ص ٤٢٥ .

(٢) التاريخ السرى ص ٤٢٧ .

(٣) أنظر المكاتبات بين عرابى ودلسيس فى التاريخ السرى ص ٤٥٥ - ٤٦٠ وأنظر تاريخ الثورة العرابية ص ٤٠٢ ، ٤١٥ - ٤١٧ .

ذيلة تطلب الرحمة من العدو وهي تعلم مقدار قوة مدافعتها الحربية الصغيرة أمام مدافعه الضخمة ، بل رفعت رأسها شامخة في وجه أميرها الخائن وفي مواجهة مدافع الاستعمار الفاشم ، ولم تفرط في كرامتها بالاستسلام ، واتخذت مصر بالأمس البعيد نفس القرار الذي اتخذته بالأمس القريب (١) تجاه الأنداز من نفس العدو ، وأعلنت أنها ستخوض معركة الكرامة الوطنية فان هزمت وهي تحمل شرفها فوق هامات قتلاها كان أكرم لها وأشرف من أن تحقق دماء ابنائها بالجبن والعار والاستسلام الدليل .

معركة الشرف والكرامة :

ضربت الاسكندرية في ١١ يولية ١٨٨٢ بقنابل الأسطول البريطاني ، وكانت الدعاية الاستعمارية تصور للعالم كله أن المصريين جميعا في صف الخديو ضد الحركة الثورية ، وأنه عند اطلاق أول قنبلة من الأسطول سيتسارع الناس ويقبضون على زعماء الحركة ويضعونهم عند اقدام الخديو (٢) ولكن الأمة كلها وهبت نفسها للقتال ، فقاتلت طوابى الاسكندرية وأدت مدفعية الساحل واجبها كاملا ، وظلت تضرب العدو حتى آخر قنبلة ، وتفانى أهل الاسكندرية في الدفاع عن مدينتهم رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج وبدلوا ما استطاعوا من تضحية واقدام ، وبعد قتال مرير تغلبت القوة والمعدات على الشجاعة والحمية ، ونزلت الجنود الانجليزية الى قصر عميلها توفيق الذى سارع فبعث يهنئها بالنصر واحتلال البلاد ، ويضع نفسه تحت تصرفها وحمايتها !!

وصلت أخبار الاعتداء على الاسكندرية الى البارودى فى القاهرة فارتدى ملابس الميدان وأخذ عتاده الحربى (٣) وأسرع الى الاسكندرية

- (١) سنة ١٩٥٦ فى معركة السويس .
- (٢) بلنت التاريخ السرى ص ٢٦٦ .
- (٣) أنظر مصر للمصريين ج ٧ ص ٣٢٣ .

ليضع نفسه في خدمة الوطن ويشارك في المعركة ، واجتمع البارودي بعرايى ومجلس القيادة الحربية (١) يبحثون تطورات الموقف من الناحيتين السياسية والحربية معا . ورأى البارودي أنها الحرب بين مصر وانجلترا لا مفر منها في سبيل الشرف والكرامة ، ومن ثم لابد من أن تعبأ البلاد لحرب طويلة مريرة وتواجهها صفا واحدا ، وحتى لا يتخذ الأعداء خديو البلاد ذريعة لاعتداء مغلف بخداع الشرعية ووسيلة لتفرقة الأمة واضعافها في جهادها المقدس ، نصح البارودي المجلس بأن يعمل على إعادة الخديو الى العاصمة ، فان أبى يعاد اليها بالقوة ، ووافق المجلس على اقتراح البارودي ووكّل تنفيذه الى سليمان سامى (٢) ، ورفض الخديو العودة وقرر المقاومة واستنجد بمن كان معه من أنصاره (٣) ، فذهبوا مع مندوب من الوفد التركى الى مقر القيادة وقابلوا عراييا وطلبوا اليه أن يفك الحصار المضروب على الخديو وضمنوا له أن يظل بقصره بالرمل ولا يلجأ الى الانجليز ، وانخدع عرايى بهذا الضمان وفك الحصار (٤) . ونجا رأس الرجعية بخداعه ، ونجحت آخر مراحل الخطة المدبرة ، فلم تمض ساعات قليلة من فك الحصار حتى انتقل الخديو الى سراى رأس التين لينضم الى القائد الانجليزى ويكون فى حمايته !!

رأت القيادة العسكرية الوطنية أن الاسكندرية بعد تحطيم حصونها وتعرضها للحريق من قنابل الأسطول البريطانى لم تعد تصلح جبهة للدفاع ، واستقر الرأى على الانسحاب منها الى منطقة

(١) كان مكونا من محمود فهمى ، وطلبه عصمت ، وعمر رحى ، و خليل كامل ، وعيد محمد ، وسليمان سامى ، ومصطفى عبد الرحيم ، أنظر مصر للمصريين ج ٩ ص ٩٠٣ .

(٢) مصر للمصريين ج ٩ ص ٧٨٩ ، ٩١٧ ، ج ٥ ص ٦٠ أنظر بلنت التاريخ السرى ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٣) محمد سلطان ، وحسن الشريعى ، وسليمان أباطه .

(٤) مصر للمصريين ج ٩ ص ٩١٧ محضر استجواب طلبه عصمت .

كفر الدوار ثم تقرر أن يعود البارودى الى القاهرة ليتولى هو ويعقوب سامى وكيل الجهادية أمر تعبئة الأمة للقتال وتنظيم الخطوط الخلفية وتوفير الامدادات والتموين البشرى والمادى للحرب (١) ، وعاد البارودى الى القاهرة ليجد يعقوب سامى قد شكل « مجلسا عرفيا » من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين (٢) ليتولى الأحكام العرفية التى أعلنها رئيس الوزراء فى البلاد (٣) ، وليتخذ التدابير اللازمة للحرب ، والتحصينات الحربية للدفاع عن الوطن ، فانضم البارودى الى المجلس يشارك فى جلساته ويسهم بجهوده وآرائه فى توجيهه (٤) .

لم تمض فترة طويلة حتى تحقق ما تنبأ به البارودى فى الاسكندرية ، فقد صبغ الانجليز عدوانهم على مصر بصبغة الشرعية، واذاعوا على الشعب المصرى فى منشوراتهم أنهم ما جاءوا ليستعمروا البلاد ، وانما هم نواب عن الخديو فى اخماد الثورة التى قامت ضده، ثم يخرجون بعد ذلك من البلاد (٥) ، وخديعة أخرى قام بها الخديو بايعاز من قوات الاحتلال المهيمنة على مصيره ليخذل بها الأمة ويحطم من معنوياتها فى مواجهة المعتدى الفاصب ، ذلك أنها دفعته الى أن يبرق الى عرابى بكفر الدوار يأمره بالتسليم للانجليز (٦) !! وطلب عرابى من يعقوب سامى عقد « جمعية وطنية » من الذوات

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٩٠٤ محضر استجواب ابراهيم فوزى ياور عرابى .

(٢) أسماء الأعضاء فى الوقائع المصرية ٢٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية فى ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٧ محضر استجواب يعقوب سامى .

(٥) سجلت المنشورات الوقائع المصرية بعد ذلك فى ٢١/٩/١٨٨٢ .

(٦) نص البرقية فى الوقائع المصرية ١٨ يوليو ١٨٨٢ .

والأعيان والعلماء ورجال الدين يعرض عليها الموقف لترى رأيها في الخديو ومطلبه فكان الاجماع على الاستمرار في الاستعدادات الحربية وارسال وفد يدعو النظار والخديو الى العاصمة ليديروا الحرب منها (١) .

وضربة أخرى وجهتها قوات الاحتلال الى القوى الوطنية على يد الخديو العميل حين طلبت منه اعلان عصيان عرابى وعزله من وزارة الجهادية في منشور أعلنه للناس (٢) ، ودعيت « الجمعية الوطنية » في القاهرة فعقدت اجتماعها الثانى فى ١٨٨٢/٧/٢٢ ونظرت فى منشور الخديو ثم قررت ابقاء عرابى فى منصبه وتوقيف أوامر الخديو ونظاره وعدم طاعتها أو تنفيذها ما داموا بالاسكندرية تحت سيطرة عدو البلاد (٣) . وكان للبارودى فى مناقشات الجمعيتين الصوت المسموع والحجة الواضحة فى شرعية الحرب ووجوب الدفاع عن الوطن ، « فان كتب الله لنا النصر تحققت الحرية والاستقلال ، وان كانت الأخرى لم نعدم الشرف والكرامة .. أما التسليم للعدو فهو قضاء على كل شىء : قضاء على ديننا وقضاء على وطننا وقبول للمذلة والهوان (٤) » . وأفتى شيوخ الأزهر وعلمائهم بمروق الخديو من الدين لانحيازه الى جيش العدو المحارب لبلاد الاسلام والمسلمين ، وانتشر العلماء والخطباء فى طول البلاد وعرضها يذيعون فتوى الأزهر ويعبثون الأمة للقتال ، ويقول الشيخ محمد عبده : « لقد رأيت المواطنين جميعا ينفرون الى الحرب فى شوق وحمية لقتال المعتدين لا فرق بين فلاح وبدوى ومدنى ،

(١) الوقائع المصرية ٢٠ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية سجلت المنشور فيما بعد فى عددها ١٨٨٢/٩/٢١ .

(٣) مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٦ وحضر الجمعية الثانية أكثر من (٥٠٠)

عضو أنظر الأسماء والقرارات فى الوقائع المصرية ٣١ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) من حديث البارودى لحسن الشمس صاحب جريدة المفيد أثناء انعقاد

الجمعية الثانية انظر المفيد ١٨٨٢/٧/٢٥ .

وكانت الفيرة الوطنية تملأ قلوب الجميع . . وكانت شوارع القاهرة
تغص في المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان ، يجولون في
شوارعها وهم ينشدون الأناشيد الوطنية (١) .

كان الاحساس العام بين كبار ضباط الجيش بالقاهرة أن تركيز
التحصينات والدفاع في منطقة كفر الدوار يعطى الفرصة للعدو
بغزو البلاد من منافذ الوطن المهمة دون تحصين وخاصة
قناة السويس ، وسافر البارودى وكبار الضباط الى كفر الدوار ،
وعقدوا مع عرابى وأركان حربيه مجلسا عسكريا (٢) ، واستعرضوا
الخطة العسكرية وقرروا تحصين الخط الشرقى ودمياط ، واتفقوا
جميعا على ما ارتآه البارودى ومحمود فهمى رئيس أركان الحرب
من سد القناة لمنع الأسطول الانجليزى من اختراقها واتخاذها قاعدة
عسكرية « ولكن عرابيا وحده لم يوافق على سد القناة وظل مترددا
في هذا الشأن (٣) » ، واثقا فيما وعده به دلسيس من حماية
فرنسا والدول الأوروبية لحيدتها . وانفض المجلس دون أن يقنع
عرابيا - وهو القائد الأعلى للجيش - بسد القناة . وفي غفلة من
القيادة المصرية تحركت المدرعات وبوارج الأسطول البريطانى تحت
جناح الليل الى بورسعيد فاحتلتها في ٢٠ أغسطس ثم اقتحمت
قناة السويس دون معارضة من دلسيس ذلك الذى ادعى لعرابى
حيادها خداعا حتى لا يسدها المصريون . واحتل البريطانيون
القنطرة والاسماعيلية وشمال السويس على القناة . وتنبه عرابى
للخدعة التى وقع فريستها حين جاءته الأنباء ، فأبرق الى الجيش
المصرى بالمنطقة ليسد القناة ، ولكن القرار جاء بعد فوات الأوان (٤)!!
ومنح جيش الأعداء فرصة النظر كما قال قائده بعد الاحتلال بفترة :

(١) كما نقله عنه برودلى ص ٢٣٣ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) التاريخ السرى ص ٢٨٥ ، جون نينه : عرابى باشا ص ١٠٥ .

(٤) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٩ .

« لو أن عرابيا سد القناة كما كان ينوى لكننا الآن لا نزال في البحر نحاصر مصر فان تأخر عرابي ٢٤ ساعة نجانا ومنحنا فرصة النصر (١) » .

طارت نفس البارودي شعاعا حين جاءته أنباء احتلال القناة ، وقد عرف بخبرة القائد أن كفة الحرب قد تحولت الى مصلحة الأعداء ، وأن الوطن قد بات في خطر ، وضاق به نفسه وهو يرى الصواب « ولكن يهم فلا يقدر » وينصح فلا يسمع لنصحه وتظل يده مغلولة فالأمر بيد غيره لا بيده ، ويموج صدره بالحسرة فيهتف :

نصحت فكذبتم فلمسا أتى الردى
عمدتم لتصديقي وقد قضى الأمر
فلم يبق في أيديكم غير حسرة
ولم يبق عندي غير ما عافه الصدر
فجاء الذي كنتم تخافون شره

وزال الذي لم يبق من بعده شعر
وعين البارودي قائدا لمواقع « الصالحية » غربي الاسماعيلية ، فأطاع الأمر الذي صدر اليه وهو يعلم أن الدفاع أصبح بعد احتلال القناة أمرا ميئوسا منه من الوجهة العملية ، وأن المعركة غير متكافئة فقد كانت جيوش الانجليز ضعف عدد الجيش المصري (٢) ، وتفوقه بالتدريب والمعدات الحربية الحديثة ، ومع ذلك لبي البارودي نداء وطنه حين دعاه كما يقول :

دعوني الى الجلى فقامت مبادرا
وانى الى أمثال تلك لسابق

(١) التاريخ السرى ص ٢٨٧ .

(٢) كان عدد الجيوش الانجليزية ٦٠٠.٥٠٠ جندي وعدد الجيش المصري ٢٠ ألفا .

وخرج الى الحرب قائدا لفرقة من ١٢ ألف جندي من الأسلحة الثلاثة - المشاة ، والسوارى ، والمدفعية (١) - وأخذ منذ وصوله الى مواقعه « يواصل الليل بالنهار في عمل الاستحكامات الحربية ومد خط دفاع طوله ٤ آلاف متر ، وعلى مراكز الطوابى وحصنها بحيث تستعصى على الأعداء (٢) » ، وكان موقع « الصالحية » يحمي الجيش المصرى من حركة التفاف يقوم بها العدو من الشمال ليطوق المواقع الرئيسية للجيش المصرى ، وظل جنودها دائما في مناوشات مع طلائع الجنود الانجليزية ويردونهم على أعقابهم قبل أن يجدوا الى ظهر الجيوش المصرية منفذا (٣) .

لم تكن مصر تحارب في جبهة القتال وحدها ، ولم يكن السيف والمدفع هو الفاصل بين النصر والهزيمة ، ولكن مصر كانت تحارب بأكثر من سلاح في جبهات عديدة : كانت هناك جبهة استانبول ومؤامرات السياسة الدولية يستعمل فيها سلاح الضغط الدولى على السلطان ليؤيد الانجليز في حربهم ضد مصر ، وجثا السلطان على ركبتيه ضعفا وذلة ، وأصدر في ١٨٨٢/٩/٦ - كما طلب منه الانجليز - منشورا بعصيان عرابى وخروجه عن طاعة السلطان ، وشرعية اشتراك الانجليز في اخماد العصيان المصرى (٤) !! وتلقف الخديو وأعوانه منشور السلطان وقد نشرته « جريدة الجوائب » فوزعوا منها بواسطة العربان المأجورين وجواسيسهم بين الجنود وفي البلاد الوف النسخ مرفقة بمنشورات الخديو التى تدعو الى التسليم . وأحدث المنشور هزة في عقيدة الكثير من الأهالى الذين يمدون الجيش بالموثوق والعتاد طواعية في سبيل الله ، وزعزع الروح

(١) أحمد عرابى : مذكرات عرابى ج ٢ ص ٢٠ (طبعة دار الهلال ١٩٥٣) .

(٢) الطائف عدد ٧٧ في ١٨٨٢/٩/٧ .

(٣) المصدر السابق عدد ٧٣ في ١٨٨٢/٩/١ .

(٤) نص المنشور في مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٠٠ ، ونشر في صحف

الاستانة في ١٨٨٢/٩/٦ .

المعنوية بين الضباط » وكان صدمة أضعفت عزائمهم ووهنت بها قواهم « (١) ، وفَت في عضد الجنود » فظنوا أنهم عصاة مخالفون لكتاب الله وسنة رسوله (٢) » .

واستطاعت جبهة الرجعية أن تحيط مواقع الجيش المصرى بالخيانة فاشترت الأعراب الذين يختلطون بالجيش ويعملون له أدلاء ومرشدين فى الصحراء (٣) ، وتمكنت من أن تزحف بها على مقر القيادة نفسه ، فاستعملت سلاح الرشوة والأمانى تفرى به النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ، واستطاع عميل الرجعية والاستعمار محمد سلطان أن ينفذ بالرشوة والوعود الى على يوسف - المشهور بخنفس - وعبد الرحمن حسن عضوى قيادة الجيش (٤) ، فكان زميلا للخيانة يرسلان عقب كل اجتماع للقيادة خطة الجيش المصرى الى العدو (٥) ، فيترصد الجيش الوطنى وينزل به الهزيمة .

وفى « معركة القصاصين الثانية » (٦) حاول الجيش المصرى أن يدخلها بكل ثقله وقواته ليرمى بالعدو الى القناة ، فاجتمع مجلس الحرب تحت قيادة عرابى ، وحضره جميع أفراد الآليات الموجودين بمركز التل الكبير ومحمود سامى قومندان مركز الصالحية ، وقرروا الهجوم على مركز التجمع الانجليزى بالقصاصين ورسموا الخطة وعرف كل قائد مهمته فى العملية الحربية « وكان على محمود سامى قومندان مركز الصالحية أن يأتى بجيشه ليلا بحيث يصل الخط المعين للقتال عند مطلع الفجر ، ويقف على يسار جيش مركز رأس الوادى ، ويحيط بميمنة العدو ، والقوة التى على يمين الترعة

(١) مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٤٨ .

(٢) مذكرات عرابى (طبعة دار الهلال) ج ٢ ص ١٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢٥٩ (عرب الطحاوية) .

(٤) ووعد كلا منهما بعشرة آلاف جنيه بعد الهزيمة : التاريخ السرى ص ٣٠٢ .

(٥) مذكرات عرابى (طبعة الهلال) ج ٢ ص ١٩ .

(٦) فى ١٨٨٢/٩/٨ .

تحيط بميسرته والأعراب يقتحمون التربة من خلفه ويقطعون على العدو خط الرجعة . وعمل بهذا الترتيب رسم بطرف أركان حرب الجيش وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل بموجبها (١) . ويمضى عرابي فيصف المعركة في مذكراته فيقول : وفي الثلث الأخير من مساء ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل محله على خط النار ، ولكن العدو كان عالما بما استقر عليه الرأي بعد أن أطلعهم عليه الميرالي على خنفس فاستعد العدو للمعركة ، وبادر بإطلاق النار واشتبك الجيشان واستبسل المصريون في القتال وتوالى المد والجزر بين الجيشين وظهرت خيوط الصباح ورحى المعركة دائرة . وتوقع القسادة المصريون هجوم جيش « الصالحية » بقيادة محمود سامي على ميمنة الأعداء ليغير من اتجاه المعركة ، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل ، حين لم يأت محمود سامي بجيشه ، وتأخر عن مواعده فقد قابله في الليل الأعراب المرتشون فأضلوه وجيشه في الصحراء !! ثم انبلج الصبح فاهتدى البارودي الى الطريق وسارع الى المعركة (٢) ، ولكن العدو كان له بالمرصاد فلما قرب من موقعه وجه اليه بطاريات مدافعه قبل أن يصل الى مكانه من المعركة فتشتت جنوده وولوا الأدباء (٣) .

وحاول البارودي أن يبث الشجاعة في القلوب التي انتزعتها المفاجأة ويعيد تشكيل رجاله ، ولكن الهزيمة كانت قد ذهبت بالنفوس وأطاحت بالعقول « وبقي البارودي مع قلة من الفرسان وصمدوا للمدافع والنيران . . وظل مع الأعداء في قتال حتى لم يبق من حوله رجال (٤) !! » والى هذه المعركة يشير البارودي من قصيدة طويلة :

(١) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق والتاريخ السرى ص ٣٠٠ .

(٣) مذكرات عرابي ج ٢ ص ٢٠ .

(٤) الطائف ١٠/٩/١٨٨٢ .

فلما استمر الجند ساقوا حملهم
الى حيث لم يبلغه حاد وسائق
هم عرضوني للقنا ثم أعرضوا
سراعا ، ولم يطرق من الشر طارق
فكم آبق تلقاه من غير طارد
وكم واقف تلقاه والعقل آبق
فلا رحم الله امرا باع دينه
بدنيا سواه وهو للحق رامق

بين الهزيمة والتسليم :

كانت هزيمة الجيش المصرى فى معركة القصاصين بداية
النهاية ، وفاحت منها رائحة الخيانة ، وأحس العملاء فى الجيش
بالاتهامات تضيق على أعناقهم ، فأعدوا مع الأعداء خطة الضربة
القاضية ، وكانوا فى مقدمة الجيش وطليعته ، فسهلوا للعدو سبيل
الهجوم المفاجئ ، وفتحوا له الطريق ليمر دون انذار أو تحذير ،
فأخذ الجيش المصرى على غرة ونزلت به الهزيمة الكبرى فى موقعة
« التل الكبير » (١٣ / ٩ / ١٨٨٢) .

وعلم محمود سامى البارودى قومندان الصالحية ومن معه
من الضباط بهزيمة التل الكبير ، فقرر الانسحاب من مواقعه
« وقام مع جنوده بقطارات السكة الحديد الى أبو كبير ثم
المنصورة (١) ، وفى طلخا على الضفة الغربية لفرع دمياط قرر أن
ينفذ خطة الدفاع التى رسمتها القيادة من قبل فى حالة الانسحاب
« وكان قد عمل (بلان) خطة بمعرفة أركان الحرب بجميع نقاط
المدافعة حتى أسوان (٢) » . وأرسل البارودى برقية الى عرابى
بالقاهرة يخبره بمكانه ويتلقى منه التعليمات ويقول فيها : « من

(١) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٣١ .

(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ٨٤ محضر استجواب محمود سامى البارودى .

سامى لعرايى أن وافق يسأل أحمد (بك) ناشد المهندس عما اذا كان يمكنه تفريق أراضى الشرقية والقليوبية بواسطة قطع جسور الشرقاوية والترعة الاسماعيلية كيلا يكون للعدو طريق لمصر خلاف الخانكة (١) « . وحين جاءه رد عرايى بأنه سيكتفى بقطع خطوط السكة الحديد كتب البارودى برقية ثانية يقول فيها « انه لا يجوز السكوت الى الصباح عن قطع السكة الحديد قطعاً مهولاً من فوق منيا القمح وبلبيس حالاً مع قطع جسور ترعة الشرقاوية والاسماعيلية وأخبرونا حالاً برأيكم (٢) » . وجاء الرد الى البارودى هذه المرة بغير ما يتوقع ، فقد أخذ المجلس العرفى « يبحث فكرة التسليم !! » .

وأسرع البارودى الى القاهرة ليمنع المجلس من التسليم للأعداء « فالقاهرة غاصة بالجند ومخازن الحربية ملاءى بالسلاح ، والذخيرة والميرة ووسائل الدفاع متوفرة ، والدفاع واجب وطنى مادام فينا بقية (٣) » ، والصعيد جبهة منيعة للقتال ان هزمت الجيوش المصرية فى القاهرة ، ولكن ربح الهزيمة فى التل الكبير ، وصورة الدمار فى الاسكندرية أدخلت الرعب فى قلوب أعضاء المجلس خوفاً على القاهرة من غوائل الحرب والتخريب ، وأصبحوا يميلون كل الميل مع فكرة تسليم القاهرة دون حرب ، وحاول البارودى أن يقنع عراييا وصحبه القواد - ان قرر المجلس اعتبار القاهرة مدينة مفتوحة - « بترك القاهرة والالتجاء بالجيش الى الصعيد فيستولى على جميع المراكب ، وتشحن بالذخيرة والتعيينات وتؤخذ الى الصعيد مع الجيش (٤) » . وفى الصعيد يمكن تنظيم الجيش من

(١) المصدر السابق ص ٣٨ - ٣٩ ، ٨٤ . محضر استجواب عرايى والبارودى .

(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ٣٩ ، ٨٤ . محضر استجواب عرايى والبارودى .

(٣) مذكرات عرايى ج ٢ ص ٢٨ .

(٤) مذكرات عرايى ج ٢ ص ٣١ .

جديد وتعبئة القوى الاسلامية من ليبيا والسودان ثم الهجوم على المعتدى وطرده من البلاد ، واذا ما تغلب العدو مرة ثانية أمكن نقل الجبهة الى السودان (١) ويقول عرابي ردا على مقترحات البارودي : « وحيث انى رأيت عدم موافقة رأيه لما تحققته من الخراب الذى يحقق بمديرتى القيومية والشرقية ودمار عاصمة البلاد وسفك دماء الأبرياء على غير جدوى فضلا عما رأيت من تحول الأفكار وانخلاع القلوب ، واختلال النظام بالجيش .. وافقت المجلس على التسليم » (٢) .

وايقن البارودي أن دوى الهزيمة قد سد الآذان ، وأصاب التفكير بالشلل . فتمثلت له النهاية المزرية فى الاستسلام الدليل للأعداء !! وبعد قرار التسليم لم يقبل أن يسلم نفسه وسيفه طواعية لأعداء الوطن وقال : « انى ذاهب الى منزلى فاذا أرادونى فأنهم يعرفون أين يجدوننى » (٣) .

وسلمت القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، ودخلها القائد الانجليزى يحف به أعوان الخيانة ومندوبو الرجعية ، ونزل قصر عابدين ، ورفع عليه أعلام الاحتلال !! وانتهت مرحلة من مراحل الحركة الوطنية بالهزيمة أمام المد الرجعى والاستعمارى ، وانطوت صفحة من صفحات الجهاد الوطنى لتصبح ذكرى وتاريخا !!

ليس هناك أشد قسوة ولا أكثر نكرا من الرجعية وهى فى موقف القوة ومراكز النصر - على القوى الوطنية المناهضة لها ، حينئذ تملكها روح الشيطان ، فتنفث سموم حقدتها بالتشفى وتسوم المواطنين سوء العذاب . وكذلك كان أنصار الخديو وأعوان الرجعية

(١) مذكرات عرابي ج ٢ ص ٣١ ، أنظر أيضا مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) مذكرات عرابي ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) أحمد عرابي الزعيم المفتري عليه ص ٤٥٠ ، تاريخ الثورة العرابية ص ٤٤٤ .

وعلى رأسهم محمد سلطان عقب تسليم القاهرة واستسلام القيادة الوطنية للهزيمة ، فقد ساقوا أعيان المصريين وزعماءهم الى السجون حتى فاضت بهم وبلغ عددهم ٣٠ ألفا (١) ، وكان البارودى أول من ألقى القبض عليه من زعماء الثورة وزج به فى غياهب السجن ، ثم تلاه بقية الزعماء وزملاء الجهاد .

وحياة السجن تجربة جديدة للبارودى ، ذلك الفارس الذى لم يعرف الأسر ولا القيد ، ورئيس الوزراء الذى كانت بيده مقاليد الأمور ، والزعيم الوطنى الذى وقف فى وجه الرجعية والاستعمار . وأثارت التجربة فى البارودى الفنان مشاعر الألم والالهام ، فهرعت اليه ربة الشعر تعزف له لحن « الوحدة والعذاب » فيصف نفسه بين سجنه وسجانه ويقول :

شفنى وجدى وأبلانى السهر
وتغشتنى سمادير الكدر (٢)
فسواد الليل ما ان ينقضى
وبياض الصبح ما ان ينتظر
لا أنيس يسمع الشكوى ، ولا
خبر يأتى ، ولا طيف يمر
بين حيطان وباب موصد
كلما حركه السجنان صر
يتمشى دونه ، حتى اذا
لحقته نبأة منى استقر
كلما درت لأقضى حاجة
قالت الظلمة : مهلا ، لا تدر

(١) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٣١ ، قدرهم محمود فهمى فى البحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٢ ب ٢٩ ألفا .

(٢) سمادير : جمع سمدر وهو غشاوة العين ويريد بها الهموم .

أتقرى الشيء أبغيه ، فلا
أجسد الشيء ، ولا نفسى تقرر
ظلمة ما ان بها من كوكب
غير أنفاس ترمى بالشعر

ويستجوب الزعماء أمام « قومسيون التحقيق » أو بالأحرى
أمام « محاكم التفتيش » وقد اختير أعضاؤها من عملاء الرجعية
الذين أمد لهم الاستعمار فى حيل الخديعة فجعلهم واجهته المزيفة
فى البلاد ، فكرسوا همهم لأدانة زعماء الثورة ارضاء لسيدهم المحتل ،
وامعانا فى التشفى ، وحقد نفوسهم ، وحطت المحن بكلكها على نفوس
الزعماء وقد أضعفتها الهزيمة فذهبت ببقية روعها ، وتصوروا
سجونهم قبورا يرون فيها نهاياتهم المفزعة ، والسلطات الرجعية
تنصب لهم المشانق على مرمى البصر من نوافذهم ، وطحنت سلسلة
التعذيب التى تعرضوا لها من خدم الخديو وحاشيته فى السجن
قواهم المعنوية ، وقضت على البقية الباقية من تفكيرهم السليم ،
وناح اليأس على الأمة كلها فأضاع رشدها ، وأشعل الخوف من
الانتقام طريق الهرب الى جحور الذلة فتسابق الناس اليها حتى
إذا جاءوها لم يجدوا شيئا ، ووجدوا الوطن يبكى فيها مستقبل
أبنائه من الأجيال القادمة .

وأعلنت سلطات الرجعية والاستعمار حرب الأعصاب على
الزعماء فى السجون فشنت على أسرهم حملات التعذيب ، وسلطت
عليهم ألوانا من الانتقام والأرهاب ، وحاولت بالاغراء والتمنى أن
تضرب الزعماء بعضهم ببعض فأمدت لكل منهم على انفراد حبل الأمل
ان هو ألقى التهمة على الآخرين ، وزينت لفريق منهم طريق النجاة
فى شهادته على عرابى أو البارودى بارتكاب مفتريات وأكاذيب ليكون
كبش الفداء . والرجعية يدفعها الى ذلك روح التشفى والانتقام ،
والاستعمار يستهدى المخطط الذى وضعه لاحتلال طويل الأمد ،
ومن ثم فهو يرمى الى تحطيم المثل العليا فى الزعامة الوطنية لكى

تخمد روح المقاومة الشعبية والكفاح ضد المستعمر ، فالأمة قد وثقت بزعمائها ، وأمدتهم بكل امكانياتها وطاقاتها في حرب الحرية المقدسة ضد ظلم الأتراك والاحتلال الانجليزى ، فاذا انهزموا أمام القوة فليس من العار أن يقهر القوى الضعيف ، والزمن كفيل بأن يبعث من يحمل المشعل ويواصل الجهاد فتنهض الأمة وتؤيده دفاعا عن شرفها المغلوب ، ولكن الخطر الأكبر على روح المقاومة الشعبية أن يتحطم رمز القيادة المصرية وتلطخ الزعامة بالعار وتصاب بالذل ، وتصور بأنها في سبيل النجاة بنفسها نسيت الضحايا التى بذلت دمائها في المعركة تلبية للنداء ، وتتنكر لأنصارها في محنة المصير ، حينئذ تصاب الأمة بخيبة أمل في القادة وتفقد الثقة في الزعماء المصريين ، وتخبو الروح المعنوية للشعب وتموت المقاومة الشعبية للمحتل الفاسد فينعم باستعمار طويل .

ومن ثم كان السجن لزعماء الثورة محنة تعذبت فيها أرواحهم وجسومهم معا ، ومأساة تصدعت منها أكبادهم وانشقت لها مرائرهم ، وذهبت بنفوسهم حشرات ، والبارودى له في كل ذلك القسط الأوفى والنصيب الوفور ، فقد اعتبر خارجا عن طبقته ، وضالا من بنى جنسه بانضمامه الى صفوف الفلاحين ، ومن ثم تعرض هو وأسرته لألوان التعذيب والأرهاب والتشقى على يد أغوات الخديو وأعوانه من الشراكسة والأتراك !! وحاولوا - بواسطة محام عين ليدافع عن البارودى (١) - أن يساوموه على تخفيف الحكم

(١) امتنع المحامون الوطنيون عن الدفاع عن المتهمين خوفا من الحكم الرجعى . وانتهز الفرصة شاب يسمى « يوسف كامل » يحمل جنسية روسية - وعرف بأنه من المرتزقة الذين يعيشون بلا عمل معروف وكان عمره ١٨ سنة وامتنع المحاماة بعد الهزيمة فعين للدفاع عن البارودى . ثم نحتة زوجة البارودى ووكلت برودلى للدفاع عن زوجها . انظر برودلى : كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ص ١١٠ ، ١٨٧ ، ٢٨٠ .

عنه لقاء معونة « لجنة التحقيق » على ادانة عرابى (١) ، ولكنه رفض أن يغدر برفيق الجهاد وأمعن في الرفض ، ولم يذكر عرابيا بسوء ، بل حاول أن يبرر ما ينسبونه الى عرابى ويتلمس له المآذير (٢) ، وأتوا اليه عن طريق الوقيلة ، فأوحت اليه « لجنة التحقيق » أن عرابيا يتهمه بمحاولة اغراق الشرقية والقلوبية ، وأظهروا له البرقيات المتبادلة بينهما ، ولكن البارودى فاجأهم بالاعتراف بالمحاولة « بناء على خطة المدافعة المرسومة من قبل والواجب اتباعها فى انسحاب الجيش (٣) » ، وظل البارودى على موقف الشرف والأبء الوطنى « كريم الأصل والعنصر » ، فلم يطعن الثورة من الخلف ، ولم يغدر بزملائه ، ولم يستجب للوقيلة بينه وبين عرابى أمام « لجنة التحقيق » (٤) .

بيد أن الوسائس والأوهام أخذت طريقها الى نفوس الزعماء ، وجسمتها الوحدة والوقيلة ، فحسب كل منهم أن زملاءه غدروا به . وفى لحظة « الضعف البشرى » التى يتعرض لها الانسان فى مثل هذه الظروف - فتختلط عليه سبل التفكير - ظنوا ببعضهم الظنون وحسب كل منهم أن الآخرين يأترون به ليكون كبش الفداء ، ولم تكن من وسيلة لتبيان الحقيقة ، وقد ضربت عليهم العزلة التامة وانقطعت الصلة بينهم جميعا . وتعرض البارودى كذلك لهذا الضعف البشرى المؤقت وأصيب بخيبة أمل فى الرفاق ، ولكن بقية من كرامته وخلق الفارس فيه أبت عليه أن يجهر بهذا الظن للأعداء فى محاضر التحقيق ، واحتفظ به لنفسه ولم يسره الا لربة الشعر حين جاءته تونس وحشته فى ظلمة السجن فغنى لها لحن « الشكوى وعتاب الرفاق » وفيه يقول :

-
- (١) بشهادته أن « عرابى » أمر بحرق الاسكندرية وامر باطلاق المدافع بعد رفع الراية البيضاء بالاسكندرية أنظر برودلى ص ٢٨١ ، ٣٠٨ .
(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ٨٤ محضر استجواب البارودى .
(٣) المصدر السابق .
(٤) برودلى ص ٣٠٨ .

وكنا جميعا ، فلما وقعت
صبرت ، وغادرنى معشرى
ولو أننى رمت اعناتهم
لقلت مقالة مستبصر
ولكننى حين جد الخصام
رجعت الى كرم العنصر
وساعدت الوحدة وظلمة السجن ، ووطأة اليأس وحرب الأعصاب
نمو الوهم وسوء الظن بالرفاق فى نفس البارودى ، فتحول سوء
الظن مع الواقعة الى نقمة على من ظنهم خانوه وغدروا به فأصلاهم
بشواظ من هجائه فى مطولة أملتھا الأعصاب المريضة والنفس المعذبة
بالشك والوهم وفيها « يعرض برؤساء الجند الذين تخاذلوا فى
الثورة العرابية (١) » ويقول :

أضعت زمانى بين قوم لو أن لى
بهم غيرهم ما أرهقتنى البوائق
فان أك ملقى الرحل فيهم فأننى
لهم بالخلال الصالحات مفنارق
فتبا لهم من معشر ليس فيهم
رشيد ، ولا منهم خليل مصادق
ظننت بهم خيرا ، فأبت بحسرة
لها شجن بين الجوانح لاصق
فيا ليتنى راجعت حلمى ولم أكن
زعيمما ، وعاقتنى لذاك العوائق
ويا ليتنى أصبحت فى رأس شاهق
ولم أر ما آلت اليه الوثائق (٢)

(١) الديوان شرح الجارم ج ٢ ص ٣٣٤ - ٣٤٠ .

(٢) الوثائق : يراد بها هنا العهود والمواثيق .

لم تحقق القوى الرجعية مأربها في زعماء الثورة عن طريق اعترافاتهم في « لجنة التحقيق » رغم الوقيعة والدس بينهم . ورغم ما تخلف في نفوس أكثرهم من الضعف وسوء الظن والشك بالزملاء ، فلم ينزل بهم الضعف الى الخطيئة الكبرى من التنكر لدورهم في الثورة ، أو التنصل من تعبئة الأمة لحرب المستعمر ، أو محاولة الغدر بالزملاء ، وإنما ألقى بعضهم تبعة تطور الأحداث مع الخديو على تسلط الجيش وسيطرة صغار الضباط الذين دفعهم الحماس الى منع الزعماء من أخذ الأمور بالحسنى واللين ، ومن ثم لم تكن التهم الموجهة اليهم - إذا كانت هناك عدالة في المحاكمة - لتصل بهم الى حبل المشنقة التي نصبها لهم عدوهم القديم « مصطفى رياض » وزير الداخلية الجديد (١) ، ولم تكن لتحطيمهم معنويا أمام الشعب ، ومع ذلك فلم تكذب عنهم صدمة الهزيمة ، وتفيق نفوسهم مما غشيها من الضعف نتيجة لهول الموقف ، ويعود الاتصال بينهم فيتعرفون خديعة الوقيعة - حتى استردوا شجاعتهم وعادت اليهم نفوسهم ، واستشعر الندم من أثر فيه الدس منهم (٢) ، وطلب إعادة التحقيق ليثبت أن ما قاله لم يكن يعبر عن الحقيقة ، وإنما أملت له الأعصاب المريضة من التعذيب ، الخائفة من الأرهاب والتهديد في لحظة « الضعف البشري » (٣) .

ولكن المستعمر استطاع أن يحقق مأربه في زعماء الثورة ، فقد بعث سوء حظ المصريين اليه عفوا ودون قصد بالوسيلة ، ذلك أن بعض أصدقاء الزعماء من البريطانيين وعلى رأسهم مستر بلنت بدا لهم أن يוכלوا محاميا للدفاع عنهم بعد أن امتنع المحامون الوطنيون خوفا من انتقام القوى الرجعية ، وقد يكون بلنت مخلصا فيما فعل،

(١) انظر برودلى ص ٣٧ ، ١٩٦ .

(٢) انظر برودلى ص ١٤٦ ، ٢١٨ .

(٣) انظر مصر للمصريين ج ٧ ص ١٦٥ - ١٧٩ محضر استجواب أحمد

وقف ، برودلى ص ٢٠٣ - ٢٢٧ ، ٢٣٨ - ٢٥٤ .

ولكن فكرته اتاحت للاستعمار فرصة يعد على ضوءها مخططا يخدم اغراضه في البلاد . فقد استطاع المحامي الانجليزى « برودلى » أن يعيد الأمل المفقود الى قلوب الزعماء ، ولكنه صور له لهم أملا انتزع انتزاعا من بين أنياب السلطات المصرية بفضل السلطة البريطانية ، ودبت الروح ثانية في الزعماء وكانوا قد حسبوا أنهم لن يخرجوا من السجن الا الى القبر ، ومع كل خطوة من الأمل ، ومع كل حل لمشكلة ، كان « برودلى » يصب في آذان الزعماء أن انجلترا هي التى تريد العدالة والانصاف وتريد لهم الحياة ، أما السلطات المصرية فقد خبروا بأنفسهم وسائل تعذيبها ، وعرفوا مقدار العدالة فى تحقيقاتها والمصير الذى تريده لهم !! والمصريون بطبيعتهم ذوو عرفان بالجميل ، فأغرق عرابى وهو رئيس الزعماء فى الثناء على انجلترا وعلى عدالتها وانسانيتها ، ولقبها « بحامية الحريات » ، وتمادى فى التبجيل والاعتراف بالجميل لحكومتها وشعبها ، وطلب « برودلى » منه أن يكتب كل ذلك ، فكتب لجريدة « التيمس » البريطانية ، « ولورد دفرين » مبعوث الاحتلال الذى جاء ليضع أساسه وسياسته الطويلة الأمد ، « وتشارلز ويلسون » مندوب السلطات البريطانية فى محاكمة الثوار ، وحتى « لسير ادوارد ماليت » (١) قنصل بريطانيا العام عدو الحركة الوطنية ومستشار توفيق - يشكر لهم جميعا ما أدوه للسجناء وما قدمته لهم بريطانيا من الجميل الذى لا ينسى ، وكانت هذه الخطابات تنشر فى الصحف المحلية والأجنبية يقرأها المصريون ويعجبون !! وخدمت النيات الطيبة ، وطبيعة عرابى والزعماء الساذجة مخطط الاستعمار ، فقد حولت كتاباته عن انجلترا « أم الحريات » !! بعض الوقت تيار الكراهية المندفع نحوها من المصريين والمسلمين لاغتصابها أرض مصر الاسلامية ، واعترفوا لها بالجميل لأنها أنقذت زعماء الثورة من المقصلة ووهبتهم الحياة !!

(١) نرى الخطابات أنظر برودلى ص ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ .

الأمل الجديد :

أصبح «برودلى» حلقة الاتصال بين السجناء وعرفوا منه ومن الصحف التى استطاع أن يدخلها اليهم ، دنيا ما وراء الأسوار وهى تدور فى فلك آخر : حفلات ومهرجانات « بدخول الفاتحين !! » ، واستعراض توفيق لجيوش الاحتلال فى ميدان عابدين ترفرف عليه أعلام النصر البريطانية ، ومكافآت ونياشين للخائنين ، وهدايا تقدم لقائد الاحتلال « على انقاذه البلاد من غوائل الفئة العاصية » بينما السجنون تفص بألوف الأحرار من المواطنين ، وأيقن الزعماء أن الرجعية لا تأتمر بهم وحدهم ، بل بمقدرات الشعب ومستقبل الوطن ، وحسبوا - كما وعدهم برودلى - أن السلطات البريطانية سوف توفر لهم محاكمة عادلة علنية محررة من الضغط والخوف والأرهاب ، فعزموا - وقد عادت الثقة الى نفوسهم - أن يظهروا للعالم أجمع كيف تأمرت الرجعية والاستعمار على شعب مصر المحب للسلام ، وبدأوا بروح جديدة يعدون مذكرات الدفاع ليعلنوا للملأ وللراى العام العالمى أنهم قاموا بثورة وطنية أيدتها طوائف الأمة جميعا ليخلصوها من ربقة الظلم واستبداد الحكام الأتراك وتحكم النفوذ الأجنبى ، وقادوا الشعب الى حرب مقدسة أقر اعلانها السلطان والخديو وفرض الاستمرار فيها الجمعية العمومية الوطنية ومجلس الوزراء والشعب . وبعث الزعماء السجناء الى أسرهم لتسلم محاميهم أوراقهم الخاصة التى تثبت خيانة توفيق وفيها فتاوى شيوخ الأزهر بانحرافه عن الدين ، وعرائض العمد والأعيان ومشايخ البلاد تؤيد الزعماء فى مطالب الأمة وحرب الانجليز . ويقول « برودلى » بعد أن اطلع على الأوراق

والوثائق : « انها أكثر مما يلزم لنفى تهمة العصيان عن الزعماء ،
وانها لتثبت أن الزعماء كانوا يقودون خمسة ملايين تائر من الأهالى
وذلك معناه أن الأمة كلها كانت من خلف الثورة (١) » .

ولكن الحكومة الانجليزية التى أعلنت من قبل فى المؤتمرات
الدولية (٢) عصيان الجنود المصريين ، ووسمت الحركة كلها « تمردا
عسكريا » ، وأرسلت لقمعها حملة أنفقت عليها ملايين الجنيهات ،
لم تكن لتترك الثوار يعلنون على العالم شرعية الحرب ووقوف الأمة
خلفهم فى الثورة ضد الطغيان والنفوذ الأوروبى ولم تكن لتطلق
عربا وزملاءه بعد ذلك من السجن بلا قيد ولا شرط ، والا ، لظهر
للعالم كله دور الخديعة وأسلوب الفس الذى أخذته ذريعة لاحتلال
مصر (٣) . ومن ثم « بعثت الحكومة البريطانية تعليماتها فى
١٣/١٠/١٨٨٢ الى وكيلها فى مصر بألا تدور فى المحاكمة مناقشات
أو تدلى بشهادات حول الدوافع السياسية للثورة أو الأسباب التى
تبرر ما قام به الثوار من تهم ، وانما يقتصر على ما يثبت أو ينفى
هذه التهم (٤) » ، ورغبت الحكومة المصرية فى ألا تنشر قدارات
السياسة وفضائحها على الملأ ، وألحت على السلطات البريطانية
- وقد أصبح بيدها الحل والعقد - فى أن تتخلص من كابوس الزعماء
سواء بقتلهم أو نفيهم من البلاد خشية الرأى العام الذى بدأ يفىق
من صدمة الهزيمة ليرى ما حل به (٥) ! ونتيجة لذلك كله أصبحت
محاكمة الزعماء شبحا تود كل الجهات أن تتخلص منه ، وكان لابد
أذن من « تسوية » للموقف .

(١) برودلى ص ١٧٨ ، تفصيلات محتويات أوراق الزعماء انظر المصدر
السابق ص ١٦٥ - ١٧٨ .

(٢) مؤتمر الاستانة المنعقد فى ٢٣/٦/١٨٨٢ وحضره أعضاء من انجلترا
وفرنسا والمانيا والنمسا والروسيا واطاليا .

(٣) برودلى ص ٣٠٧ .

(٤) برودلى ص ٤٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٤ ، ٣٠٨ - ٣٠٩ .

وجاءت « اليد الفولاذية المغطاة بقفاز من حرير (١) » بالتسوية التي تتفق ومخططها ، وتبرر وجود جيوشها في مصر ، وهي تقضى باستبعاد جميع التهم الموجهة الى الثوار عدا تهمة العصيان ، ومن ثم ينقذون من الموت ويحكم عليهم بالنفى الى جزيرة سيلان . ويقول برودلى : « وحملت مشروع التسوية الى الزعماء وشرحته لهم في كلمات قليلة ، غير أن الاقتراح نزل عليهم نزول الصاعقة فقد كان الأمل يراودهم في أن يسمعوا أوروبا والعالم قصة الثورة عن طريق المحاكمة العلنية . وكانوا يتوقون الى أن يروا متهميهم وجها لوجه أمام القضاء ، ويرجون أن ينير الضوء الذي يلقونه على الأحداث الوطنية في دفاعهم ، الطريق الى اصلاح لم يستطيعوا أن يحققوه بأنفسهم (٢) » . ولكن برودلى أشعرهم بأن « اليد العليا » قد اقترحت ولا يمكن لأحد أن يقف في سبيل التنفيذ فأنهم صمموا على رفض مقترحها فسيترك الانجليز مصرهم للسلطات المصرية تسلط عليهم ضياع الحق وأفاعى الانتقام فتمزقهم أربا وتشفى بشنقهم في ميدان عابدين !!

وويل للمغلوب ! فمنطقه دائما واه ضعيف ! وليس أمامه الا التسليم بمنطق المنتصر !! وقبل الزعماء « التسوية » . وحكم على البارودى والستة الكبار معه بالأعدام (٣) ، ثم استبدل بالأعدام النفى المؤبد الى جزيرة سيلان ، وجردوا من جميع الرتب والألقاب ، وصودرت أموالهم وما يمتلكون (٤) .

(١) لورد دوفرين : أنظر برودلى ص ٣١١ .

(٢) أنظر تفاصيل المناقشة بين برودلى والزعماء في برودلى ص ٣٢٠ - ٣٢٧ .

(٣) أحمد عرابي ، عبد العال حلمي ، على فهمي ، طلبه عصمت ، محمود فهمي ، يعقوب سامي .

(٤) الوقائع المصرية في ١٤/١٢/١٨٨٢ ، حدد للمنفين مرتبات شهرية بعد ذلك ليعيشوا منها . وكان مرتب عرابي ٥٥ جنيها شهريا وكل من رفاقه ٢٨ جنيها استرلينيا .

كان البارودى أكثر الزعماء مصابا ، فهو وحده بينهم الذى يملك الضياع الواسعة والقصور العديدة ولكنه لم يأس على شيء منها ، وقدمها قربان للوطن وفداء فى سبيل الدفاع عن الحرية والمبدأ ، ولم يشك أمره وظالمه إلا الله فى قوله :

يا ناصر الحق على الباطل

خذ لى بحقى من يدى ماطلى (١)

أخرجنى عما حوته يدي

من كسبى الحر بلا ناطل (٢)

من غير ما ذنب سوى منطوق

ذى رونق كالصارم القاطل (٣)

أتلو به الحق وأرمى به

نحو العدا فى الرهج الساطل (٤)

فان أكن جـردت من ثروتى

ففضل ربي حلية العاقل (٥)

عادت الى البارودى نفسه الشجاعة بعد أن لفظت « الضعف البشرى » الذى ألم بها حيناً ، وتبرأت من الشعور الطارئ الذى راودها تحت ضغط المحنة واليأس ، وارتفعت به روحه ثانية الى الدرجات العلا من مواقف البطولة المعنوية ، وطربت ربة الشعر لعودة الروح الى شاعرها وناولته قيثارها فى ظلمة السجن ليرد على صحف الرجعية التى تقطرت الأقلام المسمومة فيها بالتشفى (٦) ، وليعزف نشيد « عودة الروح » ، فيعلن للناس أنه عاد . عاد كما

(١) الماثل هنا معناه الظالم .

(٢) بلا ناطل : بلا شيء .

(٣) القاطل : القاطع .

(٤) الرهج الساطل : الغبار المرتفع .

(٥) الرجل العاقل من المال : الخالى منه .

(٦) انظر جريدة الأهرام فى شهرى نوفمبر وديسمبر ١٨٨٢ .

عرفوه زعيما من زعماء الثورة الوطنية ينتصر للرشاد على الظلم
وللعدل على الفى والطغيان . . عاد أبى النفس كريمها لا يقبل المذلة
ولا الضيم . . عاد ليبعثها شعواء على أعدائه وأعداء الوطن ثانية
فيقول من قصيدة العودة :

كل صعب سوى المذلة سهل
وحياة الكريم فى الضيم قتل
ان مر الحمام أعذب وردا
من حياة فيها شقاء وذل
انا راض بترك مالى وأهلى
فالعفاف الثراء والناس أهل
لا يلمنى على الحفيظة قوم
غرم منظر الحياة فضلوا
ألفوا الضيم خشية الموت والبض
سيم لعمري فجع خسيس وثكل
كيف لا أنصر الرشاد على الغيب
ى وعقلى معى والنفس فضل (١)

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

الفصل الثالث

في المنفى

رحلة الفراق الحزينة :

تحت جناح الليل ، وفي سياج من السرية الكاملة حاول الخديو وحكومته أن يخفوا عارهم وهم يخرجون الزعماء المنفيين من الوطن ، فأخذوهم في الظلام خلصة الى قطار أطفئت أنواره في « ثكنات قصر النيل » (١) أسرع بهم تحت الحراسة المشددة الى السويس . وما يكادون ينقلون على عجل الى الباخرة الانجليزية (مريوتس) مربوط المنتظرة في المرفأ حتى تنطلق بهم في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٢ بعيدا عن الوطن ليزول الشبح الذي كان يجثم على صدر الاستعمار والرجعية فيذكرهم بجريمتهم المشتركة في خنق شعب كان يبغى الحرية والاستقلال .

وحانت ساعة الفراق ، ووقف البارودي يلقي نظرة الوداع على الوطن الحبيب ، وحيدا (٢) الا من آلامه التي يتفطر منها فؤاده ،

(١) مكانها الآن مبنى الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربى وفندق هلتون ومبنى جامعة الدول العربية جوار كوبرى قصر النيل .

(٢) لم يصطحب البارودي في نفيه سوى خادمه الاسود « كافور » وكما تقول معلومات الاسرة أنه لم يصطحب زوجته مديلة يكن وبقيت مع اولادها : محمد ، وسميه ، وسميرة ، وسميرة ، وسميرة ، وسميرة وكانوا ما يزالون صغارا ولم تسافر مع زوجها الى سيلان .

حسيرا على آمال مصر التى تحطمت معها آماله ، ملتاعا لفراق
الأهل والولد محزوننا لبعده عن موطنه وملاعب الصبا ومفانى
الشباب والباخرة ترفع مراسيها لتأخذ طريقها الى المنفى البعيد .
ويسجل البارودى فى « لوحة الوداع » الخالدة مشاعره المختلطة
فى اطار حزين ، ألوانها من دموعه ، وظلالها من آلامه ، لكنه لا يستسلم
فيها الى التهالك بل يتلمس الكبرياء له مخرجا للجزع والدموع ،
وتمتزج فيها انفعالاته المختلفة فبينما اليأس يجثم بكآبته على جانب
من جوانب الصبورة يضيء شعاع الأمل جانبها الآخر ، فخرجت
قصيدة « محا البين » فنا جديدا لمبدع يعانى الألم العبقري
يقول فيها :

ولما وقفنا للوداع وأسـبـلت
مدامعنا فوق الترائب كالمن (١)
أهبت بصبرى أن يعود فعزنى
وناديت حلمى أن يشوب فلم يغن
ولم تمض الا خطـرة ثم أقـلعت
بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن (٢)
فكم مهجة من زفرة الوجد فى لظى
وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن (٣)
وما كنت جربت النوى قبل هذه
فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن
وتتدفق على مشاعر البارودى ذكريات الأحداث فيتمثل ما حل
بالوطن من ظلم الرجعية وغدر الاستعمار فلا يجد لنفسه مقاما فيه
ويهتف بقوله :

(١) الترائب : جمع تريبة أعلى الصدر ، والمزن السحاب ذو الماء .

(٢) الخطرة هنا كناية عن اللحظة القصيرة .

(٣) الدجن : المطر الكثير .

وكيف مقامى بين أرض أرى بهـ
من الظلم ما أحنى على الدار والسكن
فسمع أنين الجور قد شك مسمعى
ورؤية وجه الغدر حل عرى جفنى

وتمضى « مريوتس » بالمنفيين الى مصيرهم الجديد فتصل
ميناء « كولومبو » عاصمة جزيرة سرنديب (١) الجديدة فى ٩ يناير
١٨٨٣ ، وكانت أنباء الزعماء المصريين قد سبقتهم اليها فاستقبلتهم
الجزيرة استقبالا حافلا ، واحتفى بهم المسلمون من أهلها احتفاء
كبيرا (٢) . وأعدت لهم حكومة سيلان أربع دور لسكنائهم نزل
البارودى وتابعه « كافور » مع محمود فهمى وأسرتهم فى
واحدة منها (٣) .

من ظلمة النفى والألم تفجر نور الشعر :

طوح القدر بالبارودى الى منفاه وانتهى به الى سرنديب ، وفى
المنفى يبدأ الطور المظلم من حياة البارودى ، أقتات فيه الألم ، ومضغ
اليأس ، وكرع اللوعة ، واجتر الذكريات . كان يطوى على ذلك كله
جوانحه ثم يخرج ليعيش مع الناس والرفاق بنفس تكسوها القوة
وكان الأحداث لم تنل منها . ومن ظلمة النفى تفجر النور فى حياة
الفن والشعر والقصيد ، أمدها « الألم العبرى » بنمير من آياته
البيئات ، وقدحت اللوعة زناد شاعريته فأورت لنا القصائد
الخالديات ، وأثارته الذكريات فغنى لأيامه الخاليات ، ولازمته ربة
الشعر لا تفارقه بعد أن أصبح متفرغا لها فى منفاه يسجل على
قيثارتها خطوات الزمن الوئيدة الثقيلة وهى تدب اليه بأحداثها
فتغير من كل شئ فيه الا شرفه وكرامته ، ولئن كان قول البارودى:

(١) سرنديب وتعرف الآن بسيلان .

(٢) تعداد المسلمين بها وقتئذ حسب تقدير عرابى نحو ٢٥٠ ألف مسلم .

(٣) مذكرات عرابى ج ٢ ص ١٦١ ، البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٤ .

أنظر لقولى تجسد نفسى مصورة

فى صفحتيه فقولى خط تمثالى

صادقا فى حياته الأولى فهو أكثر صدقا فى حياة المنفى ، ذلك لأن شعره كان سلواة ، وكان متنفس همه حين ثقلت وطأة الاغتراب على الرفاق فطارت منهم الألباب ، وروع اليأس قلوبهم فمرضت منهم النفوس ، فلم يجد له ملجأ من كل هذه الآلام والأحزان سوى ربة الشعر يهرع اليها فيترنم واياها بهومومه ، ويستعين بأنغامها على التصبر ان أعوزته الى الصبر وسيلة ، ويتخذ منها رسولا الى النائين عنه بمصر من الأهل والأحباب والولد والصحاب .

كانت ربة الشعر مع البارودى مثال الوفاء وله نعم العزاء ، وقعت له ألعانا من الحزن مختلفة الألوان ، وألهمته أبلغ آياتها لينشدها فى ظلمته العاطفية بمنفاه فأصبح كبلبل الظلماء يردف تغريدا بتغريد ، ويقول شعرا هو أنس المحزون وعزاء الشكالى وسلوة

العاشق ، شعرا يلهم الصبر على المكاره والجلد على الشدائد ويقوى الأمل فى الله ، ويصعد مع أبياته كربة الهم وحرقة الآلام .

يمضه الحنين الى الأهل فيشكو النوى ، ويبين له طيف الوطن فى أروع صورة فيرسمه فى أجمل عبارة ، ولكن الوطن لا يستجيب لدعائه فيحز الأسى فى نفسه ويتوجع . ثم تراجع شركسيته ويثور فى عروقه دم الممالك فيعود الى الفخر . وتتوالى عليه رسل الموت تخبره بوفاة الأهل والأصدقاء فيرثى ويبكى ويسلم أمره الله ، ويلفه الأسى والألم ، ويحيط به اليأس فلا يجد ملجأ من ذلك كله الا فى التوجه بكليته الى الزهد ، ولكنه لا يعثر فيه على الشفاء

فما زالت جراح نفسه تهجمه بالعذاب فيثور ويبلغ بثورته أقصى مداه ، ولكنها ثورة أشبه بصحوة الموت قبل أن يستسلم للقضاء وقد دب اليه الشيب والمرض والعجز فضعف حتى أصبح « أشلاء همة فى ثياب » وغدا « لا يستطيع الثوب يسحبه » وصار يعد

أكفانه من نسيج شعره ، وينشد رثاءه لنفسه وهو يظن أن أحدا
لن يجود على الغريب البعيد برثاء !

وربة الشعر في كل هذه الأطوار مسلمة اليه نفسها مسلسلة له
قيادها ، مادة اليه قيثارها تلهمه وتعزف له ، وتعينه في هذا
المنفى على أن يعيد الى الشعر العربي جدة لا تبلى ، ويزيل عنه
صدا الضعف وأوشاب الانحلال ، ويبعث فيه الروح التي كادت
من ضعفه تهجره ، وتنفت في روعه ليجعل من آلامه وحسراته وثوراته
ويأسه وآماله وحنينه ودموعه وضعفه نسيجا جديدا لثوب الشعر
العربي الحديث ، ومصدرا لبعث جديد . وأداة لنهضة اللغة
السليمة والأدب الرفيع بعد أن لفتهما الأكفان قرابة تسعة قرون.

وما ان يستقر البارودي في منفاه حتى يزوره طيف ابنته سميرة
فيهيج نفسه ، وينكأ جرحه ، وتتداعى اليه الذكريات ، وينشد
أولى قصائده في مستقره الجديد يفرغ ما يموج به صدره من
الانفعالات فيقول فيها :

تأوب طيف من سميرة زائر
وما الطيف الا ما تريه الخواطر
الم ولم يلبث ، وسار وليته
أقام ، ولو طالت على الدياجر
ثم يسترد قواه ولا يدع الضعف يستبد به ، ويسمو بنفسه
فوق النكبة وفوق القوى التي تتآزر على حربه ، فيقول :
فماذا عسى الأعداء أن يتقولوا
على ، وعرضي ناصح الجيب وافر ؟
ملكك عقاب الملك وهي كسيرة
وغادرتها في وكرها وهي طائر

حملة التشهير :

وتهب رياح السموم على البارودى ورفاقه من صحف القاهرة ،
فقد أطلقت الرجعية والاستعمار أقلامهما المسمومة فى « حملة
تشهير » على زعماء الثورة تشويه سمعتهم ، وتلصق بهم التهم ،
وتبث الشبهات فى نفوس الشعب حول صلتهم بالثورة ، وتعزوها
الى « مآرب شخصية ومنافع ذاتية » وتشكك فى وطنية الزعماء ،
وفى اخلاصهم للأمة يوم قادوها الى الثورة ثم الى الحرب . وكانت
التهم التى وجهتها الأقلام المسعورة المأجورة الى البارودى أنه لم
ينضم الى الثورة الا طمعا فى الملك ، وأملا فى أن « يثب الى العرش »
بعد خلع توفيق . وتتألم مشاعر الشاعر للمحاولة الدنيئة التى
تسمى لتشويه ذكرى جهاده الوطنى وهى كل ما بقى له فى الوطن ،
ويرد على متهميه بمطولة ينظم فيها « قصة الثورة » ويحدد مكانه
منها ، فيقول :

يقول أناس ، اننى ثرت خالعا
وتلك هنات لم تكن من خلائقى (١)
ولكننى ناديت بالعادل طالبا
رضا الله واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف ، وأنكرت منكرا
وذلك حكم فى رقاب الخلائق
فان كان عصيانا قيامى ، فأئننى
أردت بعصيانى اطاعة خالقى
وهل دعوة الشورى على غضاضة
وفيهما لمن يبغى الهدى كل فارق ؟
بلى ! انها فرض من الله واجب
على كل حى من مسوق وسائق

(١) المراد بالخلق هنا خلق توفيق ليخلفه فى الملك .

ويمضى فيبين للناس والتاريخ كيف قامت الثورة تحارب الظلم
والظغيان ، وكيف وقفت الأمة صفا واحدا من وراء زعماء الثورة
تؤيدهم فيقول :

فلما استمر الظلم قامت عصا
من الجند تسعى تحت ظل الخوافق
وشايعهم أهل البلاد ، فأقبلوا
اليهم سراعا بين آت ولاحق
يرومون من مولى البلاد نفاذ ما
تألاه من وعد الى الناس صادق
فهذا هو الحق المبين ، فلا تسئل
سواى ، فأنى عالم بالحقائق

واذا كانت الحقائق كلها تشير الى أن البارودى حين نصبته
الثورة مستشارا لها ثم زعيما من زعمائها لم ينضم اليها لتحقيق
مأرب يراوده أو ليتخذها سلما للوصول الى مطامعه ، فأننا
لا نستطيع أن نبرئه براءة كاملة من تطلعه الى الملك فى فترة خاصة
من حياته هى فترة شبابه . وفى يقينى أن البارودى فى الطور الأول
من شبابه وهو يعمل ياورا لأسماعيل وكبيرا لياوران توفيق
(ولى العهد) (١) ، كان يرى نفسه بما ملكت من شجاعة ورأى أحق
بالملك من هؤلاء الذين يجلسون على دسسته تقودهم لذاتهم ويستشرى
الفساد فيهم ويستولى على عقولهم الأفن والخبل ، ومن ثم راوده
طموح الشباب وأحلامه ، وتمنى ملك مصر ليقود البلاد الى حياة
أفضل يسود فيها العدل والمساواة والشورى . كانت أمانى الشباب
وأحلام الفتوة ، لكنه لم يكن يملك من الوسائل والامكانيات ما يحققها
فظلت فى حدود نفسه وعواطفه لا تخرج الى الوجود الا قولا فى
شعره ، وحين بدأت الثورة تخرج من حيز التفكير والتدبير الى

(١) فيما بين ١٨٦٣ - ١٨٧٥ وكانت سنة ما بين ٢٤ ، ٣٦ سنة .

الوجود الفعلى كقوة فى عالم الأمة وجد البارودى - كما سبق - أنه لا يملك مقومات الزعامة الشعبية التى يملكها أحمد عرابى فألقى إليه بزمامها وبأبعه بالزعامة وقبل أن يكون الرجل الثانى فى التنظيم الثورى ، وهو الوزير ثم رئيس الوزراء .

وخلال الأزمة الدستورية التى انتهت باستقالة وزارة شريف (فبراير ١٨٨٢) وحين وقف الخديو وشريف فى صف « المراقبين المالىين » ضد مجلس النواب وتجاوبت الأصداء بالتخلص من الأسرة الدخيلة كلها ، اتجهت الأنظار الى البارودى ليكون خلفا لتوفيق ، ولكنه عزف عن المنصب وزهد فيه حفاظا على وحدة الصف الوطنى فهناك من هو أحق بالملك منه ان كان ثمة تغير ، وذهب البارودى الى عرابى - كما يقول عرابى نفسه « ثم أقسم لى أنه مستعد لأن يضحى بحياته ويوجد بأخر قطرة من دمه فى سبيل الوطن ، وأن يجرد حسامه وينادى باسمى خديويا لمصر (١) » .

وكان البارودى أول من فكر فى قلب نظام الحكم فى مصر الى جمهورية مستقلة عن تركيا ، حيادية كسويسرا (٢) وآمن بأن ذلك أفضل أنواع الحكم فى بلد كمصر ، وأصبحت الفكرة عقيدة يدعو لها وأملا يكرس حياته من أجله ، ليتحقق قبل أن يموت (٣) ومن ثم لم يكن ذلك الأمل هو الوثوب الى العرش كما ادعته « حملات التشهير » - وانقاد لها بعض المؤرخين - لتشكك فى اخلاص الرجل ولتحيطه بظلال من التهم فتحطم مجده الوطنى ، وقد اعترف للبارودى زملاء الجهاد ورجال « الحزب الوطنى » وزعماء الثورة بالفضل وبأن الحركة الوطنية تدين له بالكثير ، وما داخلتهم ريبة ولا طاف بهم خاطر من شك فيما ألصقته به أقلام التشهير التى انطلقت مسعورة

(١) كشف الستار ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) التاريخ السرى ص ٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق .

تلتطخ سمعته وسمعة الزعماء جميعا ، فيقول عنه عبد الله النديم « وقام محمود سامي بما بيض تاريخه الجليل ، وحفظ له الذكر الجميل ، فله اليد البيضاء أيام التأسيس مما أتاه من كل أمر نفيس ، فطالما سهر الليالي الطوال وتحمل الحمل والاثقال ، وحارب رياضا وحيدا وظاهر الخديو فريدا ، وبذل جهده في منع التخالف وجمع الأجناد على التحالف ، ورضى أن يكون قائدا تحت الإدارة وأغمض عن كونه رئيس الوزراء (١) » .

ويقول عنه أحد الصحفيين الذين خالطوا رجال الثورة وعاشوا معهم الفترة العصيبة من الجهاد الوطني ، وعرفوا البارودي عن قرب (٢) « . . وقد ظهر لي أننا كنا مخطئين في تقدير محمود (باشا) سامي ، فأنى تحدثت معه كثيرا ، وسألت عنه حتى من أعدائه ، فعلمت أنه كان من زعماء الحركة الوطنية منذ عهد اسماعيل ، وقد كابد كثيرا من المشاق لأجل آرائه ، ولكنه لم يتزعزع ، وكثيرون من الحزب الوطني مثل عبد الله النديم ومحمد عبده بل وعرابي نفسه يعترفون بأنهم مدينون بمساعدته لهم وولائه للحركة الوطنية . وقد أغراه اسماعيل على أن يترك الحزب ، وعرض عليه المال ولكنه رفض ، وهو ينفق الآن جميع إيراده الضخم على الحزب ، ومنزله أشبه بقافلة حطت رحالها في الطريق . أما حياته الشخصية فحياة فيلسوف ، لا ينفق شيئا على نفسه ، وهو قانع راض بما يأتي به القدر . . وكرهية الأثر له دليل على وطنيته » .

لم يخف اخلاص البارودي للثورة ومبادئها عن الوطنيين أو الأجانب على السواء ، ومن الذين خابروه عن قرب « بلنت » صديق الزعماء ويقول عنه : « محمود سامي كان دستوريا متحمسا ومصلحا ووطنيا صادقا ، أما من حيث مواهبه فقد كان أسامي

(١) مذكرات عبد الله النديم السياسية ص ٧٥ .

(٢) لويس صابونجي مراسل بلنت من خطاب له الى بلنت في ١١ يونيو

١٨٨٢ أنظر التاريخ السري ص ٢٤٣ .

بكثير من عرابي ، بل كان من أعظم الناس علما وتهذيبا في مصر ، فقد كان متبحرا في آداب اللغتين التركية والعربية كما أنه كان حجة في تاريخ مصر ، وهذا كله فضلا عن مواهبه الشعرية العظيمة الممتازة . . وقد كان الدور الذي قام به في الثورة الوطنية دور اخلاص لمبادئه الدستورية وللحركة الوطنية . وقد دفع بسبب اخلاصه ثمنا غاليا فأته كان غنيا ومن ثم تعرض لخسارة كبرى بعد الهزيمة (١) . من ذلك كله نستطيع أن تؤكد أن البارودي لم يتخذ الثورة مطية لأغراضه . ويعود البارودي الى « حملة التشهير » فإرد على افتراءاتها بقوة في مطولة ثانية يثبت فيها ويؤكد أن ثورته كانت دفاعا عن دينه ووطنه خالصة لوجه الله فيقول فيها :

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
ذنب أدان به ظلما وأغترب
أثريت مجدا ، فلم أعبأ بما سلبت
أيدي الحوادث مني ، فهو مكتسب
وما أبالي ونفسي غير خاطئة
إذا تخرص أقوام وان كذبوا
ها انها فرية ، قد كان باء بهـ
في ثوب يوسف من قبلي دم كذب
ويوجه سهام هجائه الى صدور أعدائه من رجال الحكم الرجعي
الذين دفعهم التشفي والحق الى تشويه جهاده ويفخر عليهم في
مطولة ثالثة يقول فيها :

فلا يسر عداتي ما بليت بهـ
فسوف نفني ويبقى ذكرى الحسن (٢)

(١) التاريخ السري ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) عداة : جمع عاد وهو المعتدى والمعادي .

ظنوا ابتعادى اعقلا لمنقبتى
وذاك عز لها لو أنهم فطنوا (١)
يخفون من حسد ما فى نفوسهم
ويظهرون خداعا غير ما بطنوا
بلوتهم فسئمت العيش وانصرفت
نفسى عن الناس حتى ليس لى شجن
فان يكن فاتنى ما كنت املكه
فالبعد عنهم لما أتلفته ثمن (٢)

الوحدة ومواكب الأحزان فى النفى :

وتمر الأعوام ثقيلة الخطى على الزعماء فى المنفى فتضيق صدورهم
بالاغتراب ، وينال المناخ الاستوائى منهم فتعتل أبدانهم وتهاجمهم
الأمراض . وتشغل الحياة الأهل والصحاب فتقل الرسائل اليهم
فيظنون أن النسيان قد جر ذيله عليهم . ويتمثلون الأبدية فى النفى
فتلهع نفوسهم ، ويجثم عليهم غول الفراغ فتتأثر معنوياتهم ، وتدب
الفرقة ، ويقبل بعضهم على بعض يتلاومون وتستشرى الخصومة
حتى يقع بينهم الشقاق (٣) ، فيعتزلهم البارودى ومنازعاتهم وهو
يعلم أنها محنة الأعصاب المشدودة أرهقتها الغربة والفراغ ، ويسكن
البارودى وحده فى منزل على ربوة عالية بمنأى عن المتخاصمين
فتزيد الوحدة من آلامه ويطول به السهاد ، ويتلفت حوله فلا يجد
من يؤنس الا خادمه كافورا فيلم به طائف من الحسرة على نفسه
يصورها فى قوله :

وما كنت أخشى أن أعيش بغربة
يعلننى فيها خويدم أسود

(١) اعقلا لمنقبتى : حبسا لكریم افعالى .

(٢) هذه الابيات لم يسبق نشرها .

(٣) انظر تفاصيل النزاع فى البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٩ .

ويقضى البارودى أولى لياليه فى مستقره الجديد عليلا يعالج
ما يلقاه من لوعة وحده ، وتنتابه الآلام وكأنها أنياب حيات تنهشه ،
ويدور بعينيه فلا يجد من يخفف عنه أوصابه وعذابه ، ثم يرى
سيفه وقد علاه الصدا فى غمده فتهيج ذكرياته ويناجيه فيقول :
أقول له والجفن يكسو نجاده

دموعا كمرفض الجمان من العقد
لقد كنت لى عوناً على الدهر مرة
فما لى أراك اليوم منثلم الحـد ؟

وترثى ربة الشعر للوحيد العانى وتخشى عليه كتمان ما به من
عذاب وألم فتسعه وتغزف له الألحان ليغنى ويصعد فى غنائيه
بركان الألم الذى تنطوى عليه نفسه فريحها ، وتتخير له فيما تتخير
لحن « العزلة على قمة الجبل » فيرسمها لوحة من أروع دورته فى
مطولة تنبض بالحركة والحياة يقول فيها :

أبيت منفرداً فى رأس شاهقة

مثل القطامى فوق المربأ العالى (١)

فلو ترانى وبردى بالنـدى لثق

لخلتنى فرخ طير بين أدغال (٢)

لا يستطيع انطلاقا من غيابته

كأنما هو معقول بعقـال

فذاك مثلى ، ولم أظلم وربتما

فضلته بجوى حزن واعوال

شوق ونأى وتبريح ومعتبـة

يا للحمية من غدرى واهمالى

وتتخير ربة الشعر له لحن « ليلة الذكريات » فيغنيه فى مطولة

مطلعها :

(١) القطامى : الصقر ، المربأ : المكان الذى يقف فيه من يرقب .

(٢) اللثق : المبتل .

هل من طبيب لداء الحب أوراقى
يشفى عليلاً أخاً حزن وإراق

يذكر فيها الحزن الذى براه والأشواق التى رعت كبده ، ونجوم
الليل التى يرعاها وكأنما شدت إليها عيونه ، وتطوف به ذكريات
الوطن فيدعو الله ألا تمسه بائحة ، ويهفو الى نسمة من جو مصر
العبق حمى قومه ومنبت آدابه وأعراقه ، ويصور الالهة والشوق
اليها فى قوله :

أصبو اليها على بعد ، ويعجبني
انى أعيش بها فى ثوب املاق

ويقبل عام ١٨٨٥ ، وتزحف معه على البارودى مواكب الأحزان
فيتخطف الموت زوجته بالقاهرة ، وتعتصر المنون شبابها ولما تجاوز
السابعة والثلاثين ، وكانت قد أمرضها الحزن وهري كبدها الأسى
وفتت مرارتها الألم منذ فراق الزوج الحبيب (١) ، فلقيت ربها
شهيدة الحب والوفاء ، ولم تكن قد أخبرته فى رسائلها بأمر هذا
المرض حتى لا تضيف الى عذاب الغربة عذاب التألم من أجلها (٢) .
ويفجأ البارودى الناعى بالخبر فينزل عليه نزول الصاعقة وتدركه
ربة الشعر بقيثارتها تنشد له « نشيد الرثاء » حتى لا يبخل نفسه
على أثرها ، فيصف نفسه حين وافاه الخبر فى قوله :

ورد البريد بغير ما أملتـه
تعس البريد ، وشاه وجه الحادى
فسقطت مفشياً على كأنمـا
نهشت صميم القلب حيسة وادى

(١) تقول مذكرات الاسرة الخاصة ان عديلة زوجة البارودى ولدت
عام ١٨٤٨ ومرضت باليرقان أو المرض الأصفر وبالكبد والمرارة بعد نفى زوجها
حزناً عليه .

(٢) مذكرات الاسرة .

ويطحن البارودي الأسى لفراق « زهرة حياته » ويكاد يقضى عليه ، ويسحقه الحزن عليها حتى يوهن عزمه ويحطم عوده كما يقول:

أبليتني الحشرات حتى لم يك
جسمي يلوح لأعين العواد

وتتمثل له زوجته فيتحدث اليها وكأنه يناجيها أو يناغيها ، ثم يهلع من صورتها في جوف القبر المعتم ، ويتمنى لو أن هناك فداء لفداها فيقول :

أسيلة القمرين ! أي فجيعة
حلت لفقدك بين هذا النادى ؟
أعزز على بأن أراك رهينة
في جوف أغبر قاتم الأسداد
لو كان هذا الدهر يقبل فدية
بالنفس عنك ، لكنت أول فادى

ويعتب البارودي على الدهر ويستنكر منه فجيعة في حليته وكانت عدته في الحياة ، ويفكر في بناته الصغار ويسائل الدهر اذ كان مغاضبا له ومحاربا : أفلا رق لصغاره وقد تركن محترقات القلوب باكيات العيون وحيدات لا يرعاهن أحد فيقول :

يا دهر فيم فجعتني بحيلة ؟
كانت خلاصة عدتى وعتادى
ان كنت لم ترحم ضنأى لبعدها

أفلا رحمت من الأسى أولادى

ومطولة البارودي التى يبكى فيها زوجته الحبيبة ويندبها على البعد من نادر الشعر العربى ، فقليل ما رثى الشعراء العرب زوجاتهم ذلك لأن رثاء النساء لم يكن مألوفا في البيئة العربية . ورثاء البارودي لزوجته من الشعر الذى يسميه الغربيون بشعر « العلاقة العائلية الباطنة » وقد استطاع البارودي أن يصور الحزن

الحقيقى على الحبيب الفقيد حتى ليكاد المرء يحس من القصيدة
لهفة الشاعر وقد وهن عزمه فى عباراته ويشعر بجمرات الحزن
فى كلماته ، ويرى الدموع مدرارا على وسادته ، والحزن فى القصيدة
حزن عميق جدير بأن يعد نموذجا فى الشعر العربى للعاطفة الصادقة
بين الزوج وزوجه ، وللعلاقة القوية التى مزجت بين روحيهما
وحياتيهما حتى لتخال كلا منهما شطر الآخر وجزءا منه لا يتشهى
الحياة بدونه ، ويكاد يقضى أحدهما ان قضى الآخر .

ولا يترك القدر البارودى يفيق من صدمة وفاة زوجته حتى
يلاحقه بأخرى ، فينشب الموت أظفاره فى شباب ابنته « ستيرة » (١) ،
ويأتى نعيها الى الأب المنكوب فى المنفى فلا يجد فى قلبه موصفا لمزيد
من الآلام ، ولا فى مقلتيه فضلة من دموع ، ويستنجد بشعره يسكب
فيه حزنه ويندب به ابنته فيعصاه القريض ولا تجود عليه ربة الشعر
بغير بيتين اثنين :

فزعت الى الدموع فلم تجبني
وفقد الدمع عند الحزن داء
وما قصرت من جـزع ولكن
إذا غلب الأسى ذهب البكاء

ويدرك يعقوب سامى أن رئيسه السابق وزميله فى الاغتراب
وشريك النكبة يكاد يودى به الأسى ويوشك الحزن أن يقضى عليه
فيحاول - فى هدنة من مواكب الأحزان - أن يأسو جراح صديقه
ويخفف من نكباته وآلامه ، فيزوجه بابنته « أمينة » أواخر
عام ١٨٨٥ (٢) . وتتحمل الزوجة الصغيرة (٣) مسئوليتها بشجاعة
فتبذل من ذات نفسها ومن قلبها الكثير للزوج العانى الكسير ،

(١) معلومات الأسرة .

(٢) مذكرات الأسرة الخاصة .

(٣) تزوجت وعمرها ٢٩ سنة .

وتمنحه الرفقة المؤنسة والحب الصادق ، وتعطيه الأهل والولد ،
وتتمكن من أن تنفذ الى ظلمة نفسه فتضيء بعض جوانبها ، وتخفف
عنها بعض ما تحمل ، ولكنها لم تستطع أن تعيد اليه ابتسامته وقد
ضاعت الى الأبد ، أو ترد اليه نفسه وقد ذهبت حشرات .

ثم تتجدد على البارودي مواكب الأحزان وتنقضي سريعا فترة
الهدنة التي عقدتها معه الأيام فيأتيه البريد تباعا من مصر يحمل
الناعي فيه موت الصاحب والاخلاء وتكر صولة الأحداث على أهله
وأترابه فتسكنهم القبور وهو ناء بعيد . ففي عام ١٨٨٩ يغتال الردي
صديقه الكاتب الشاعر عبد الله فكرى خدن شبابه ، ورفيق ندواته
الأدبية ، ووزيره للمعارف في وزارة الثورة ، ثم يقف على آثاره
في نفس العام بالعالم الأديب الشيخ حسين المرصفي أستاذه ومفقهه،
ويحزن البارودي على صديقيه حتى يمضيه الحزن ويبكيهما حتى
تتقرح مقلتاها ويبكي معهما الوطن المفقود وعمره الضائع . فيرثي
نفسه وهو يرثي صاحبيه ويرسم صورة هذا الطور من عمره بريشة
فنان مبدع خلق من الألفاظ ألوانا لريشته وأحال أحزانه الى ظلال
لصورته فيقول :

أخلق الشيب جدتي وكساني

خلعة منه رثة الجلباب

ولوى شعر حاجبي على عيب

سني حتى أطال كالهـدـاب (١)

لا أرى الشيء حين يسـنـح الا

كخيـال كائنـي في ضـباب

واذا ما دعيت حـرت ، كـأنـي

أسمع الصوت من وراء حـجاب

كلما رمت نهضة أقـبـدتنـي

ونـيـة لا تـقـلـها أعـصابـي

(١) الهداب : مفرد أهداب وهو خيل الثياب .

لم تدع صولة الحوادث منى
غير أشلاء همة في ثياب
فجعتنى بوالسدى وأهلى
ثم أنحت تكسر فى أترابى
كل يوم يزول عنى حبيب
يا لقلبى من فرقة الأحباب
أين منى حسين ؟ بل أين عبد الله
ه رب الكمال والآداب

فى كندى :

ويهد الحزن والمحن من البارودى قوته ، ويدب الضعف والوهن
فى جسده ، وتمتد ظلمة حظه الى عينيه فتصاب قرنيته برشح
ياخذ نورها شيئاً فشيئاً ، ويقرر الأطباء عدم ملائمة جو كولومبو
لصحته فينزع هو وأسرته الجديدة الى « كندى » عام ١٨٩٠ (١)
وقد بلغ من العمر احدى وخمسين سنة . « ومناخ كندى قريب
من مناخ مصر زمن الربيع ، ويسترد البارودى بعض عافيته فى
كندى ، وتستجيب روحه لجمال الطبيعة فيها حتى ليخيل اليه
أنه تسلى عما يعانيه من عذاب كما يقول « فلما حلت بواديهما وسرت
فى بواديهما ، تلاهيت عما أجده من الحرقة وأتجرعه من مرارة
الفرقة (٢) » .

لم يفتر حنين البارودى الى الوطن لحظة طوال أعوام النفى ،
ولم تخف وطأة آلامه يوماً من أيام محنة الاغتراب ، ولكننا نلاحظ
بعد انتقاله الى « كندى » تطوراً فى معنوياته ، وتغيراً فى مواجهته
النفسية للأمور ، فقد بدأ يتطامن للدهر ويستسلم لصولة الأحداث ،
ويظهر ذلك أكثر ما يظهر بعد أن فشلت الوساطة التى قام بها

(١) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٥ ، وكندى على بعد ٧٣ ميلاً من كولومبو .

(٢) مقدمة الديوان « الجارم » (نموذج من خطه) ص ٤٦ .

« سير وليم جريجورى » كاتم أسرار ملكة بريطانيا وصديق الزعماء منذ سنوات الثورة وحاكم سيلان السابق ، وكان قد زارهم فى سيلان (١) ، ورأى ما فعلته الغربية والمناخ الاستوائى بأصدقائه القدامى فحاول : أن يساعدهم بنفوذه ، ويسعى فى عودتهم الى الوطن أو نقلهم الى قبرص « لموافقة هوائها لهواء مصر مراعاة لصحتهم بعد أن قرر الأطباء أن المناخ لا يناسبهم ، ولكن الحكومة المصرية وعلى أريكتها توفيق ويرأس وزارتها رياض خشيت على نفسها ان عاد الزعماء أن تعود للشعب يقظته ، ويثور على الظلم والاستعمار من جديد ، وهى تود أن يظل « العملاق » فى ركوده ونومته مستسلما لجلاديه من قبل الاحتلال ، وكتب رياض الى الحكومة البريطانية « ان الحكومة المصرية لا تقبل فى الحال ولا فى الاستقبال عودة المنفيين مادام الخديو الحالى موجودا على الأريكة المصرية لأن عودتهم تسبب الضرر والاختلال فى ادارة الحكومة والارتباك والفساد بين الشعب (٢) . »

ويذهب رفض الحكومة المصرية عودة الزعماء ببقية الأمل التى ظلت كشعاع الضوء ينير ظلمة منقاهم ، ويأتى اليأس على ما بقى من عافية البارودى حتى لا يكاد يقوى على أن يجر ثوبه أو يخط قلمه ويضعف من معنوياته فيصور ذلك فى قوله :

أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه
وقد أكون وضافى الدرع سربالى
ولا تكاد يدى تجرى شبا قلمى
وكان طوع بنانى كل عسال (٣)

(١) عام ١٨٩١ ، وله أملاك بسيلان انظر البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٧ .
(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٨ ، انظر أيضا مذكرات عرابى ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ .
(٣) الشبا : الطرف ، العسال : الرمح المهتز .

ويشغل البارودي نفسه بالقراءة والتعليم فيتعلم اللغة الانجليزية حتى يبرع فيها قراءة وكتابة ، و يترجم منها جملة موضوعات الى اللغة العربية ، ويعلم بعض المسلمين من أهل سرنديب اللغة العربية قراءة وكتابة ليعرفوا لغة دينهم الحنيف ، ويقرأ لهم الكتب الدينية ليثقفهم ويصرهم فيه ، ويؤم المسلمين في صلاة الجمعة ويعتلى المنابر في مساجد المدينة (١) . ويعطى لأولاده وبناته الجزء الأكبر من اهتمامه وقد رزق في سرنديب بقمرية (٢) ، وفاطمة (٣) ، وزينب (٤) ، ومشيرة (٥) ، وأشرف (٦) وإبراهيم كمال (٧) . واستقدم للفتيات (٨) مدرسة كان أبوها قسيسا انجليزيا من كنيسة المدينة فعلمتهم اللغة الانجليزية ، ودربت الفتيات على التطريز والحركات التوقيعية والموسيقى ، ولم يسجل البارودي أولاده في سجل مواليد سيلان لكيلا يعدوا من الرعايا البريطانيين .

تيار الزهد في حياة البارودي :

ونلاحظ تطورا آخر في حياة البارودي النفسية بعد قدومه الى « كندی » ذلك أن عاطفته الدينية أخذت تقوى وتنمو ، فخطب في المساجد أيام الجمعة ووعظ الناس فيها وقرأ لهم الكتب الدينية ، وزهد في متاع الدنيا واتجه الى ربه يطلب وجهه ويلوذ بكنفه وحماه عسى أن يرفع عنه الضر والمحن التي تكاثرت عليه ، ويخفف الخطوب التي أناخت بكلكلها على حياته . وفي قصيدته « الام يهفو بحلمك

(١) مراثى الشعراء ص ١٩ .

(٢) توفيت في أغسطس ١٩٣٩ .

(٣) ما زالت على قيد الحياة .

(٤) توفيت في يناير ١٩٦٥ .

(٥) ما زالت على قيد الحياة .

(٦) توفى في يناير ١٩٥٩ .

(٧) توفى في مارس ١٩٣٣ .

(٨) كان الأولاد الذكور صغارا حين عاد البارودي الى مصر ١٨٩٩ .

الطرب (١) « يظهر تسلط فكرة الموت عليه ويخرج من هذا التفكير
بفلسفة الزهد التى تجعل العاقل من يكف نفسه عن اللهو ودواعيه،
ويخلص روحه لربه ويتوب اليه قبل المندمة ويعتاد الخير ، ويجود
بما حوت يداه .

ويستغرقه البحث فى تعاقب الزمان وفى الموت وموقف الانسان
منهما ويبحث فى الذين خلوا من قبل وكيف حصدتهم يد المتون فى
قصيدته التى يبدؤها بقوله :

أى شىء يبقى على الحدثان	والمنايا خصيمة الحيوان
قد باونا كيد الزمان ولكن	شغلتنا عنه ضروب الأمانى
أين من كان قبلنا منذ دارت	كرة الأرض وهى ذات دخان
أمم أخلدت الى الدهر حيناً	ثم ضاعت فى لجة النسيان (٢)

ويجأ البارودى الى الله ويستغيث به ليقيله من عثرته ، ويشكو
اليه طول شوقه لوطنه ويسأله أن يحل وثاقه ويفك أسرهِ فيقول
فى قصيدة أخرى :

يارب قد طال بى شوقى الى وطنى
فاحل وثاقى وألحقنى بأشباهى
وامتن على بفضل منك يعصمنى
من كل سوء فانى عاجز واهى
هذا دعائى وحسبى أنت من حكم
يعنو له كل شاه أو شهنشاه (٣)

(١) الديوان (الجارم) ج ١ ص ٨٤ .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٣) شاه : كلمة فارسية معناها ملك وشاهنشاه : لقب الملوك الساسانيين .

هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

ويقوى الزهد عند البارودي ويشد حتى يكاد يصل به الى
اعتاب التصوف فيحس بنور الحكمة يغمر قلبه بعد أن وهب نفسه
لله ويشعر من شدة وجدده أنه في حبه أمة وحده كما يقول :

دينى الحنيف وربى الله	وشهادتى أن ليس الا هو
لا جاه لى الا بطاعته	ولنعم عقبى الطاعة الجاه
أنا خاشع لجلال قدرته	متقلب الجنبين أواه
زهت القلوب بنور حكمته	وتعطرت بالذكر أفواه
أنا أمة وحدى على سرف	في حبه والناس أشباه
ان تاد غيرى بالزمان فلى	قاب بذكر الله تياه (١)

ويتوسل الى الله بنبيه صلى الله عليه وسلم في قصيدة «يا صارم
اللحظ من أغراك بالمهج» وهى من أعذب الحانه وأسلسها يشكو فيها
بثه وحزنه ، ويحن شوقا لزيارة مقام الرسول ولكن ضعف الحيلة
وقيود النفى تقف به عن صلة الآمال فيستجير به ليفك أسرهِ
ويرحمه من عذابه . ثم ينظم فى الرسول ملحمة الكبرى التى سماها
« كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » (٢) وهى أطول قصائده وتبلغ
٤٤٧ بيتا ، ويقول فى مقدمتها « فهذه قصيدة ضمنيتها سيرة النبى
صلى الله عليه وسلم من حين مولده الكريم الى يوم انتقاله الى جوار
ربه ، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام وسميتها (كشف الغمة فى
مدح سيد الأمة) . والقصيدة على وزن « نهج البردة » للبوصيرى
ولو أنه لم يثبت أن البارودى قصد معارضتها ، وهى تختلف فى
النسق عن « نهج البردة » ذلك أن «كشف الغمة» سايرت الحوادث
فى حياة الرسول وفقا لما قصه ابن هشام فى سيرته ومن ثم فهى
تمتاز بالترتيب ، أما البوصيرى فقد أطاع خواطره الطارئة ، وقدم

(١) هذه الابيات لم يسبق نشرها .

(٢) طبعت بمطبعة الجريدة - سراى البارودى بغيط العدة بمصر -

سنة ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م .

بعض الحوادث على بعض فتكلم عن الرسول وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكر ميلاده .

والترتيب الذي سار عليه البارودي ليس ميزة فنية فقد قيد انطلاق عواطفه ووجدانه ، وحدد فنيته في إطار مرسوم ففترت العاطفة الشعرية في أكثر القصيدة وأصبحت منظومة تاريخية كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون ، ونجد حرارة العاطفة تعود إلى الشعر عندما يناجي وجدانه فيتشوق إلى الرسول أو يصف ما أضناه من الخطوب ، وما منى به من النفي والإقامة في بلد يعبد أهله الصنم يعيش فيها مع القلق ، ويقتات الألم والعذاب ، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ولم يسمع غير أصداء نفسه كما قال :

تكاءدتنى خطوب لو رميت بها
مناكب الأرض لم تثبت على قدم (١)
في بلدة مثل جوف العير لست أرى
فيها سوى أمم تحنو على صنم (٢)
لا استقر بها إلا على قلق
ولا ألد بها إلا على ألم
إذا تلفت حولى لم أجسد أثرا
إلا خيالي ولم أسمع سوى كلمى

ولا ندعى أن النفي هو الذي وجه البارودي الوجهة الدينية أو سار به في تيار الزهد ، فشعر الزهد ظهر في شباب البارودي كما ظهر في شيخوخته ، وقاله قبل النفي كما قاله بعده ، غير أن النفي نمت هذا الاتجاه وقواه عنده ، ومن قصائد الزهد التي قالها في شبابه وحدد تاريخها (١٨٧٤) تلك التي يقول فيها :

(١) تكاءدتنى : شقت على وأضنتنى .
(٢) جوف العير : واد خال من السكان وذلك كناية عن خلو سرقديب من أسرته وأحبابه .

ما اطيب العيش لولا انه فانى
 تبلى النفوس ولا يبلى الجديدان
 قد كنت فى غرة حتى اذا انقشعت
 ابقت تباريح لا تنفك تغشاني
 ان الثلاثين والخمس التى عرضت
 ثنت قواى وفلت غرب أشجاني
 يا نفس لا تذهبي بأسا بما كسبت
 يداك فالله ذو من وغفران
 يعفو عن الذنب حتى يستوى كرما
 لديه ذو العمل المبرور والجاني (١)

مراسلات البارودى فى المنفى :

وتظل قوافى البارودى مدة المنفى « رسائل الأهل والصحاب »
 وذوى الأدب والعرفان من مصر وغيرها (٢) لما بينهم وبينه من الصلة
 الروحية (٣) ، فكانت تؤنس وحشته حيناً وتذكى الشوق والحنين
 فى قلبه أكثر الأحياء ، وكتب اليه الأدباء والعلماء من شتى البلاد
 العربية والإسلامية يخطبون وده ، ويستنشدون شعره ، ويواسونه
 فى محنته ومن هؤلاء عالم أديب من الهند يدعى « عليا » كتب شعرا
 يمدح به البارودى ويتألف نفسه فيجيبه البارودى فى مطولته
 « قليل بآداب المودة من يفى » (٤) يشكر له مودته وصلته .

(١) فى الديوان غير ما ذكر أكثر من تسع قصائد فى الزهد قالها قبل المنفى
 انظر الديوان (الجارم) ج ١ ص ٩٦ ، ١٢٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٢٧ ، ج ٢
 ص ١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٣٤٧ .

(٢) كان يكتب اليه الفريد سكاون بلنت ، سير وليم جريجورى ، لويس
 صابونجى ، أحمد فارس الشدياق ، برودلى المحامى من خارج مصر . وقد
 كانت بعض رسائله الى بلنت وبرودلى بعد السنوات الأولى من المنفى بالانجليزية .
 (٣) مرثى الشعراء ص ١٩ .

(٤) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ٢٦٤ .

وكان « الأمير شكيب أرسلان » صبيا ناشئا إبان الثورة العراقية ، وراه الشيخ محمد عبده - أثناء منفاه ببيروت عقب الهزيمة - تلميذا في مدرسة الحكمة أواخر عام ١٨٨٦ (١) ، وسمعه ينشد الشعر فشجعه وأثنى عليه ثم « وجهه الى شعر البارودي في الوسيلة الأدبية فطالعه وحفظه وأعجب به قلبه » (٢) ، وكان شكيب الشاعر الناشئ يتلفت حوله يبحث عن المثل في معاصريه من الشعراء ليحتذيه ، وما ان هداه الشيخ محمد عبده الى امام الشعر ورائد الشعراء في عصره حتى وجد في شعره ضالته ، وبدأ يتخذه أستاذا ومثلا ، كما يقول : « فلما قرأنا شعر محمود سامي سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهد لها في أنفسنا من قبل ان عرفناه ، وعلمنا أن في المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين ، وان يسامي بنفسه أنفاسهم ، وكنا من قبل محمود سامي نظن الأولين غاية لا تدرك ، وبقي فينا هذا الاعتقاد الى أن ظفرنا بشعر محمود سامي ، وحفظنا جميع قصائده التي في « الوسيلة الأدبية » لا نخرم منها بيتا واحدا . وكان حفظنا لها من أقوى عوامل الشعر فينا . . . ولذلك كنت أنا أراني خريجا في الشعر لمحمود سامي البارودي (٣) » . ويكتب شكيب الى البارودي في منفاه .

ويمتد حبل المراسلات الشعرية بينهما ، وشكيب لا ينسى في كل قصائده عن إثارة الكرم النفسى عند البارودي فيطوقه بجميل المدح والتمجيد ، ويضعه في المكان الأسمى من مملكة الشعر فيرد البارودي مدحا بمدح وتمجيذا بتمجيد ، وينشر شكيب الرسائل في المجلات الأدبية ، ويقرأ الناس ويتحرك سهم شكيب الى أعلى ، ويخرج صيته من الاقليمية المحدودة الى صعيد العالم العربى والاسلامى

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٤٠٠ .

(٢) أحمد الشرباصى (أمير البيان شكيب أرسلان ج ١ ص ٢٥٢) .

(٣) شكيب أرسلان : شوقى أو صداقة أربعين عاما (١٩٣٦)

ص ١٠١ - ١٠٤ .

كله ، ويعترف شكيب بالجميل فيعلن « أن البارودى امامه فى الشعر » (١) ويشعر البارودى - على البعد - أن شكيبا يتفق معه فى المنهج والمثرب وانه يترسم خطاه فى المنحى والأسلوب ، ويحس فى رسائله حرارة الأخلص فى الود فتقوى الصلة بينهما ، وينطلق البارودى معه على سجيته وتظل ربة الشعر تطير بينهما بالرسائل الى مابعد عودة البارودى من منفاه .

وهناك صديق العمر ورفيق الجهاد « الشيخ محمد عبده » تبادل مع البارودى الرسائل فى المنفى ، وعلاقة البارودى بالأستاذ الأمام علاقة تضرب فى بطون السنوات ، بدأت فى مجالس الأدب التى كانت تعقد بدار البارودى بعد عودته من القسطنطينية فى الستينيات من القرن الماضى ، وكان يؤمها شعراء العصر وأدباؤه ، ثم امتدت الى مجالس جمال الدين وندواته فى السبعينيات من ذلك القرن ، واقتراح البارودى على مصطفى رياض رئيس الوزراء حين أراد النهوض بجريدة الوقائع المصرية أن يعين لها الشيخ محمد عبده محررا ، وشارك الشيخ محمد عبده صديقه البارودى وهو وزير للأوقاف فى الدراسة لتحقيق نسبه ، وبعد أن تم البحث كتبه الشيخ محمد عبده فى وثيقة النسب بخط يده وأرفقها بنبذة عن تاريخ صديقه الوزير حتى عام ١٨٨١ (٢) . وجمعت بينهما الحركة الوطنية زميلى جهاد . وحين تولى البارودى نظارة الجهادية ثم رئاسة النظر كان يبعث الشيخ محمد عبده برسائله ووساطاته ومشورته لزعماء الحركة من العسكريين (٣) . وفرقت الهزيمة بين الصديقين فنفى البارودى الى سيلان نفيا مؤبدا ونفى محمد عبده الى بيروت لثلاث سنوات ولكن جبل الود ظل متصلا بينهما بالرسائل .

(١) شوقى أو صداقة أربعين عاما ص ١٠٤ .

(٢) نشرتها مجلة المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ - ١٩٠٤ .

(٣) فرع ناصية العلماء علاها شرفاء .

وفى ديوان البارودى قصيدة يقال انه بعثها رسالة ضمن رسائله
من منفاه الى محمد عبده بعد عودته الى مصر (١) ، والرسالة قصيدة
رقيقة تفيض حنيناً وشوقاً الى الوطن وتضيق بصحبة أهل سرنديب
ويصرح باسم صديقه فيها ويبدؤها بقوله :

وأطول شوقى اليك يا وطن وان عرثنى بحبك المحن
لست أبالي وقد سلمت على الله سر اذا ما أصابنى الحزن (٢)
ليت بريد الحماس يخبرنى عن أهل ودى فلى بهم شجن
ويمضى فيذكر ضياعه وهمومه من بعد فرقتهم ويشكو لصديقه
الوحشة وهو يعيش بين أهل الجزيرة مجبراً نفسه لا تسيف
مصادقتهم وروحه لا تألفهم أو ترتاح اليهم ، ثم يخلص من الصحبة
الموحشة الى تمنى العودة وصحبة صديقه محمد ، وتنداعى عليه
ذكريات صداقتهما فيذكر له بيانه ولسانه وحجابه ، ويحمد له
نصرته ثم يضعه فى المقام اللائق به فيقول :

فهل الى عودة ألم بهنا شملى وألقى محمداً سنن (٣)
ذاك الصديق الذى وثقت به فهو بشكرى ومدحتى قمن (٤)
عاشرته حقبة فأنجى دنى منه الحجا والبيان واللسن
وهو الى اليوم بعدما علقت بى الرزايا مخيل هتن (٥)
ينصرنى حيث لا يكاد حم يمنحنى وده ولا ختن (٦)
« وكان البارودى - كما يقول شكيب أرسلان - من أحب الناس
الى قلب الشيخ محمد عبده ، فلم أعلم أنه كان يذكر أحداً من أقرانه
بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامى رحمه الله ، وكان يتأوه

(١) معلومات الأسرة .

(٢) الحزن : الهم .

(٣) السنن : الطريقة .

(٤) قمن : جدير وخليق به .

(٥) المخيلة : السحابة التى تحسبها ماطرة والهتن : جمع هائن . المطر

المتابع .

(٦) الختن : كل ما كان من قبل المرأة ، وهذه الأبيات لم يسبق نشرها .

على غربته ونكبته بما لا يتأوّهه على أحد (١) . ومنذ عاد محمد عبده من منفاه وهو يحاول ما وسعه الجهد لدى أصدقائه من أهل الحكم في عودة البارودي الى الوطن ولكن مسعاه لم يكلل أول أمره بنجاح . ويمتد النفي والاغتراب بالبارودي حتى يبلغ الستين من عمره فيبلغ به اليأس مداه ، ويلف روحه ويحيط بها من كل جانب ، وتطفأ شموع الآمال كلها في قلبه وفي عينيه ، ويصاب بشعور « اللامبالاة » فتصبح الحياة عنده سواء نعيمها وشقاؤها ويلفظ مآربه منها بعد أن تمنعت عليه ، ثم يرمى عبء ذلك كله على ظالمه فيقول :
أبعد ستين لي حاج فاطبها ؟

هيهات ! ما لامري بعد الصبا حاج

لا احفل الطير ان غنت وان نعت

سيان عندي صفار وشحاج (٢)

يستعظمون من الحجاج صولته

وكل قوم بهم للظلم حجاج

ومع الستين (١٨٩٩) تهاجم البارودي العلة والمرض ويعود الارشاح الى قرنائه بقوة ويهدد عينيه بالظلام الأبدى ، فيفزع البارودي ويصيبه الهلع من أن يعيش رهين المحبيين ، ويضاعف له الهلع العذاب حتى ليتمنى الموت خلاصا منه فيقول :

متى ينقضي عمر الحياة فتنقضي

مآرب كانت علة للمظالم (٣)

وتقرر جمعية الأطباء (القمسيون) بسرنديب - بعد أن اشتدت وطأة المرض على البارودي - ضرورة عودته الى وطنه لمعالجته في المناخ الذي ولد وشب فيه ، وأشارت الى أنه سيصاب بالعمى لا محالة ان ظل بالجزيرة ، وقد يدركه ما أدرك اخوانا له من قبل -

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ١٠ من نبذة بقلم شكيب أرسلان من سيرة محمد عبده .

(٢) الصفار : الكثير الصغير وهو للطيور . والشحاج : الغراب الكثير النعاب .

(٣) هذا البيت لم يسبق نشره .

وكان قد توفي من رفاق النفي بالجزيرة لعدم ملائمة مناخ البلاد الاستوائى لصحتهم عبدالعال حلمى (١٨٩١) ومحمود فهمى (١٨٩٤) - ويجزع صجب البارودى وأهله بالقاهرة ويخافون أن يدركه فى مرضه القضاء وهو بسرنديب ، فيلحون عليه أن يتقدم بملتمس الى الخديو عباس ليسمح له بالعودة الى مصر للاستشفاء . ويلقى الشيخ محمد عبده بكل ثقله ومساغيه لينقذ صديقه العانى الغريب وقد دبت اليه نذر الفناء (١) ، وتكفل المساعى بالنجاح ويسمح للبارودى بالعودة . ورد الله الغريب المعذب الى وطنه ، وعاد البلبل الصداح الى روضه ، وفك الله أسار العانى وبل شوقه وصداه بعد طوال اغتراب امتد سبعة عشر عاما !

أقلعت السفينة من ميناء كولومبو اول سبتمبر ١٨٩٩ وتقول ابنته فاطمة (٢) وكانت فى الثامنة من عمرها وقت العودة « وجفا النوم عيني « الباشا » طوال الرحلة وهجر « قمرته » وصار يتنقل فى أبهاء الباخرة لا يقر له قرار ، وكان شارد الذهن لا يسمعا حين نتحدث اليه وكأنه بعيد عنا ، ولزم الصمت لا يشارك فى حديث ، وكنا صفارا لا ندرك ما هو فيه من المعاناة والشوق . ولم يكن شوقنا - وقد ولدنا جميعا فى سيلان - من طبيعة الشوق الذى يكابده « الباشا » وكنا قد سمعنا الكثير عن وطننا مصر من أبى وأمى فأحببناها على البعد ، ومن ثم كان شوقنا اليها شوق المستطلع للمجهول الجميل الذى يملأ علينا أفكارنا وأسماعنا » ، وتصل السفينة الى ميناء السويس صباح ١٢ سبتمبر ١٨٩٩ بالعائد وأهله « فيقف على ظهر السفينة مستقبلا مصر وهو قابض على سور السفينة والدموع تنهمر من مآقيه ولا يجرؤ أحد منا أو من مستقبليه من اخواتنا وأخوتنا أو الأهل والصحاب أن يقترب منه فيقطع عليه لحظة اللقاء مع وطنه الحبيب (٣) » .

(١) معلومات الأسرة .

(٢) من حديثها الى فى مارس ١٩٦٦ .

(٣) المصدر السابق .

الفصل الرابع

بعد المنفى

الزعيم العائد :

تواكب المواطنون ومن بقى من رفقاء الجهاد الى دار البارودى
لتحية الزعيم العائد ، وتوافد عليه عشاق الأدب والشعراء وأهل
الفكر والعلماء لتهنئته بالعودة ، وقد كانت أوبته اليهم عيداً نشر
البشر فى محيطهم فتسابقوا اليه ، يعيد حب الود من كان على
معرفة به قبل النفى ، ويعقد أواصر الصلة معه أبناء الجيل الجديد
ممن سمعوا عنه وعرفوه قبل رؤيته من خلال شعره وجهاده ، وكلهم
لهفة وشوق الى سماع قيثارة الشعر تعزف لحن اللقاء ، وغنى لهم
البارودى « أنشودة العودة » فقال قصيدته المشهورة التى يستهلها
بقوله :

أبابل رأى العين أم هذه مصر

فأنى أرى فيها عيونا هى السحر

ويمضى البارودى يتغزل فى فائنات مصر ، وهو لا يقصد
الا التغزل فى فائناته الكبرى التى تيمته سبعة عشر عاماً فيقول فيها :

رضيت من الدنيا بحبك عالماً

بأن جنونى فى هواك هو الفخر

ثم يعرج على العناصر الرجعية التى تمالىء المستعمر وتمكن له
فى احتلال البلاد وقد شوهاوا الثورة ثم أفزعتهم عودة زعمائها ،

وملأهم الخوف من أن تتجمع الأمة حولهم من جديد ، فيطلبون
الحجر على أسنتهم وأقلامهم فيقول فيهم :

إذا ما أتيت الحي فارت بغيظها

قلوب رجال حشو آماقها الفدر

أفي الحق أن تبكى الحمائم شجوها

ويبلى فلا يبكى على نفسه حر ؟

وتستقبل الصحف ذات الصبغة الوطنية الزعيم العائد استقبالا
حافلا فيكتب محرر المؤيد (١) : « عاد محمود سامي (باشا) البارودي
الى القاهرة عائدا من منفاه ، والله أعلم بمقدار ما خامر قلوب أهله
وأصدقائه من الفرح ، بل وما خامر قلبه وامتزج بكل حواسه منه
عندما وطئت أقدامه تراب النيل بعد أن بلغ به اليأس منتهاه ،
وقصدت داره ولم أكن قد رأيته من قبل . فاذا هو رجل ربعة يميل
الى الطول قليلا نحيف الجسم كأنما هو ناقة من مرض طويل ، كث
الliche ، أبيض العارضين مختلط شعر الرأس مع صلع خفيف ،
وقد وضع على عينيه نظارة سوداء تلطيفا لأشعة الضياء . . وسألته
عن رفاقه في جزيرة سيلان وهم عرابي ويعقوب سامي وعلى فهمي
فقال : ان صحتهم جميعا سيئة وتدهور يوما بعد يوم ، فعسى الله
أن يفك الكرب عنهم ويشملهم بعطفه فيعودوا الى الديار ، وكان
كلما استطرد الحديث عاد الى ذكرى آلامه التي عاناها في منفاه
وخاصة بعد أن أصيبت عيناه فقال : ما أشد ما كنت فيه من الأكدار
والأحزان وحيدا لا انسان تود الحديث اليه ولا أنيس تلذ محاضرتة
أو تطيب معاشرته ، وكان لى من مطالعة الكتب والصحف خير
ما يتسلى به المرء فى وحدته ويأنس اليه مثلى فى غربته فلما أصاب
بصرى ما أصابه فقدت كل لذة فى الحياة (٢) » .

(١) انظر أيضا الهلال ١٥ سبتمبر ١٨٩٩ سنة ٧ ج ٢٤ .

(٢) المؤيد - على يوسف - ١٨٩٩/٩/١١ .

وتجد الصحف الوطنية وصحاب البارودي ابان العودة حرجا
في ذكر رتبة الباشوية مع اسمه وهم يكتبون عنه أو يتحدثون اليه
في عصر يعبد الألقاب ولما يعد اليه لقبه ، وكانت بعض الصحف تكتب
لقب (باشا) بين قوسين جوار اسمه وبعضها الآخر يكتبه مجردا
من كل لقب . ويسخر البارودي من مهزلة الألقاب كلها ويقول :

منحتك القاب العلا فادعني باسمي
فما تخفض الألقاب حرا ولا تسمى
يقولون محمود ، ويا ليت اننى
كما زعموا ، أو ليت لى طالعا كاسمى(١)

وينصح البارودي أطباؤه بسكنى حلوان علّ هواءها الجاف
ومياها المعدنية تبّله من مرضه وترد له ما زاغ من البصر ، فيقيم
في دار تجاور دار الشاعر أحمد شوقي ، ويلتقى شباب الشعر
بشيخوخته ، ويصف شوقي جاره نزيل حلوان فيقول : « منكوب
كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق في البرامكة من جاه
يطويه ، ونعيم يدويه ، وولد يرديه ، ونور يطفئه ، وحسب وضاح
يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه ، جاورته بحلوان الشهور
الطوال يشد بيتينا طنبا ، وينتظم دارينا جدار ، فاذا الجار كريم ،
واذا الشاعر عظيم ، ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ،
ولا رأيته الا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه . . . سأله مرة
اسماعيل صبرى : هل له مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا ، قال :
وما منعك ؟ قال علمى بأن الغضب فى طباعى ، وخوفى من أن يملكنى
عند بعض الذكريات فيبغى القلم على الرجال ، فقال حامد خلوصى ،
وكان ممن ضم المجلس ، صدقت ، ألسنت القائل (ونغضب فى شروى
تقير ونشتد) فتبسم رحمه الله (٢) . ويسأله آخر فى ذلك فيقول :

(١) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

(٢) من رسالة لأحمد شوقي الى الدكتور محمد صبرى السربونى عام ١٩٢٣
انظر : الشوقيات المجهولة لأحمد صبرى ج ٢ ص ١٧٥ (١٩٦٢) .

« ان الكلام فى هذا الموضوع قد يتناول اشخاصا صاروا فى ذمة التاريخ ، وليس من المروءة ان يتكلم عن شخص لا يستطيع الدفاع عن نفسه (١) » .

وفى ١٧ مايو ١٩٠٠ يعيد الخديو الى البارودى القابه واملاكه الموقوفة فتقبل الدنيا عليه بعض الاقبال بعد نفورها الطويل ، ويشكر البارودى لعباس جميله ويمدحه فى قصيدة اخرى . على ان البارودى لم يسقه معروف عباس الى ان يصبح شاعر بلاط فيمدحه فى المناسبات كما يفعل شعراء العصر من امثال شوقى وعلى الليثى وغيرهما ، فلم يكن ذلك ديدنه ولا طبعه ، ولعل للبارودى بعض العذر حين مدح سليل الرجعية والخيانة ردا لجميله ، فقد كان عباس وقتذاك يخدع القوى الوطنية ويزعم انه يقف فى الصف الوطنى ضد الاستعمار معها ، وكان يضع يده فى يد مصطفى كامل ، ولكنه بعد حادث الجيش عام ١٩٠٦ عاد الى سيرة أسرته واصبح العميل الخانع للاستعمار . وفى يقينى ان البارودى لو عاش حتى راي هذا التحول لما حدثته نفسه بمدحه ، ومع ذلك فقصائده الثلاث فيه خالية من الروح الشعرية التى امتاز بها البارودى ، وهى من شعره الفاتر الذى يظهر فيه التكلف والاقتسار ، ولعل مشاعر الرجل قد عصته حين دعاها للقول فيه سيما وان البارودى قال ما قال قياما بالواجب نحو من عفا عنه وردده الى وطنه الحبيب .

الزعيم والرواد فى مدرسة المحافظين :

ويعود البارودى من حلوان الى داره «بغيط العدة» بباب الخلق. فى صيف عام ١٩٠٠ « فتصبح منتسدى الأدباء والشعراء وذوى المكانة » ، يأتونه فيأنسون اليه ويأتنس بهم . ويستمتعون بحديثه ويستمع الى انشادهم ومناقشاتهم ، ويرى فى مجالستهم ما يأسو جراحه التى أدمت قلبه طوال سنوات النفى العجاف ، وكان من

(١) طاهر الطناحى ، الهلال سنة ٣٨ جزء ٤ فبراير ١٩٣٠ .

اشهر رواد ندوته اسماعيل صبرى وأحمد شوقى و خليل مطران
وحفنى ناصف وحافظ ابراهيم ومحمد ابراهيم هلال (١) وحامد
خلوصى وحسن حمدى (٢) وعبد المحسن الكاظمى (٣) ومصطفى
صادق الرافعى (٤) من الشعراء والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد
رضا من العلماء (٥) وغيرهم من أهل الفن (٦) والفكر والعلم وعشاق
الأدب والشعر ، وفى هذه الندوة أخذت مدرسة البعث فى الشعر
العربى ترسى قواعدها وتمد ينائيعها الى الأمة العربية كلها ، وتحول
الشعر من على أبواب البلاط ، ويلتقى فى الندوة الزعيم بالرواد
والأستاذ بالحواريين ، وكلهم يرنون اليه ، فقد كان زعيم النهضة
الشعرية التى تحماهم على جناحها فيقرون له بالفضل ، مهد لهم
الطريق فأنقذ الشعر من أدرانته وأوشابه العثمانية ، وأخذ بيده من
عشرة الأساليب الركيكة ، ورد اليه الروح العربية التى تعيش فى
كياننا وأحاسيسنا ، وبث فيه الحياة ، حياة نفسه ، وروح عصره
وقومه ، فحال بين الشعر وبين السقوط الذى كان يهوى الى دركه ،
وقدم للأمة العربية شعرا ملك عليها القلوب والأسماع بجزالته
ونصاعته وبهجة الديباجة فيه ، تنبعث منه الروح العربية الخالدة،
وتظهر فيه الشخصية القومية البارزة والشخصية الفردية
المستكملة لحريتها وتمثل فيه أحاسيسه ومشاعره ، فيصبح
منطلقا لعواطفه المختلفة ، ومتنفسا لمشاعر أمتة المتباينة فى فترات
التحول الكبرى من الاستبداد الى الثورة ثم الى الهزيمة والاحتلال.

-
- (١) طاهر الطناحى : الهلال السنة ٣٨ ج ٤ - ١٩٣٠ .
(٢) المجلة المصرية فى ١٩٠٠/١٠/٥ .
(٣) الرسالة عدد ٤٣٧ نوفمبر ١٩٤١ .
(٤) المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .
(٥) المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ ديسمبر ١٩٠٤ .
(٦) من أمثال عبده الحامولى ومحمد عثمان انظر الشوقيات المجهولة
ج ٢ ص ٤٦ .

كان رواد المدرسة ينهلون من شعر البارودي ومنبعه الأصيل قبل أن يعود وبعد أن عاد ، ثم تنفرد بهم شخصياتهم الأدبية ، فيسلك كل منهم السبيل الذي تدفعه اليه ملكته واستعداداته ، وتهديه اليه فنيته وثقافته ، فتظهر سماته وميزاته لتكونه شاعرا يأخذ طريقه في مملكة الشعر وحده ، لكنهم جميعا كانوا يلتقون عند المصدر والمنبع في « مدرسة المحافظين » تلك التي حافظت على تقاليد الشعر العربي في المنحى والأسلوب من شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، ونصاعة التراكيب ومتانة النسيج ، وتعلقت بكل ما يتصل بشخصية الشعر العربي ومقوماته ، ومع أنها اتجهت الى الوراء لتتخذ من العصور الذهبية للشعر العربي المثل والأمل الا انها لم تحجر على الفنية أن تتسع آفاقها لكل ماهو جديد يساير ذوق العصر ويعيش معه ثم تمزجه بتقديمها الأصيل فيعصمه من الأسفاف ومن الاندفاع وراء موجة التجديد اندفاعا يخرج الشعر عن الروح العربية الأصيلة . واستطاعت المدرسة بذلك أن توائم بين القديم والجديد وبين الأسلوب العربي وبين ثقافة العصر وروحه .

ويقص علينا مطران قصة اللقاء بينه وبين أستاذه فيقول : « أدركته بعد عودته من المنفى صيف عام ١٩٠٠ ، وزرتة مع صديقه الكاتب الشاعر محمد ابراهيم هلال ، ودخلنا عليه وهو في صدر مجلسه فحيانا بذلك اللطف الذي كان لا يفارقه ، ولا تثبت معه الكلفة . وكان لى معه بعد ذلك ود وعهد (١) » .

ويعجب خليل مطران بعد أن زادت معرفته بأستاذه وبعد أن لازمه واطلع على حياته في بيته وأصبح من المقربين الى روحه « من أن هذا الوزير الذي اقتدح زناد تلك الهمة ، وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة ، لم يكن مع شجاعته واقدامه

(١) المجلة المصرية عدد ١٤ عام ١٩٠٤ .

الذين بلغا به اقصى مبالغهما في موطن القتال الا رجل سكينه
ووداعة وحلم ، وقلما كان رجل أرق منه قلبا على ذويه ، وأحفظ
عهد لمحبيه ، ولعل اصابته بكريمتيه هي التي قلصت من كبده ،
وأودت بجسده (١) » .

« وزاره حافظ ذات يوم من عام ١٩٠٠ ، وكان حافظ في ذلك
الحين سييء الحال بعد عودته من السودان ، وأحاليته الى
الاستيداع .. فأنشد قصيدة دالية نظمها في البارودي وفي الأشادة
بمناقبه وقد بدأها بأبيات في الغزل .

ثم خاطب البارودي فقال :

أمير القوافي ان لى مستهامة
بمدح ومن لى فيك أن ابلغ المدى
أتيت ولى نفس أطلت جدالها
سيقضى عليها كربها اليوم أو غدا
فان لم تداركها بفضل فقد أتت
تودع مولاه وتستقبل الردى

قال خليل مطران : فلما سمع البارودي هذين البيتين بكى بكاء
حارا ، وناشد حافظا أن يحذفهما من القصيدة ، ونهض من مكانه ،
ثم عاد وبيده ظرف به أربعون جنيها ناوله حافظا ، وهي قيمة
ما كان مقررا للبارودي وقتئذ من معاش . ثم قال لحافظ :
انى أبكى ، لأنى عشت الى زمن يقدم فيه مثلى الى مثلك هذا
المبلغ الضئيل (٢) !! » وكأن البارودي قد استشعر اللوم من

(١) الجوائب المصرية في ١٥/١٢/١٩٠٤ .

(٢) خليل مطران انظر : حياة مطران لطاهر الطناحى ص ١٩٧ - ١٩٨
(١٩٦٥) وقد وفي حافظ للبارودي فحذف البيتين من القصيدة ولم ينشرهما
في الديوان ولا في الصحف .

الصديق الثالث (١) - بعد أن خرج حافظ - أن جاد بكل مرتبه دون أن يبقى لنفسه أو لأسرته شيئاً ، ولم تكن أملاكه المصادرة قد ردت اليه فيقول البارودي :

لا تعذلى على وفر سمحت به
للمعتفين فاني ماجد الشيم
ان لم يكن للفتى جود يسد به
مفاقر الصحب فالثرة كالعدم (٢)
فان يكن قل مالى بعد وفرته
فان مالى لا يقسوى على الكرم

ويحج الى ندوة البارودي فيمن يحج من الأدباء الشبان « مصطفى صادق الرافعي » لينعم بصحبة أمير القوافي وينشده شعره ، ويحدثنا الرافعي عن مجالسه مع البارودي فيقول (٣) : « كنت ذات عشية عنده فسألته أن يوقفني على شيء من شعره الحديث فقال :

ان عنتره يقول (هل غادر الشعراء من متردم ؟) وهذا عيب علينا ولذلك شرعت في نقض قصيدته ، ثم انشد أبياتا مطلعها (كم غادر الشعراء من متردم) ويقول فيها في وصف مصر :

هي جنة الحسن التي زهراتها
حور المها وهزار أيكتهامي (٤) »

والقصيدة الى أشار اليها الرافعي من عيون شعر البارودي وأغلب الظن أنه في الخريات أيامه أراد أن يضع نفسه في مكانه

(١) خليل مطران معلومات الأسرة .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٣) المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .

(٤) المصدر السابق .

من التاريخ والشعر بهذه القصيدة ، فجعلها وصفا لمقدراته
في الشعر وفي الوطن وفي الحروب وفي المعالي والشدائد فيكون
التأخر الذي فاق المتقدمين ، وعبقري الشعر الذي يأتي على رأس
كل عصر فيحيي أنفاس القريض ، والفارس الذي يعلو ناصية
العلا بشرفه وفضله وشجاعته فيقول فيها :

كم غادر الشعراء من متردم
ولرب تال بز شأو مقدم (١)
في كل عصر عبقري لا يننى
يفرى الفرى بكل قول محكم (٢)
أحييت أنفاس القريض بمنطقي
وصرعت فرسان العجاج بلهزمي
وفرعت ناصية العلى بفضائل
هن الكواكب في النهار المظلم (٣)

ويمضي البارودي في القصيدة فيطلب - أن كان هناك من يجهل
مكانته - أن يسأل عنه مصر لتخبره بشرفه ومحتده وعزه التليد ،
وهي ولا شك أعرف الناس به ، فقد نشأ يرشف من غديرها ويطعم
من نبتها ، وينشق نسيمها ، فهو جزء منها ، دمه من نيلها ،
وجسمه من ترابها ، وروحه من هوائها وبها أهله وأحبته وأعظم
أجداده تحت ثراها فهي دار الكرامة عنده وجنة الحسن ، زهراتها
حور المها وهو طائرها الفرد وبلبلها الصдах .

ثم يتحدث البارودي عن موهبته الشعرية وملكته الفنية
التي نشأت في طبعه أصيلة خلاقة ليست مقلدة لأحد من السابقين ،

(١) متردم : الأصل فيه الموضع الذي يرقع أو الكلام الذي يلفق وهو هنا
ترك الشعراء السابقون معاني كثيرة للقول فيها .
(٢) لا يننى : لا يزال ، يفري الفرى : معناه هنا يخلق الخلق الجديد .
(٣) فرع ناصية العلماء علاها شرقا .

فكان خلقا وحده يهفو الى شعره أبو نواس ويطرب له مسلم
ابن الوليد ، ثم يحدد دوره في الشعر العربي وريادته لنهضة جديدة،
فقد قوم الشعر وأخذ بيده بعد أن كاد الفساد والصنعة يقضيان
عليه وفتح فيه مجالات لم يكن يعرفها أبناء عصره من الشعراء
كما يقول :

ذلت منه غواربا لا تمتطى

وخطمت منه موارفا لم تخطم (١)

وتسعد مصر وهي ترى ابنها العائد يملأ جوها الأدبي حياة
ونشاطا ، ويمد مريديه الشعراء بروح من عنده فتتكون حركة
شعرية كبيرة تنتشر من مصر لتملأ الآفاق العربية فيسير الشعراء
على نهجها ويقبسون من ضوئها حتى يعم النور .

ويضنى البارودي ويعذبه ما يراه على جسد وطنه الحبيب
من جروح الاحتلال وقروحه ، ويمر بقصر الجزيرة - وقد قضى
فيه ردها من شبابه يوم أن كان ياور الاسماعيل - فيشهد ما فعلت
به يد الزمان وما فعلت بقومه ووطنه - فيؤلمه الواقع وتمضه الذكرى
ويذرف دمعة الرثاء على القصر ، وكأنه يبكي الماضي جميعه والوطن
ومصابه فيقول (٢) قصيدته : « هل بالحمى عن سرير الملك من
يزع » والقصيدة من عيون شعر البارودي ، ومحور قوتها هو
« الذكرى » . وهي دمعة رثاء على الحال التي آلت إليها البلاد ،
ورؤيته المحتل جاثما على صدرها ، ولا ريب أن الألم الصامت
كان في فؤاده كالجمر تحت الرماد ، فلم يصرح به في شعره ، وأشد
الآلام ما كان مكتوما ، والقصيدة تدل على أن البارودي كان ثاقب
الفكر لا تصرفه الظواهر عن رؤية المكنون من البواطن ، فلم تفره

(١) البيت من قصيدة لم يسبق نشرها .

(٢) نشرت المنار القصيدة في عددها ٢١ من المجلد ٧ يناير ١٩٠٥ وقالت

« انها من آخر ما نظم » .

الرفاهية المادية التي غرت بعض العربيين بعد رجوعهم من المنفى ، فتوهموا أن أغراضهم تحققت ، ولم تغره مظاهر العسdl الأجنبي المنظم في الظاهر ، ولكنه أزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبي المنظم في الباطن الذي يضوّل بجانبه كل ظلم (١) .

ولا تترك الأقدار معذبها العانى يقضى ما بقى له من أيام هادئاً يأسو جراحه ، ويبرىء الآلام التي أضنته سبعة عشر عاماً ، أو يهنأ بالعودة الى وطنه بين أهله وبنيه وصحبه ، بل تأبى الا التمادى في ملاحظته بنوبها وارزائها فينشب الموت أظفاره في احدى بناته ليلة زفاف أخت لها (٢) . ويعقد المصاب لسانه وتفزع النائبة جنانه ، وتتحجر منه المآقى وينضب معين الدموع فلا يستطيع بكاء ابنته ، ويبكى له صحبه ومريدوه ، ويواسيه حافظ وشوقي وشكيب أرسلان و خليل مطران (٣) وغيرهم من الشعراء !! ثم يتلو المصاب مصاب آخر يفقد فيه ابنة أخرى بين يديه « فقلصت المصائب كبده ، وأودت بجسده ، وقضت على البقية الباقية من نور عينيه » (٤) .

وكان البارودى منذ عاد الى الوطن وفي يده سفر خلوده ... ديوان شعره ينقحه ويعده للطبع (٥) ، ويملى على كاتبه - الشيخ ياقوت المرسى والشيخ عطيه حسنين (٦) - بعد أن كف بصره في

(١) محمد صبرى : محمود سامى البارودى (١٩٢٣) ص ٦٤ .

(٢) عام ١٩٠٢ .

(٣) انظر دواوين هؤلاء الشعراء والمجلة المصرية سنة ٢ عدد ١٩ مارس ١٩٠٢ .

(٤) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ في ١٥/١٢/١٩٠٤ انظر أيضا اللواء في

١٩٠٤/١٢/١٢ .

(٥) لم ينشر الديوان كاملاً حتى الآن وكانت أول نشرة له هي التي طبعت عام ١٩٠٩ - ١٩١٦ وقام بشرحها محمود الامام حتى آخر قافية اللام والنشرة الثانية طبعت عام ١٩٤٠ - ١٩٤٢ وقام بشرحها على الجارم ومحمد شفيق معروف حتى آخر قافية الكاف .

(٦) انظر مرائى الشعراء ص ٦ .

أيامه الأخيرة ما شاء من تغيير وتنقيح . وأصول الديوان تشهد بالجهود الكبير الذي بذله البارودي في هذا التنقيح والأعداد والمعاودة ، فهناك أبيات حذفها من بعض القصائد ، وأبيات أخرى غيرها كلها أو بعضها ، وإضافات جديدة ألحقها بقصائد قيلت من قبل ، وكلمات وفقرات لم ترقه فاستبدل بها غيرها وتفسيرات كثيرة أثبتتها في هامش الديوان لمعاني الكلمات الغامضة ، أو غير المتداولة . وذلك كله دليل على حبه الكبير لشعره وإيمانه به ، وشهيد على صدق عقيدته في أن العبقرية مجهود متصل في سبيل الكمال . وظل يرتب الديوان حسب قوافيه حتى أكمله آية لمجده وتراثا للأجيال من بعده في ٥٣١٣ بيتا غير قصيدة « كشف الغمة في مدح سيد الأمة وعدد أبياتها ٤٧ » بيتا (١) وغير المقطوعات الشعرية التي جاءت في ثانيا كتابه « قيد الأوابد » .

« قيد الأوابد » كتاب نثرى التزم فيه البارودي أسلوب السجع وراعى الصناعة البديعية ومحسناتها وجمع فيه بعض الخواطر السانحة والرسائل التي كتبها وأرسلها أو التي نفث فيها مكنون صدره فخفف عن قلبه ثم استبقاها لنفسه (٢) ، وكتاب قيد الأوابد لم ينشر حتى الآن ، وقد أورد الأستاذان على الجارم ومحمد شفيق معروف في مطلع نشرتهما لديوانه فصلا من هذا الكتاب « نموذجا لخطه وفنه الكتابي » ، وقد أمدهما به - كما يقولان - ابن الشاعر محمد أشرف البارودي (٣) .

وشغل البارودي نفسه أواخر سنى عمره أيضا « بمختاراته » (٤)

(١) انظر ص ١٦٩ - ١٧٠ من الكتاب .

(٢) معلومات الأسرة .

(٣) وعدتني كريمتا البارودي بالبحث عن أصول هذا الكتاب حتى يمكن نشره .

(٤) طبعتها زوجته أمينة يعقوب سامى بعد وفاته عام ١٩٠٩ - ١٩١١ في أربعة أجزاء وقام بتصحيحها « كاتب يدا لمنتخب في سنيه الأخيرة الفقير اليه تعالى ياقوت المرسى » (مطبعة الجريدة بسراى البارودي بمصر) .

فقد « رأى أن يتحف الأدباء من أهل عصره بمجموعة يختارها من شعر فحول الشعراء المولدين لتكون عوناً للناشئين على طبع ملكة البلاغة في النفس ، فاختار ثلاثين ديواناً وانتخب منها ما رق لفظه ودق معناه وخلا من الحشو والتعقيد . . . ورتب أسماء الشعراء على حسب أزمنتهم لا على حسب مكانتهم » (١) . وبدأهم « ببشار ابن برد » رائد الشعر العباسي ، وزعيم المحدثين المجيدين من الشعراء (ت ١٦٧ هـ) ، وانتهى بهم إلى « ابن عنين » المتوفى عام ٦٣٠ هـ « ووضع البارودي تعليقا لمختاراته يفسر به الألفاظ الغريبة والمعاني المغلفة (٢) » .

* * *

وكان القضاء كان ينتظر البارودي حتى يفرغ من تنقيح سفر خلوده ، وينتهي من اعداد تمثال عبقريته الخالد . . ديوانه ثم سلط عليه المرض في منتصف عام ١٩٠٤ (٣) واستعصى على الطب الشفاء ! ويلتف صحبه ومريده من حوله يودون لو يستطيعون دفع الردى عنه ، وتحمل الضر بدله ، ويتسمعون وكلهم آذان إلى آخر ما يقول وقد بدت لهم ملامح النهاية ، وفي صحو الموت وعلى فراش المرض الأخير يستجمع البارودي ما بقى له من قوة ويضم إليه قيثاره الشعر يودعها ويفني عليها « اللحن الأخير » (٤) فيقول :

أنا مصدر الكلم النوادي

بين الحواضر والبوادي

(١) مرآة الشعراء ص ٢٢ .

(٢) مرآة الشعراء ص ٢٣ .

(٣) جريدة اللواء في ١٣/١٢/١٩٠٤ .

(٤) ذكر خليل مطران أن هذه الأبيات آخر ما قاله البارودي على فراش المرض في رمضان ١٣٢٢ (نوفمبر ١٩٠٤) وقد توفي في ديسمبر ١٩٠٤ انظر الجوائب المصرية ١٤/١٢/١٩٠٤ .

أنا فارس ، أنا شاعر
في كل ملحمة ، ونادى
فإذا ركبت فأنسى
زيد الفوارس في الجلال (١)
وإذا نطقنت فأنسى
قس بن ساعدة الأيادي (٢)
هذا ، وذلك ديدنى
في كل معضلة تآد (٣)

وكانه بآخر أبياته يعلن مقدرات نفسه وهو ذاهب الى الأبدية ،
ثم يردف الحديث عن نفسه بحديث عن وطنه فيقول : لعواده
المقربين اليه : « هل سمعتم بانسان شكر الله على العمى ؟ أنا ذلك
الشاعر ، فقد جنبني الله رؤية الاحتلال وقد ضرب بجراحه على
بلادى . (٤) »

وفي أصيل يوم الاثنين الثاني عشر من ديسمبر ١٩٠٤ وقفت
ربة الشعر حزينة كثيبة تعزف لحنها الجنائزى والبارودى يسلم
روحه الى بارئها ، وودعته وداعها الأخير بعد رفقة دامت قرابة
نصف قرن رد اليها الشباب والقوة ، ووصلها بالمجد القديم
ورفعها الى مكانة أخواتها اللاتي عزفن لشعراء العربية المجيدين
في عصورها الذهبية .

وتهتز مصر من الأسى والفجيعة وقد فقدت في البارودى ابنا
من أعز أبنائها ، ورأى لنا نهضة أصيلة في الشعر وفنانا بعث الروح

(١) زيد الفوارس : هو ابن حصين بن ضرار الضبي ، فارس جاهلى مشهور
بـ به المثل في الشجاعة .

(٢) قس بن ساعدة الأيدي : من أشهر خطباء العرب في الجاهلية .

(٣) التآد : الداهية .

(٤) اللواء في ١٤/١٢/١٩٠٤ .

في الأدب العربي كله ، ومجاهداً ثائراً حاول أن يخلص وطنه من ظلم الاستبداد ويمنحه الحرية والاستقلال فلما أخفق قدم من شبابه وحريته وماله ونور عينيه فداء على مذبذب التضحية الوطنية ، وتنعى الصحافة (١) إلى العالم العربي شاعره الكبير ، « وتشارك مصر في أسائها لفقدته الأمة العربية كلها من الشام إلى بغداد ، ومن الجزيرة إلى تونس (٢) » . وكان أهل الأدب أكثر الجميع مصاباً وألماً « لأنهم يعرفون قدره ، وقد نسي مقامه السياسي عند من كان على رأيه ومن كان مخالفاً له ، لأن علة المناصب عرض يطرأ فيكون له حكمه ، ويزول فيحمر رسمه ، ولا يذكره الإنسان إلا بصفاته وأعماله (٣) » .

وخرج مشهده في الثانية من بعد ظهر الثلاثاء ١٣/١٢/١٩٠٤ من داره بسبب الخلق وأم المصلين عليه الأستاذ الإمام محمد عبده (٤) وجاء الناس من كل صوب وحذب يودعون البارودي الوداع الأخير ويشيعون جثمانه يتقدمهم عشاق فنه وشعره ، وعارفو فضله وجهاده الوطني ، وتلاميذه ومريدوه من الشعراء (٥) ، ويصف خليل مطران هذا المشهد فيقول : « خرجنا نمشي وراء نعشه المحفوف بالاجلال ونحن ننظر ذات السمين وذات الشمال ، فلا نرى بين الجمهور إلا كل مهتز العطف للشعر ، متطلع النفس إلى الحلال من السحر ، والجميع قد نسوا منه

(١) انظر : الجوائب المصرية ، اللواء ، المنار ، المؤيد ، المقطم ، والصاعقة من ١٢/١٢/١٩٠٤ إلى ٢٠ فبراير ١٩٠٥ .

(٢) من رثاء الجوائب المصرية في ١٥/١٢/١٩٠٤ .

(٣) من رثاء المنار في ٢٣/١٢/١٩٠٤ .

(٤) المقطم والمؤيد ١٤/١٢/١٩٠٤ ، المنار ٢٣/١٢/١٩٠٤ ويقول صاحب المنار انه لم ير الشيخ محمد عبده صلى على ميت غيره الا مأموماً .

(٥) لم يشيع شوقي جثمان البارودي مراعاة لشعور سيده الخديو .

الوزير رب الدولة ، والفارس صاحب الصولة ، وانما بكوا ذلك
الخلق الجليل في ذلك الخلق الجميل ، وذكروا الشاعر (١) . «

وأسلمه مشيعوه الى مثواه ، وتركوه من خلفهم الى لقاء
قريب ، فقد تواعد الشعراء والأدباء وصحب البارودي ومريدوه
على أن يجتمعوا على قبره في « ذكرى الأربعين » ليرثيه الشعراء
ويندبه الأدباء ويودعه مريدوه وعشاق فنه الوداع الأخير . « وفي
صباح هذا اليوم توافد جمهور كبير من الشعراء والأدباء على
اختلاف الطبقات والمراتب عربا وأفرنجيا الى مدفن البارودي
بالامام الشافعي ، والتفوا حول الضريح نائبا بعضهم عن مصر
وبعضهم عن الشام » وتقدم الشعراء والخطباء تباعا يقدمون
الى الجذث الطاهر تحية الفناء الى البقاء ، ونبهوا الأصدقاء
النائمة حوله في بهو السكون الخالد بتعديد مآثره وترديد ذكره ،
« وقالوا للنسيان تنح قليلا ، وللسلوان لأحسنت اليوم وان كنت
جميلا ، وكلهم على استحياء اليه بما يكون به شعره من الشعر ،
وما هم بمتهجمين عليه فقد خلدت له أقواله جميل الذكر (٢) » .
وأدى الشعراء والأدباء حق الوفاء للرائد الذي ذهب وأحيوا سنة
لم تسبق الا لشاعر المعرة من شعراء العربية .

(١) الجوائب المصرية في ١٥/١٢/١٩٠٤ .

(٢) تجد القصائد والخطب في جريدة الجوائب المصرية عدد ٢٠/١/١٩٠٥
وما بعده وقد جمعها خليل مطران في كتاب « مراثي الشعراء » ولم يحضر هذه
الذكرى أحمد شوقي أو اسماعيل صبري أو علي الليثي ولم ينشر أحد منهم
رثاءه في الصحف وقد أشارت الصاعقة في عددها ٢٣/١/١٩٠٥ الى أن شوقي
نظم قصيدة في رثاء البارودي لكنها لم تنشر سوى مطلعها وهو :

هذا ثرى مصر فتم بسلام

كم روعتك حوادث الايام

ولم تنشر هذه القصيدة في ديوان شوقي .

وعاد الراثون والمعزون ادراجهم الى الحياة وتركوا البارودى
لقبره يمنحه ما لم تمنحه دنياه .. تلك التى صافته قليلا فصافح
الثريا : وعادته كثيرا فأضنته حتى أكل الشقاء أكثر عمره
يمنحه الراحة الكبرى بعد طوال عذاب ، ويحنو عليه « فان كريما
من تضم الصفائح » !! وانتهت دنيا البارودى وانفض ما كان يعانى
من بوائق القدر والجحود ، وبقي للبارودى ما لم يبق لأمثاله
من رجال السيف والسياسة ... بقى له شعره المسطور على
ضمير الزمن ، والشاعر الصادق فى عداد الخالدين .

فهرست

صفحة	
٣	مقدمة
	الفصل الأول - المولد والنشأة :
١٥	المولد والنسبة
٢٢	التيم الصغير
٢٣	التربة والنشأة
٣٠	المدرسة الحربية
٣٥	مرحلة الاعداد والتكوين
٤٠	آفاق جديدة في الاستانة
٤٥	بين الحاشية وطريق الأمل
٤٧	في حرب كريد
٥٠	الفجر الجديد في الشعر العربي
٦١	غزل البارودي وخمرياته
	الفصل الثاني - بين السياسة والثورة :
٧٤	مولد الثائر
٨٥	فيض المعركة
٨٩	واستيقظ المارد
٩٢	نداء الثورة
٩٥	أسلوب الرجعية
٩٨	الولاء لحركة الضباط
١٠٣	حتمية الثورة
١٩٧	

صفحة

١١١	• • • • •	الزحف المقدس
١١٣	• • • • •	وزارة الشعب
١١٨	• • • • •	المذكرة المشتركة
١٢٨	• • • • •	معركة الشرف والكرامة
١٣٧	• • • • •	بين الهزيمة والتسليم
١٤٧	• • • • •	الأمل الجديد

الفصل الثالث - في المنفى :

١٥٢	• • • • •	رحلة الفراق الحزينة
١٥٤	• • • • •	من ظلمة النفس والألم
١٥٧	• • • • •	حملة التشهير
١٦٢	• • • • •	الوحدة ومواكب الأحزان
١٦٨	• • • • •	في كندى
١٧٠	• • • • •	تيار الزهد في حياة البارودى
١٧٤	• • • • •	مراسلات البارودى في المنفى

الفصل الرابع - بعد المنفى :

١٨١	• • • • •	الزعيم العائد
١٨٤	• • •	الزعيم والرواد في مدرسة المحافظين

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ - محمد عبده	عباس العقاد
٢ - المعتمد بن عباد	علي أدهم
٣ - جابر بن حيان	د . زكي نجيب محمود
٤ - عبد الرحمن بن خلدون	د . علي عبد الواحد وافي
٥ - ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ - معاوية	ابراهيم الابياري
٧ - سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ - عبد القاهر الجرجاني	د . أحمد بدوى
٩ - عبد الله النديم	د . علي الحديدى
١٠ - عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الرئيس
١١ - مالك	أمين الخولى
١٢ - القلقشندي	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ - الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ - الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ - ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ - المختار الثقفى	د . علي حسنى الخربوطلى
١٧ - الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ - الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ - زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ - قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ - شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ - ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ - أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ - عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ - الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ - الكندى	د . أحمد فؤاد الاموانى
٢٧ - صاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ - الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ - أحمد زكى	أنور الجندى
٣٠ - حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين

المؤلف	اسم الكتاب
عقيد محمد فرج	٣١ - المثني بن حارثه الشيباني
عبد القادر أحمد	٣٢ - مظفر الدين كوكبوري
د . ابراهيم أحمد العدوي	٣٣ - رشيد رضا
د . محمود أحمد الحفنى	٣٤ - اسحاق الموصلى
د . زكريا ابراهيم	٣٥ - أبو حيان التوحيدى
د . أحمد كمال زكى	٣٦ - ابن المعتز العباسى
د . ماهر حسن فهمى	٣٧ - الزهاوى
د . هائلة عبد الرحمن	٣٨ - أبو العلاء المعرى
د . حسين فوزى النجار	٣٩ - أحمد لطفى السيد
د . فوقية حسين	٤٠ - الجوينى امام الحرمين
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٤١ - صلاح الدين الأيوبى
محمد عبد الفنى حسن	٤٢ - عبد الله فكرى
د . على حسنى الخربوطلى	٤٣ - عبد الله بن الزبير
أنور الجندى	٤٤ - عبد العزيز جاويز
عبد الرؤوف مخلوف	٤٥ - ابن رشيد القيروانى
محمود خالد الهجرسى	٤٦ - محمد عبد الملك الزيات
محمود غنيم	٤٧ - حفى ناصف
د . سيدة اسماعيل الكاشف	٤٨ - أحمد بن طولون
أحمد سعيد الدمرداش	٤٩ - محمود حمدي الفلكى
محمد عبد الفنى حسن	٥٠ - أحمد فارس الشدياق
د . على حسنى الخربوطلى	٥١ - المهدي العباسى
د . محمود رزق سليم	٥٢ - الأشرف قانصوه القورى
د . حسين فوزى النجار	٥٣ - رفاعه الطهطاوى
د . محمود أحمد الحفنى	٥٤ - زرياب
د . حسن أحمد محمود	٥٥ - الكندى « المؤرخ »
د . زكريا ابراهيم	٥٦ - ابن حزم الأندلسى
د . بول غليونجى	٥٧ - ابن النفيس
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٥٨ - السيد أحمد البدوى
د . محمد مصطفى هداره	٥٩ - السامون
محمد عبد الفنى حسن	٦٠ - المقبرى
عبد الرحمن الرافعى	٦١ - جمال الدين الأفغانى
د . أحمد كمال زكى	٦٢ - الجاحظ
د . أنور عبد العليم	٦٣ - ابن ماجه
د . ماهر حسن فهمى	٦٤ - محمد توفيق البكرى
د . على محمد الحديدي	٦٥ - محمود سغامى البارودى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة

تقدم فى ١٠ مايو ١٩٦٧
العدد السادس والثلاثين

أهم موضوعات العدد :

مسئولية الكتاب العربى فى

التعريف بالابداع الشعبى

بقلم د . عبد الحميد يونس

اليمن من الباب الخلفى

بقلم الأستاذ محمود محمود

اسرائيل عبر التاريخ

بقلم د . حسين فوزى النجار

الهاشميون وقضية فلسطين

بقلم د . عبد العزيز الشناوى

أومن بالانسان

بقلم الأستاذ أحمد الشرباصى

تيارات ((الكلمة القلقة))

يقدمها جمال بدران

رئيس التحرير

على أدهم
الدكتور عبد الحميد يونس

يرطب من باعة الصحف ومن
مكتبات الشركة القومية للتوزيع
«مكتبات دار القومية» ودار
التأليف والترجمة ودار القام
سابقاً» الثمن ١٠ قروش

ويطلب من مكتبة مصر

٢ شارع كامل صدقى « النجاة